جلال أمين





مكتوب على الجبين

حكايات على هامش السيرة الذاتية



جلال أمين

مكتوب على الجبين

حكايات على هامش السيرة الذاتية



مكتوب
على الجبين



لمزيد من المعلومات عن الكرمة للنشر والتوزيع: www.facebook.com/alkarmabooks

أمين، جلال.

مكتوب على الجبين: حكايات على هامش السيرة الذاتية / جلال أمين – القاهرة: الكرمة للنشر والتوزيع، ٢٠١٥.

٢٨٨ ص؛ ٢٣ سم.

تدمك: 9789776467262

١ – أمين، جلال – المذكرات

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ١١٢٥٨ / ٢٠١٥

٢ ٤ ٦ ٨ ١ ٠ ٩ ٧ ٥ ٣

صورة الغلاف: بإذن من الجامعة الأمريكية في القاهرة.

تصميم الغلاف: عمرو الكفراوي

المحتويات

الباب الرابع: في الحياة الحديثة

الباب الخامس: مكتوب على الجبين

مقدمة

«لا شيء أغرب من الناس»(١)
مَثَل شعبي إنجليزي

لا بد أن زوجتي وأولادي قد لاحظوا عليَّ، مع تقدمي في السن، أني أعود، المرة بعد الأخرى، إلى تكرار وصف حادث حدث لي وأعتبره طريفًا، أو جملة بليغة قرأتها في كتاب أو سمعتها من شخص ما وأعجبتني، أو إلى وصف منظر من فيلم أو مسرحية أثر في نفسي، وأحيانًا إلى تكرار نكتة قديمة سمعوها مني من قبل أكثر من مرة. لاحظوا أيضًا أنه لا يبدو عليَّ أي خجل عندما أتبين من تعبيرات وجوههم، أو حتى مما يقولونه صراحة، أنهم سبق لهم سماع هذا عدة مرات من قبل. بل قد أضحك وأستمر لإكمال ما بدأته، وكأني أريد أن أروي الحادث أو القصة لنفسي لا لهم. قد يتحول الأمر إلى ضحك متبادل بيني وبينهم، ليس بسبب طرافة القصة، بل بسبب إصراري على حكايتها من جديد رغم كل شيء.

لديَّ حصيلة كبيرة من هذه القصص والحواديت، ولا أكفُّ عن تذكر المزيد منها. لديَّ أيضًا حصيلة كبيرة من قصص ومواقف أخرى لا تصلح بالضبط لأن تكون موضوعًا لتبادل الحديث مع أسرتي على مائدة الغداء أو مع الضيوف، ومع هذا فهي أيضًا قصص ومواقف أثيرة لديَّ، لما تركَته من أثر في نفسي لا زال قويًّا رغم مرور الزمن. لديَّ رغبة لا تُقاوَم في كتابة كل هذا على الورق. وأظن أن السبب في هذه الرغبة القوية، هو نفسه الذي كان يدفعني إلى

---

(١) «Nothing is as queer as folk.»

حكايتها لأسرتي المرة بعد المرة، وهو شعوري بأن لكل منها مغزى عامًّا من المفيد إدراكه وتأمله، وقد يتعلق بشخصية مهمة ومعروفة ويلقي ضوءًا جديدًا عليها. بل يزداد شعوري قوة مع مرور الوقت، بأن عدم تدوين ذلك ونشره قد يكون ذنبًا لا يُغتفر.

* * *

كنت قد قرأت جملة أعجبتني للكاتب الإنجليزي «ألدوس هكسلي»، واقتطفتها في مقدمة كتاب «ماذا علمتني الحياة؟»، يقول فيها: «مشكلة القصص الخيالية أنها تحمل من المغزى أكثر مما يجب، بينما الحياة الواقعية ليس لها أي مغزى (أو معنى) على الإطلاق»(١).

نعم، كنت ولا أزال معجبًا بهذه الجملة، ولكني الآن أقل ثقة من ذي قبل بأنها صائبة تمامًا. صحيح أن كاتب القصة الخيالية قد يتعمد إقحام ما في رأسه من معانٍ واستنتاجات عن الحياة مما قد لا يكون له مقابل حقيقي في الواقع. ومن ثَم قد تحمل القصص الخيالية من المغزى ما يتجاوز الحقيقة. ولكن لا أظن أن المرء محق دائمًا عندما يقول إن أحداث الحياة الواقعية لا تحمل أي مغزى. قد يكون هذا صحيحًا في بعض الأحيان أو في نظر بعض الأشخاص، ولكن ليس على الدوام، وليس في نظر الجميع. إني قد أحكي لك قصة واقعية تمامًا، وكما حدثت بالضبط، ودون أي إضافة، فتوحي لك بفكرة أو مغزى أو درس من الدروس. قد أحتاج في الغالب إلى حذف بعض التفاصيل أو الأجزاء التي تحجب المعنى أو تجعل من الصعب إدراكه، ولكن هذا لا يعني أن «الحياة الواقعية لا معنى لها». وهذا مما يشجعني على أن أروي هذه الحكايات على أمل أن يجد فيها القارئ ما وجدته من مغزى.

* * *

كنت أثناء سنوات إقامتي في البعثة بإنجلترا أتلقى خطابات من أمي من حين لآخر. كانت خطابات قصيرة، لا تكتبها عادة إلا عندما أُلِحُّ في خطاباتي طالبًا أن

---

(١) «The trouble with fiction is that it makes too much sense. Reality never makes sense.»

تكتب إليَّ، إذ لم تكن تجد كتابة الخطابات مهمة سهلة، خاصة مع تدهور صحتها. لم تكن تُسهب في ذكر أي تفاصيل، مع رغبتي الشديدة في ذلك، وكانت هناك عبارة تتكرر في كل خطاب منها وهي أن «أخبارنا كلنا على ما يرام». وقد تبينت مع مرور الوقت أن هذا القول كان أبعد ما يكون عن الحقيقة. فالأحداث كثيرة، ومنها الكثير من الأحداث الهامة، ولم تكن كلها أبدًا على ما يرام. ولكني تبينت أيضًا مع مرور السنين أننا كثيرًا ما نتعامل مع أحداث الحياة وكأنها «كلها على ما يرام»، مع أنها نادرًا ما تكون كذلك. يبدو لي الآن أن الأحداث المهمة، سواء كانت مما يرام أو لم تكن، نادرًا ما تحدث دفعة واحدة، فالصدمة عادة لا تصيبنا فجأة، وقد تمر فترة طويلة بين بدايتها ونهايتها، كما أن الأحداث المفرحة قلَّما تحدث خالية من أي شائبة، مما يخفف من أثر الصدمة والحدث المفرح علينا، وإذا بنا عندما نلقي نظرة على ما حدث لنا خلال فترة ماضية قد نتصور أنه لم يحدث لنا شيء جديد مهم، لا مفرح ولا محزن، أي أن الأمور تبدو لنا وكأنها تسير «على ما يرام»، دون أن تكون في الحقيقة كذلك.

كنت عندما أعيد قراءة جزء أو آخر من هذا الكتاب الذي بيد القارئ الآن، قبل إرساله للطبع، يستولي عليَّ العجب أحيانًا من أن كثيرًا من الحكايات التي أرويها تنطوي على درجة كبيرة من المأساوية، أو تنتهي نهاية مدهشة للغاية بالمقارنة بما بدأت به، ومع ذلك فإني أذكر جيدًا أن أحداث هذه الحكايات نادرًا ما كانت تثير لديَّ، أو لدى أفراد عائلتي التي شهدتها، ما تثيره لديَّ الآن من مشاعر قوية عندما أعيد تذكُّرها أو تلخيصها، أو عندما أربط بين بداية كل منها ونهايتها، ومن دهشة من تصاريف الحياة وأعاجيب النفس الإنسانية والعلاقات بين الناس.

* * *

ولكن هناك سببًا آخر لرواية هذه الحكايات. إني أعرف أنه لا يمكن لكاتب، مهما بلغت جرأته، أن يقول كل الحقيقة، لا عن نفسه ولا عن كثيرين ممن عرفهم من الناس. ولكني لا أخفي على القارئ أني كنت دائمًا أطوي نفسي على أمل دفين في أن أقترب أكثر فأكثر، في يوم ما في المستقبل، من قول الحقيقة كاملة. كنت ولا أزال أعتبر الامتناع أو العجز عن قول كل ما نعرفه من حقائق، أمرًا

مؤسفًا حقًّا من كل ناحية. فإذا كان الغرض من الكتابة في النهاية هو الوصول إلى فهم أعمق للناس أو للحياة أو للسياسة، إلخ، فإن حجب بعض الحقائق لا بد أن يجعل هذا الفهم قاصرًا، وقد يجعله مستحيلًا. إن ذهني لا ينصرف طبعًا، عندما أتكلم عن فائدة الصراحة وقول كل الحقيقة، إلى الكلام عن الجنس. إن كثيرين يفهمون أن المقصود بالصراحة المطلوبة في الكتابة، هو الصراحة في الكلام عن الأمور الجنسية على وجه الخصوص. وأنا أستغرب هذا الفهم وأستهجنه. فالمرأة التي تسير عارية الساقين في الشارع (وكذلك الكاتب الذي يصفها بلا داعٍ) لا تفعل ذلك بقصد الكشف عن الحقيقة، بل بقصد الإثارة. وهذا موضوع يخرج تمامًا عما أقصد قوله الآن. إن أوجه الصراحة المطلوبة، وصور الكتمان غير المطلوب، تشمل أشياء كثيرة جدًّا غير الجنس، وقد تكون أكثر أهمية منه. والميول الإنسانية وأوجه الضعف الإنساني التي قد يرغب الكاتب في إخفائها، في غير مجال العلاقات الجنسية، كثيرة بحيث يصعب حصرها، كما أنها مهمة بحيث تستحق الذِّكر.

هذا الاعتقاد القوي لديَّ، بأننا نقضي حياتنا ونكتب الكتب دون أن نقول إلا جزءًا صغيرًا من الحقيقة، هو أحد الدوافع التي تدفعني إلى كتابة هذه الحكايات. وهو اعتقادٌ يقترن به اعتقاد آخر راسخ لديَّ (وهو دافع آخر لكتابتها، آمل في إقناع القارئ به)، ويتلخص في أنه يكاد أن يكون من المستحيل أن نعثر على شخص، مهما كانت أوجه قوته وجاذبيته، لا ينطوي على أوجه ضعف مهمة. قد يحاول هو (أو هي) إخفاءها بالطبع، ولكن لا مصلحة هناك لمن يكتب عن الناس أو يقرأ عنهم، في تجاهلها أو التظاهر بعدم وجودها. كم كان سروري إذن عندما صادفت الفقرة التالية في رواية للكاتب الروسي «ألكسندر سولجنيتسين»:

> يا ليت الأمور بهذه البساطة. يا ليت الأشرار من الناس يرتكبون أعمالهم الشريرة في مكان منعزل بحيث يمكننا منعهم من الاتصال بنا، ثم نقوم بالقضاء عليهم. ولكن الأمور ليست كذلك. بل إن الخط الذي يفصل بين الخير والشر يمرُّ داخل قلب كل كائن بشري. ومَن الذي يقبل أن يتخلص من جزء من قلبه؟

* * *

من عاش مثلي ثمانين عامًا، لا بد أن يكون قد تعرَّف في حياته على عدد كبير من الناس، رجال ونساء، أغنياء وفقراء، من المتعلمين وغير المتعلمين، مصريين وأجانب، إلخ، وعندما أستعيد في ذهني ما رسخ لديَّ من انطباعات عن هذا الشخص أو ذاك، فيمن تعرفت عليهم على مرِّ السنين، يعتريني العجب من أنه لا يكاد أن يكون من بينهم شخص واحد لا يبدو لي الآن أنه «لغز من الألغاز». إني أقصد بالطبع مَن عرفتهم عن قرب، فالمعرفة العارضة لا تثير عادة الحيرة أو التساؤل أصلًا عما إذا كان هذا الشخص الذي صادفته في طريقك لغزًا أو ليس كذلك. إني أقصد مَن عرفتهم جيدًا، من الأصدقاء وأفراد العائلة، وزملاء الدراسة أو الوظيفة، ومَن دفعتني ظروف الحياة إلى الاحتكاك بهم وتكوين علاقة معهم. بل وأقصد أيضًا مَن عرفتهم عن قرب من المشاهير الذين جمعتني بهم صداقتهم لأبي، أو ظروف عملي كأستاذ بالجامعة، أو كمؤلف لكتب أو كاتب في الصحف، مع تكرار لقائي بهم في الندوات أو المؤتمرات، إلخ.

وجدت معظم هؤلاء (بل أكاد أقول كلهم) من الألغاز المستعصية على الفهم. لقد أحببت كثيرين منهم حبًا جمًّا، واعتراني نفور شديد من كثيرين غيرهم، ولكنني وجدتهم جميعًا، سواء مَن أحببت منهم أو كرهت، «ألغازًا بشرية»، لا أستطيع أن أفهم كيف اجتمعت في الواحد منهم هذه الصفات المتعارضة، أو كيف يستقيم تصرفه على نحو معين مع شخص ما، مع تصرف مضاد له تمامًا مع شخص آخر، أو حتى مع نفس الشخص في وقت آخر. بل إني لاحظت أنني حتى مع الأشخاص الذين ظللت مدة طويلة أعتبرهم واضحين تمامًا لي، ومُتَّسقين تمامًا مع أنفسهم، أفاجأ بعد هذا بتصرفات منهم غير مفهومة، فيتحولون في نظري فجأة إلى ألغاز، وكأني لم أعرفهم قط على حقيقتهم.

نحن متشابهون في هذا أكثر مما نظن. ولكننا أيضًا مختلفون بدرجة كبيرة. إن كثرة ما صادفته من «ألغاز بشرية»، وشدة تنوعها، جعلاني أعتقد أن العثور على شخصين متشابهَين في الخلق أو المزاج أو القوة والضعف، أصعب من العثور على شخصين لهما نفس ملامح الوجه أو شكل العينين أو حجم الأنف. ما أشد تنوع الطباع بين البشر، رغم ما بينهم من تشابه! وما أكثر الأسباب الكامنة وراء هذا

التنوع، بالضبط كشدة التنوع في أشكال وجوه الناس وأجسادهم، وفي أسباب هذا التنوع! لماذا إذن لا نحاول أن نجمع في كتاب أو كتب وصفًا لمختلف «الألغاز البشرية»، كما جمع آخرون في كتب صورًا فوتوغرافية لمختلف وجوه البشر على اختلاف ملامحهم وألوان بشرتهم؟

في هذا الكتاب، حاولت أن أجمع أمثلة قليلة من كثير مما صادفته في حياتي من «ألغاز بشرية»، وتفسيري لبعضها، إذ رأيت أنه قد يكون من المفيد أن يطلع القارئ عليها ليضمها إلى ما لا بد أن صادفه بدوره في حياته من ألغاز. قد يتعرف في ألغازي على أشباهٍ لألغازه، ولكني واثق من أنه لن يعثر قط على لغزَين متطابقَين تمام التطابق.

* * *

أظن أن القارئ سوف يتبين، كلما قرأ المزيد من هذه الحكايات، لماذا وجدت من الملائم أن أضع لهذا الكتاب عنوان: «مكتوب على الجبين». فمعظم التصرفات التي تحكيها هذه الحكايات تبدو لي (بقليل من التأمل)، وكأنها كانت بشكل أو آخر «حتمية الحدوث»، إما بسبب الظروف الاجتماعية التي أحاطت بصاحبها أو (وهذا هو الأكثر حدوثًا) بسبب ما ولد به من ميول نفسية حددها على الأرجح ما ورثه من جينات. هذه هي النتيجة التي أصبحت أميل إليها من ملاحظاتي لتصرفات مَن عرفت من الناس. قد تكون هذه النتيجة غير صحيحة وغير علمية، ولكني أقول فقط ما أصبحت أعتقده، ولم أصادف بعد ما يجعلني أشك في صحته. إذا كان هذا الاستخلاص صحيحًا، فقد يكون مما يدعو للأسف، (إذ إنه يعني أن قدرتنا على التحكم في حياتنا أو حياة غيرنا، وعلى إصلاح ما لا يعجبنا منها، أقل بكثير مما نظن). ولكن هذه النتيجة قد تجلب لنا مع ذلك بعض الشعور بالراحة، إذ قد تجعلنا نقنع بالقليل مما يمكن لنا إنجازه في هذا السبيل. إني أجد على أي حال في هذه العبارة، «مكتوب على الجبين»، وفي الجزء المُكمل لها من المثل الشعبي الشهير «لازم تشوفه العين»، جمالًا لا يمكن أن يخفى عن القارئ. هل حقًّا كُتب مصير كل منا على جبينه ـ رغم أن من المستحيل لصاحبه أن يقرأه؟ (إذ مَن الذي يستطيع أن يقرأ شيئًا مكتوبًا على جبينه؟). وهل حقًّا لا بد أن يتحقق هذا المكتوب،

آجلًا أو عاجلًا، فتراه العين التي ظلت دائمًا عاجزة عن قراءته، فإذا بها تراه يتحقق أمامها في الحياة الواقعية؟

* * *

يعجبني التشبيه الذي استخدمه نجيب محفوظ في إحدى مقالاته القصيرة، والتي كتبها (أو أملاها) قبل وفاته بسنوات قليلة. قال إنه في حياته الآن، وفيما يقوم بكتابته، يشبه الشخص الذي استقل القطار ذاهبًا إلى الإسكندرية، وقبل وصوله للمحطة النهائية، وقف به القطار كالعادة في المحطة الشهيرة «سيدي جابر»، وهي تقع داخل مدينة الإسكندرية نفسها، ولكنها ليست المحطة النهائية، التي يفصلها عنها نحو خمس دقائق. عند وصول القطار إلى محطة «سيدي جابر»، يبدأ الركاب في جمع حقائبهم المتناثرة، فإذا كانوا يقرأون كتابًا أو مجلة، فقد يتوقفون عن القراءة، ولا يخطر ببالهم أن يبدأوا شيئًا جديدًا؛ إذ ليس هناك من الوقت ما يسمح لهم بإتمامه إذا بدأوه.

كنت أشعر بشيء شبيه بذلك، عندما فكرت في كتابة هذه الحكايات. فالشروع في كتابتها ليس بدءًا في عمل جديد، بل هو بمثابة لملمة وتنظيم لأشيائي القديمة. يهمني الآن ألا أترك ورائي في القطار شيئًا مهمًّا، ولكن حتى إذا فعلت، فإني أظن أن في هذا الذي جمعته ما يكفي وزيادة.

٢٥ مارس ٢٠١٥

الباب الأول

عائلتان محترمتان

١
الجوهرة المكنونة والكاتب الشهير

لا زلت أتذكر هذا الموقف جيدًا، رغم أني لم أكن حينئذ قد تجاوزت العاشرة أو الحادية عشرة من عمري. كنت أسير مع أمي على كورنيش البحر بالإسكندرية، عندما رأت أمي فتاة ترتدي ثوبًا بدا في نظرها خليعًا؛ إذ ترك جزءًا من جسم الفتاة، بين أسفل الصدر ووسط الجسم، عاريًا تمامًا، مثلما يظهر أحيانًا الساري الهندي. توقفت أمي فجأة عن السير، وكأنها لا تصدق عينيها، وضربت صدرها بيدها صائحة بصوت سمعَته الفتاة بالطبع، كما سمعه بقية المارة، وأدركت الفتاة أنه موجه إليها: «يا نهار أسود!».

هكذا كانت نظرة أمي وجيلها إلى كشف المرأة عن أي جزء من جسمها فيما عدا الوجه واليدين والقدمين. وكان الخروج على هذه القاعدة يعتبر بلا شك خروجًا على قواعد الأخلاق. هكذا كان أهم شرط «للمرأة الفاضلة» في نظر جيل أمي من النساء والرجال: الاحتشام التام فيما ترتديه من ثياب، والاختفاء شبه الكامل عن أعين الرجال الغرباء. أتذكر أيضًا أن أمي كانت أحيانًا تستخدم وصف المرأة «بالحرَّة»، استخدامًا لا بد أن يبدو لنا مدهشًا الآن. «فالحرَّة»، كان حينئذ وصفًا للمرأة «النقية»، بمعنى العفة في تعاملها مع الرجال، وهو نفس الوصف الذي كان يطلق على الذهب الخالص، والمعدن النفيس. وكثيرًا ما كنا نقرأ وصفًا للمرأة الفاضلة بكونها: «السيدة المصونة والجوهرة المكنونة».

ولكن هذا لم يكن طبعًا كل ما تقضي به الفضيلة في نظر أمي. كان حب أمي

العظيم لأولادها جميعًا، واستعدادها الكامل للتضحية بالنفس والنفيس، لمنع أي خطر يهدد حياتهم، يندرج بلا شك في معنى الفضيلة. وأعتقد أن أمي كانت، في هذه المشاعر نحو أولادها، تتفوق على أبي، مع تحفظ بسيط سأذكره بعد قليل. ولكني لا أشك أيضًا في أن التزامها الأخلاقي كان محصورًا في دائرة ضيقة للغاية، إذا قورنت بأبي. فالشعور بالولاء يكاد أن يكون محصورًا لديها في دائرة أسرتها الصغيرة، بينما كان أبي قادرًا على التأثر بما يحدث في دوائر أوسع من هذا بكثير، بل وحتى فيما يتعلق بالحب والولاء للأسرة الصغيرة، ألاحظ بعض الاختلاف بين موقف أمي وموقف أبي.

كان خوف أمي على أولادها يكاد ينحصر في خوفها من أي خطر يهدد الحياة، دون أن يبدو أنها كانت تخاف عليهم من أي شيء آخر. أما أبي فكان يبدي اهتمامًا أكبر بأي تطور نفسي مهم يطرأ على أي من أولاده وبناته، وباختيار أفضل المدارس لهم، ونوع أصدقائهم، وبنوع سلوكهم بوجه عام. الأخطر من ذلك في رأيي، ما كان يبدو من أمي من استعداد للتمييز بين ولد وآخر من أولادها، وبين بنت وأخرى، بل ودون أي محاولة لإخفاء هذا التمييز أو مداراته، وهو خطأ لا أذكر أن أبي قد ارتكبه قط، مهما كانت حقيقة مشاعره، ربما باستثناء التمييز في معاملة الذكور والإناث من أبنائه. من الممكن أن نجد سببًا لهذا الاختلاف بين أبي وأمي في الموقف الأخلاقي، في اختلافهما في درجة الثقافة، وفي درجة اتساع المجتمع الذي كان يتحرك فيه كل منهما. ولكن ربما كان من أسبابه أيضًا أشياء أكثر عمقًا.

لقد قرأت لأحد الكُتاب وصفًا لشخصية «جورج أورويل»، الكاتب الإنجليزي الشهير، معلقًا على ميل «أورويل» الدائم لتقييم الناس والتصرفات والأحداث تقييمًا أخلاقيًّا، فقال القول الطريف التالي: إنه لا يتصور «أورويل» وهو يُخرج المنديل من جيبه لمسح أنفه دون أن يتطرق فكره إلى الجوانب الأخلاقية لصناعة المناديل! لم أعرف في حياتي كثيرين ممن يمكن أن ينطبق عليهم هذا الوصف، ولكني واثق من انطباقه على «جورج أورويل» بناء على ما قرأت عنه أو من كتاباته هو. كما أني واثق من انطباقه على أبي، وأظن أننا نستطيع أن نجد أمثلة لأشخاص ينطبق عليهم

هذا الوصف ممن عاشوا في النصف الأول من القرن العشرين (أو قبله) أكثر مما نجد فيمن وُلد وعاش بعد ذلك، إذ أظن أن أشياء كثيرة حدثت منذ منتصف ذلك القرن مما جعل الناس عمومًا يميلون إلى تغليب مشروعاتهم وطموحاتهم الفردية على مصلحة المجموع، وهذا فيما أظن يمس جوهر الحس الأخلاقي واللاأخلاقي.

* * *

مما أذكره من تصرفات أبي في صباي، ويدل على قوة هذا الشعور الأخلاقي لديه، الحادثة الطريفة الآتية:

كان من بين أصدقائي الحميمين، وأنا بين سن العاشرة والثانية عشرة، صبي في مثل عمري، أبوه ضابط كبير كان يشغل وقتها وظيفة مهمة في وزارة الداخلية (أو على الأقل كانت تعتبر مهمة في ذلك الوقت). وكان من بين ما يدخل في سلطة هذا الأب أمور تتعلق بما كان يسمى «ضريبة الملاهي»؛ وهي رسم بسيط يُفرض على أماكن الترفيه، بما في ذلك المسارح ودور السينما، ويضاف إلى سعر التذكرة. لا أدري بالضبط ما إذا كانت هذه السلطة التي يتمتع بها الأب هي وحدها السبب فيما كان يحدث كلما دخلنا دارًا من دور السينما في مصر الجديدة، أم كان هناك سبب آخر، ولكن المهم أننا كنا كلما وطئت أقدامنا إحدى هذه الدور، وكان معنا هذا الصديق الذي يشغل أبوه هذه الوظيفة المهمة، عوملنا باحترام غير عادي، بل وسمح لنا بدخول السينما دون شراء تذاكر.

لم يكن هذا حادثًا نادرًا، بل كان كثيرًا ما يتكرر في العطلات، حيث لم يكن لدينا الكثير مما يمكن أن نفعله غير الذهاب إلى السينما. وكانت مصر الجديدة، حيث كنا نسكن، تعج بالسينمات الأنيقة التي تعرض أفلامًا أمريكية شديدة الجاذبية لصبية في مثل عمرنا. أضف إلى ذلك أن صديقي الذي أتكلم عنه، كان شغوفًا شغفًا غير عادي بالسينما، لا يكاد يطيق الجلوس لتبادل الكلام، ودائم الحركة والنشاط، لا ينجح في تهدئته إلا الجلوس لرؤية فيلم من الأفلام.

لاحظت أنا هذا الأمر - أي السماح لنا بدخول السينما دون تذكرة - ولا بد أنه ترك في نفسي بعض الأثر، إذ ما الذي جعلني أذكره لأبي، وكأني أتوقع أن له رأيًا في الموضوع، وعلى الأخص فيما إذا كان هذا تصرفًا أخلاقيًّا أو غير أخلاقي؟ استمع

إليَّ أبي باهتمام ثم أبدى استياءه. أذكر أنه هز رأسه إلى اليمين واليسار وقال عبارة مثل: «لا ما يصَحِّش!».

كل هذا مفهوم تمامًا. السخيف في الأمر هو تصرفي أنا بعد أن سمعت من أبي هذه العبارة؛ ففي أول مرة يقترح فيها صديقي أن أصحبه مع شلة الأصدقاء إلى السينما، بعد أن عرفت رأي أبي في الأمر، رفضت وقدمت عذرًا كان من الواضح لصديقي أنه ليس السبب الحقيقي. عندما تكرر اعتذاري بعد ذلك وأصر صديقي على معرفة السبب، ذكرت له ما قاله أبي عن دخولنا السينما مجانًا لمجرد أن والده صاحب سلطة إزاء أصحاب دور السينما. كان عليَّ أن أتوقع أن هذا الكلام سينتقل حتمًا إلى والد صديقي، وكان هذا بالضبط ما حدث، إذ كانت أول مقابلة بيني وبين والد صديقي محرجة للغاية، فقد انفجر في وجهي غاضبًا، نافيًا بشدة أن يكون تفسير الأمر على النحو الذي فهمته أو فهمه أبي، ورافضًا أشد الرفض أن يكون قد ارتكب شيئًا فيه أي شبهة الخطأ الأخلاقي.

* * *

هكذا كان أبي دائمًا، وما أكثر الحكايات التي حكاها لنا لدى عودته إلى البيت بعد اجتماع مهم أو آخر، وتتضمن مواقف اتخذها إزاء هذا المسؤول الكبير أو ذاك، احتجاجًا على تصرف غير أخلاقي أو انتصارًا لشخص مظلوم. مما أذكره من هذا النوع من الحكايات تصرفه في مجلس جامعة فؤاد الأول عندما كان يمثل كلية الآداب وهو عميد لها. فقد أراد رئيس المجلس وأيده عدد قليل من الأعضاء، أن تمنح الجامعة الدكتوراه الفخرية لأستاذ إيطالي لمجرد أن إشارة جاءتهم من القصر الملكي بأن هذه هي إرادة الملك، بينما رأى أبي، ومعظم أعضاء المجلس، أن أستاذًا أجنبيًا آخر (وأظن أنه كان فرنسيًّا) هو الأحق بهذا التكريم. حكى لنا أبي كيف أن رأيه هو الذي انتصر في النهاية، وأنه كان أول من تكلم في الأمر، مدافعًا عما يعتقد أنه الحق، وعلى الرغم من أن وزير المعارف استدعاه لمحاولة إثنائه عن رأيه، فكان رد أبي عليه: «أظن أن معالي الوزير يسره أن يعرف أن رجاله في الجامعة يدافعون عما يعتقدون أنه الحق». وكانت هذه هي نهاية المقابلة؛ إذ لم يجد الوزير ما يقوله بعد ذلك.

كان من بين ما قاله لنا أبي، تعليقًا على هذه الحادثة، إنه وجد من تجاربه أن معظم الناس مستعدون للوقوف إلى جانب الحق، وقليلين فقط هم المستعدون للدفاع عن الباطل، ولكن أكثر الناس لا يجدون في أنفسهم الشجاعة للجهر بما يعتقدون أنه الحق، فإذا وجد منهم من يتجرأ على الجهر به اتبعوه.

من حكايات أبي التي أذكرها أيضًا وتبين درجة شجاعته في الدفاع عن رأيه، أنه كان مدعوًّا لإلقاء خطبة في قاعة الاحتفالات الكبرى بنفس الجامعة، احتفالًا بذكرى المولد النبوي. وكانت الجامعة تعج وقتها بالطلبة الأعضاء في جمعية الإخوان المسلمين، وكانوا ينتهزون أي مناسبة للقيام بمظاهرة سياسية لإثبات قوتهم أو لإحراج الحكومة. لا بد أن هذا كان في أوائل الأربعينيات من القرن الماضي، عندما كانت الحياة السياسية في مصر شديدة الاضطراب، وانعكس هذا في مظاهرات في الجامعة، تكاد أن تكون يومية.

يقول أبي إنه صعد على المنصة في القاعة الضخمة وكانت ممتلئة عن آخرها بالطلاب. فلما حاول البدء في إلقاء كلمته فوجئ بهتافات عالية من الإخوان المسلمين تندد بالحكومة، وتستخدم شعارات الدين لهذا الغرض. انتظر أبي أن تنتهي الهتافات فلم تنتهِ، فإذا به يمسك الميكروفون بيدين مرتعشتين، وقد اشتد غضبه مما يحدث، وعبَّر، بصوت متهدج من شدة الغضب والحزن، عن رأيه في هؤلاء الطلاب الذين يُصرون على تحويل مناسبة دينية غالية إلى معركة سياسية بينهم وبين الحكومة، والذين يسيئون بذلك إلى دينهم بدلًا من أن يحسنوا إليه.

أضاف أبي وهو يحكي لنا ما حدث، وبفخر واضح بما فعل، أن هذه الكلمات التي صدرت عنه كانت نتيجتها أن خيم صمت رهيب على القاعة الممتلئة بالناس، بحيث أصبح من الممكن (على حد تعبيره) أن تلقي بالقرش على الأرض فتسمع رنينه. لا شك عندي في أن هذه النتيجة الرائعة ما كانت لتحدث لولا شعور الحاضرين، من طريقة أبي في الكلام، بل ومما لاحظوه على نبرة صوته، بأنه كان صادقًا تمامًا في التعبير عن مشاعره، فلم يستطيعوا الاستمرار فيما كانوا فيه.

٢

انهيار عصبي

كان أخي عبد الحميد، من بيننا نحن الإخوة الثمانية، أكثرنا شبهًا بأبي، في الشكل والذكاء والحس الأخلاقي. لديَّ بعض الصور لأبي ولعبد الحميد عندما كان كل منهما في نحو الخمسين من عمره، فأكاد لا أستطيع تمييز أحدهما عن الآخر. وعندما أذكر ذكاء عبد الحميد، لا أقصد مجرد حصوله على الدكتوراه بسهولة في الهندسة الكهربائية من جامعة لندن، وثناء أساتذته عليه، ثم حصوله على دكتوراه أخرى بعد ذلك من ألمانيا، بسهولة أيضًا، وليس فقط ما كان يصدر منه من حين لآخر من ملاحظات ثاقبة وعميقة، بل أقصد على الأخص ميله إلى الربط بين أشياء لا تبدو هناك لأول وهلة رابطة بينهما، وبحثه الدائم عن نظرية عامة تربط وتفسر. كان كثيرًا ما يذهب إلى أبعد من اللازم في محاولاته للتنظير والتفسير، وقد تبدو بعض نظرياته مفرطة في الخيال، ولكنها كانت دائمة جذابة وشاحذة للفكر.

أما حسه الأخلاقي، فحدِّث عنه ولا حرج؛ إذ ما أكثر الأمثلة الدالة على ذلك في أبسط الأمور وأهمها. كانت لديه حساسية طبيعية ضد الكذب، ومن ثَم لم يعد يخامر أحدًا منا أي شك في أن ما يقوله عبد الحميد هو الحقيقة دائمًا. إنه لا يغش أحدًا، لا أساتذته، إذا قدَّم لأحدهم بحثًا، ولا تلاميذه، إذا قرر مَن هو الناجح منهم أو الراسب، ولا يورطك في الإنفاق على شيء يعرف أن من الواجب أن ينفق هو عليه، ولا يحاول قط أن يحصل من شيء على أكثر من حقه فيه، إلخ.

مما أذكره من تصرفاته الدالة على هذا الحس الأخلاقي القوي، ما فعله مرة في الستينيات من القرن الماضي، وكان في نحو الأربعين من عمره، في فترة صعبة بسبب التدخل الشديد من جانب الدولة البوليسية في حياة المصريين. كانت الدولة قد أصدرت قانونًا بتجميد إيجارات المساكن، فلم يعد بقدرة المالك أن يزيد قيمة الإيجار، مهما مر الزمن وزاد الطلب وأصبحت قيمة الإيجار القديمة تافهة جدًّا بالمقارنة بالقيمة الحقيقية للمسكن. كان من الطبيعي والحال كذلك أن يلجأ مالك البيت أو الشقة، كلما جاء إليه ساكن جديد، أن يطلب منه مبلغًا من المال، قد يبلغ عدة آلاف من الجنيهات باعتباره «خلو رِجل»، كوسيلة لتعويض المالك عن انخفاض الإيجار لمدة طويلة. كان المستأجر الجديد كثيرًا ما يدفع هذا المبلغ الكبير عن طيب خاطر، إذ كان البديل عن ذلك العجز عن العثور على مسكن على الإطلاق.

دفع أخي عبد الحميد مبلغًا كبيرًا من المال (بمقاييس ذلك الزمان) للحصول على شقة جميلة في الزمالك بشارع مهم، وبإيجار زهيد للغاية. ثم حدث أن أصدرت الحكومة قرارات جديدة بمنع المالك من تقاضي أي خلو رِجل، إمعانًا في محاولة كسب رضا المستأجرين، على الرغم من تعارض هذا القرار مع مقتضيات الواقع الاقتصادي السائد وقتها. لم تكتفِ الحكومة بذلك بل عمدت إلى معاملة المُلاك الذين ثبت أنهم تقاضَوا خلو رِجل معاملة قاسية للغاية، فشهَّرت بهم وأودعت بعضهم السجن، مما أثار خوفًا شديدًا لدى المُلاك فهرعوا يعيدون إلى المستأجرين ما سبق أن قبضوه منهم من أموال. ذهب مالك العمارة التي يسكن فيها أخي عبد الحميد ومعه المبلغ الذي سبق لعبد الحميد دفعه له كخلو رِجل، فإذا بعبد الحميد يرفض استرداد المبلغ بلا أي تردد، قائلًا إنه كان قد دفع المبلغ بطيب خاطر دون أن يرغمه أحد على ذلك، فلا يرى الآن وجهًا لاسترداده. قال له المالك وقد اعترته دهشة شديدة إنه الوحيد من بين جميع سكان العمارة الذي تصرف على هذا النحو.

كان عبد الحميد يتوقع من الناس أن يعاملوه معاملة مماثلة، ومن ثَم كان يستاء بشدة إذا بدر من أحد إخوته أي تصرف ينطوي على استغلال أو سوء نية. ولكنه كان

أيضًا، والحق يقال، كثيرًا ما كان يبدو عاجزًا عن الدفاع عن حقوقه. كان يبدو دائمًا، ولا يزال يبدو لي كلما عدت إلى التفكير فيه، أضعف إرادة وأقل تصميمًا على تحقيق رغباته من بعض الإخوة الآخرين، بقدر ما كان هؤلاء أضعف من عبد الحميد في حسِّهم الأخلاقي. وأعترف للقارئ بأني كثيرًا ما أتساءل عما إذا كانت ثمة علاقة بين الصفتين: ضعف الإرادة وقوة الحس الأخلاقي. نعم، لقد صادفت في حياتي أشخاصًا، أو قرأت عن أشخاص يجمعون بين الصفتين الطيبتين: قوة الإرادة وقوة الحس الخلقي، ولكنهم كانوا فيما يبدو لي قلة نادرة، والأكثر شيوعًا هو أن تأتي إحدى هاتين الصفتين الطيبتين على حساب الأخرى.

كنا نجلس يومًا حول مائدة الطعام وأمامنا طبق عليه بضع بيضات مقلية، وكنا نمد أيدينا، الواحد بعد الآخر، بقطعة من الخبز لنلتقط بها من الطبق ما نأكله. لا أذكر هذه الواقعة بوضوح، ويبدو أن معرفتي بها كان مصدرها السماع وتكرار ذكر القصة بين أفراد العائلة لعدة سنوات بعد وقوعها، حتى أصبحت من «تراث» الأسرة. كان عبد الحميد من بين ثلاثة أو أربعة إخوة يجلسون أمام طبق البيض، إذ لم نكن قد تعلمنا بعد أن يكون لكل منا طبق خاص به، وأن يكون تناول الطعام بالشوكة أو الملعقة بدلًا من قطعة الخبز. كانت أمي جالسة أيضًا معنا تشاركنا الطعام أو ترقبنا، فإذا بها تلاحظ أن عبد الحميد جالس لا يمد يده لتناول الطعام بينما الآخرون منهمكون في الأكل. سألَته أمي عن السبب، فجاءت إجابته المذهلة الآتية، والتي أخذت العائلة ترددها على مر الزمن مع الاستغراق في الضحك، كلما تطرق الحديث عن شخصية عبد الحميد وطِباعه. قال ردًّا على والدتي: «أصلي مش طايل طبق البيض!». حسنًا، فليكن طبق البيض أبعد قليلًا عن متناول يده، فلماذا لم يبذل جهدًا لتقريبه إليه، ما دام لا يزال راغبًا فيه؟

المدهش مع هذا أن عبد الحميد لم يكن شخصًا كسولًا على الإطلاق. كان رياضيًّا يحب السباحة ويجيدها، وكثيرًا ما يقطع المسافات الطويلة مشيًا بينما يقطعها الآخرون بالسيارة. وقد بذل جهدًا كبيرًا في تعليم ولدَيه قيادة مركب شراعي في النيل، وفي اصطحابهما لرؤية بلاد جديدة، مما لم يفعل مثله أحد من إخوتي الآخرين، كما أنه كان أحيانًا يبذل جهدًا غير معهود للعثور على هدية ملائمة لأحد

إخوته أو أقربائه، بمناسبة زواج أو عيد ميلاد، اعتقادًا منه أن المهم أن تكون الهدية مناسبة وليس قيمتها المادية. لماذا إذن كان كثيرًا ما يبدو قليل الحيلة إذا تعلق الأمر بمصالحه هو؟

* * *

أظن أن قوة حسِّه الأخلاقي هي التي جعلته أقرب إلى قلب أبي من معظم الإخوة. كان يبدر منه، سواء في حياة أبي أو بعد وفاته، ما يدل على أنه كان يفهم ما يدور بذهن أبي أكثر مما يفهمه بقية الإخوة، وكثيرًا ما كنت أراه جالسًا مع أبي وحده، وهما يتبادلان حديثًا جادًّا مما كان يندر أن أراه من أحد منا غيره. ولكن لا بد أن ذكاءه كان أيضًا مما قربه من أبي. إذ لا أعرف في أخ آخر أو أخت، ما كان لدى عبد الحميد من استعداد لرؤية العلاقات غير الظاهرة بين الأشياء، مما كان يتوافر قطعًا في أبي بدرجة عالية.

عندما ذهبت، وأنا في السادسة عشرة، إلى لندن لقضاء عطلة الصيف السابق مباشرة على دخولي الجامعة، وكان أبي قد شجعني على القيام بهذه الرحلة لتقوية لغتي الإنجليزية، كان عبد الحميد يحضر للدكتوراه في جامعة لندن، ومن ثَم أقمت معه في نفس البيت، وقضيت معه ما يقرب من شهرين بدا لي عبد الحميد خلالهما (وكان في الخامسة والعشرين من عمره) شابًّا في غاية المرح والتفاؤل بالحياة. كانت كل أموره تسير على ما يرام: الدراسة تتقدم بخطى حثيثة، وأساتذته راضون عنه رضاء تامًّا، وصحته جيدة، ولا يشكو من ضائقة مالية، ولديه صديقة نمساوية جميلة، يحبها وتحبه، وقد تزوجها بمجرد حصوله على الدكتوراه، فلم يخلف بوعده لها. كان أيضًا شابًّا وطنيًّا، يشترك في بعض الاجتماعات التي كان يعقدها من حين لآخر الطلبة المصريون احتجاجًا على تصرفات الملك ورجاله في الشهور القليلة السابقة على ثورة ١٩٥٢، ولكنه لم يكن شيوعيًّا أو اشتراكيًّا ولا عضوًا في أي جماعة سياسية أو دينية. رجل من هذا النوع، كانت كل الدلائل تبشر بمستقبل جيد له وحياة ناجحة. لماذا إذن تتعثر حياته بتلك الدرجة المذهلة، وتتتابع عليه المشاكل العويصة بل والمصائب، من قبل أن يبلغ الأربعين من عمره؟!

* * *

سمعت تفسيرات قليلة لما حدث له، من زوجته وبعض أصدقائه، فلم أقتنع بأي منها. ولا زلت حتى الآن أشعر بحيرة شديدة كلما حاولت أن أجد تفسيرًا لما حدث. فلأحاول مرة أخرى استرجاع ما حدث له خطوة بخطوة.

عندما عدت من إنجلترا في إجازة قصيرة إلى مصر في ١٩٦٢، وكنت في السابعة والعشرين وهو في السادسة والثلاثين من عمره، لم ألاحظ عليه أي شيء غريب بل كان كل ما في حياته يدعو إلى الإعجاب. كان يدرِّس في كلية الهندسة بجامعة عين شمس، ولا يكف التلاميذ عن الثناء عليه، علمًا وخلقًا وظُرفًا. وكان في نفس الوقت منتدبًا في مركز للبحوث في الدقي أنشأه عبد الناصر، فيذهب إلى هذا المركز مرتين أو ثلاث مرات كل أسبوع ليلتقي بمجموعة من الباحثين الشبان الذين كانوا يقومون تحت إشرافه ببحوث سمعنا أن لها علاقة باستخدامات الطاقة النووية، بعد أن حصل على الدكتوراه الثانية من ألمانيا في موضوع ذي صلة بهذه البحوث. كان يلتقي أيضًا بأستاذ روسي جاء إلى مصر ليقدم مساعدة علمية لمصر، وقال لنا عبد الحميد بفخر إنه يشترك مع هذا الأستاذ الروسي الشهير في تأليف كتاب في مجال تخصصهما وكاد أن يتم كتابته.

لاحظت أيضًا، كما أكدَت أيضًا زوجته النمساوية، أنه إذا كان في البيت لا يكاد يغادر مكتبه وكتبه وأوراقه، ولا يلتفت لها كثيرًا ولا لولدَيه الصغيرين. فإذا اشتكت من ذلك كان عبد الحميد يقلب الأمر إلى سبب للضحك، وقد يقلدها أحيانًا في نطق بعض الكلمات العربية، وهو مستغرق في الضحك.

كان الأمر مختلفًا تمامًا عندما عدت إلى مصر عودة نهائية بعد سنتين. لم يبدُ لي حينئذ رجلًا مشغولًا على الإطلاق، فقد انقطع عن الذهاب إلى مركز البحوث، وفسر هو هذا الانقطاع بأن أجهزته التي كان يستخدمها في البحث نقلت إلى مكان آخر دون علمه. وانقطع أيضًا عن الكلام عن الأستاذ الروسي والكتاب الذي كانا يكتبانه معًا. ولم نعد نراه يجلس إلى مكتبه أو يقرأ في كتاب. بل عبَّر عن عزمه، أكثر من مرة، على ترك جامعته والسفر إلى العراق ومنها إلى أمريكا للتدريس في إحدى جامعاتها؛ إذ كان السفر إلى أمريكا مباشرة متعذرًا عليه بسبب ما كان مفروضًا من قيود وقتئذ على السفر إلى الخارج. كان الأكثر

مدعاة للقلق، كثرة حديثه عن اعتقاده بأنه مراقَب، وأن هناك مَن يتجسس عليه، وأن جهاز المخابرات يتعقبه. كما ذكر مرة أنهم (دون أن يفصح مَن هم بالضبط) أرسلوا إليه سيارة للذهاب إلى الالتقاء بشخصية كبيرة في المخابرات العامة، وتعمدوا أن يسلكوا به طريقًا في الصحراء حتى لا يعرف إلى أين هم ذاهبون ومَن هو الشخص الذي سيقابله، ثم عادوا به إلى القاهرة. ولكنه لم يذكر لنا ما دار بينه وبين هذه الشخصية الكبيرة من حديث. كان إذا دق جرس التلفون ولم يرد أحد، قال إن هذه إحدى وسائل مضايقته والتنغيص عليه. وبدأ يشك في أشخاص لم يشك فيهم قط من قبل، كالبواب الطيب الذي بدأ عبد الحميد يعامله بغلظة لاعتقاده أنه يبلغ معلومات عنه لجهاز المخابرات، إلخ.

قال أصدقاؤه إنه أصيب بصدمة بالغة عندما توقف عمله في مركز البحوث نتيجة نقل أجهزته لسبب بيروقراطي بحت أو لتحقيق مصالح شخصية بحتة لضابط كبير قريب من حكومة الثورة وله بعض الادعاءات العلمية. وفسروا ما حدث له بهذه الصدمة. وقالت زوجته إنه أرهق نفسه أكثر من اللازم أثناء عمله على الدكتوراه الثانية في ألمانيا، وإن ما أصابه هو نتيجة لهذا الإرهاق. ولكني لم أقتنع بهذا التفسير أو ذاك، وأجدني أميل إلى تفسير يتعلق بتركيبه النفسي الذي قد يكون ولد به ولا حيلة له فيه.

حدث هذا التحول في حياة عبد الحميد قبل أن يبلغ الأربعين من العمر، وانقطع تمامًا عن العمل منذ هذا الوقت وحتى وفاته بعد أن تجاوز الثمانين بشهور قليلة. كان عبد الحميد يعاملني منذ وقع له ذلك الانهيار النفسي، وكأني أنا أخوه الأكبر وليس العكس، وكنت من جانبي أبدي له من العطف وأقدم له من المساعدة ما يتفق مع نظرته إليَّ. ولكنه مات دون أن يفصح عن سره، ولم يعد أمام أي منا إلا مجرد التخمين فيما يتعلق بالسبب الحقيقي لهذا الانهيار، ولم يعد لدينا الآن أي أمل في حل هذا اللغز.

٣

أنثى ضد جميع الذكور

كانت أختي فاطمة، بدورها، لغزًا بكل معنى الكلمة. عاشت حياة مديدة حتى تجاوزت الثالثة والثمانين، قضت منها عشر سنوات في لندن، مع زوجها وطفلتيها، حيث كان الزوج يعمل في مكتب البعثات المصرية، ومثل هذه المدة في بيروت. كانت حياتها سعيدة بوجه عام، بمعنى كثرة ما مرت به من أوقات سارة ومثيرة، وقلة ما عانته من ملل (في حدود معرفتي على الأقل). لم تكن على أي حال من النوع الذي يتحمل الملل والحياة الرتيبة، بل كانت على استعداد لعمل أي شيء يشيع البهجة في نفسها هي وطفلتيها، وكانت تنجح في العادة في ذلك بفضل قوة إرادتها وذكائها.

ولكن فاطمة، لسبب أو أسباب غير واضحة لي بالمرة، لم تكن تضمر شعورًا قويًا بالحب لأبي، ولم تكن دائمًا تحاول إخفاء ذلك. كلما فهمت فاطمة أكثر، يخطر لي أن هذا الشعور السلبي من جانبها نحو أبي، كان مصدره تركيبة فاطمة النفسية أكثر من أي تصرف أو سلوك من جانب أبي إزاءها. نعم ربما كان لموقف فاطمة علاقة بنظرة أبي إلى المرأة بوجه عام، والذي كان يظهر في طبيعة معاملته لأمي، وفي اختلاف معاملته للبنتين عن معاملته لأبنائه الذكور، ولكن هذا الموقف من جانب أبي لم يكن بالمرة موقفًا غير مألوف من أبناء جيله، ناهيك عن جيل أبيه، ولم تنجح ثقافة أبي أو اتساع أفقه في تغييره. ظلت المرأة في نظر أبي مخلوقًا به من أوجه النقص ما يفرض عليها أن تقبل صاغرة أو عن

طيب خاطر الخضوع لإرادة الرجل. والمرأة في نظره هي على أي حال عبء من نواحٍ كثيرة، إذا استطاع الأب أن يزيحه عنه بتزويج بناته لدى أول فرصة سانحة، كان هذا أفضل. وتظل البنات حتى يتم تزويجهن في ظروف المجتمع المصري في ذلك الوقت مصدر قلق للأب، يزيد بكثير عما يمكن أن يصدر من الابن بسبب ما يمكن أن يجلبه سوء سلوكهن (إذا حدث هذا لا قدر الله) من تنغيصات وفضائح.

مع مثل هذه النظرة للبنت كان لا بد أن تكون معاملة أبي لابنه البكر، محمد، مختلفة تمامًا عن معاملته لابنته فاطمة التي رزق بها بعد محمد مباشرة. ولأن هذه البنت بطبعها كانت ذكية وطموحًا وقوية الإرادة، فقد لاحظت ما يحدث ورفضته وأبدت تمردًا واضحًا عليه، بل وذهبت في هذا التمرد إلى درجة غير مستساغة بالمرة.

لم يكن أبي يتقبل مثل هذا التمرد من أي من أبنائه فما بالك إذا صدر من بنت؟ حاول الأب كبت إرادة فاطمة من البداية، فرفضت ذلك رفضًا باتًّا، ومن ثَم نشأ التوتر الشديد، الظاهر والمستتر، في العلاقة بينهما، وامتلأت حياتهما، بل وحياتنا أيضًا، بالمنغصات المتتالية الناتجة عن تمرد فاطمة على إرادة أبي.

حكت لي فاطمة، بعد أن مات أبي، قصصًا لا أستطيع تصديقها عن نوع معاملة أبي لها. فأنا لم أشهد من أبي إلا العطف والعدل. صحيح أنه كان نادرًا ما يجالسنا أو يبادلنا أطراف الحديث، ولكن ما حكته فاطمة كان يتجاوز هذا بكثير. سمع أبي مرة، لدى عودته من عمله، أن فاطمة شوهدت في الشارع وهي راكبة دراجة في المقعد الخلفي حيث جلس ابن الجيران في مقعد القيادة، وكانت فاطمة وابن الجيران في الحادية عشرة أو الثانية عشرة من العمر. ثار أبي ثورة عارمة، وانهال على فاطمة بالضرب. كان هذا هو ما روته فاطمة لي، فإذا كان صحيحًا، فلا بد أن الدافع لدى أبي كان هو اعتقاده بأنه إذا سمح لمثل هذا الحادث أن يمر دون عقاب صارم، فإن النهاية ستكون أسوأ بكثير من العقاب. ولكني في الحقيقة لا أقبل ببساطة ما تقوله فاطمة في هذا الأمر (ولا في كثير من الأمور الأخرى)؛ ففاطمة، بالإضافة إلى مزاياها الأخرى التي ذكرتها، كانت أيضًا واسعة الخيال، تستطيع أن تضفي

على أي حادثة صغيرة أشياء من خيالها ليس لها أي نصيب من الصحة، تحكيها لك وهي في غاية الجدية والصرامة، وقد ارتسمت على وجهها مشاعر قوية جدًّا لا تملك معها إلا أن تصدق ما تقول، ولو إلى حين. بل إني أذكر أن قصة الدراجة هذه حكتها لنا فاطمة بصور مختلفة في الأوقات المختلفة، فتضيف أشياء وتحذف أشياء حسب حالتها النفسية حينئذ.

كان لدى فاطمة، عن كل شخص في العائلة، نظرية كاملة تستريح إليها، رغم إمعانها في الخيال، وتجعلها إما تحب هذا الشخص جدًّا أو تكرهه جدًّا، فلا تقبل أي تحفظ قد يؤثر في كمال هذه النظرية وقوتها. ومع ذلك فهي قادرة أيضًا، إذا حدث من هذا الشخص أو ذاك ما يسيء إليها أو ما يحببها فيه، على أن تؤلف عنه نظرية مضادة تمامًا لنظريتها السابقة. فهو كريم جدًّا بعد أن كان أبخل رجل في الوجود، أذكى أفراد العائلة بعد أن كان أغباهم، أو أكثر الناس شرًّا بعد أن كان أتقاهم وأطيبهم، وهكذا. وفي هذه المرة أيضًا، لا تقبل أي تحفظ أو تردد، إذ تبدو في هذه المرة أيضًا مقتنعة تمامًا بصحة ما تقول. ما أكثر إذن ما خاصمت فاطمة هذا الأخ أو ذاك ثم تصالحت معه، وإن كنت لا أذكر مثل هذا التقلب في علاقتها مع أختها الوحيدة. فقد خرجت هذه الأخت سليمة من تتابع وقائع الحرب والسلام، دون أن تحظى من فاطمة، في الحقيقة، بعلاقة قوية، لا بالخير ولا بالشر. لا أذكر أيضًا مثل هذا العنف بالمرة في علاقتها بأمي، فقد كانتا دائمًا على وئام، وكانت أمي شديدة الحنو عليها (أكثر مما كانت تبدي للأخت الأخرى)، وكانت فاطمة تبادلها هذا الحب والحنان.

قد يلقي هذا الاختلاف بعض الضوء على تصرفات فاطمة ومشاعرها. فهل كانت هذه المشاعر البالغة القوة، والدائمة التقلب، قاصرة على أفراد العائلة من الذكور؟ لا أستطيع أن أستبعد هذا التفسير، خاصة إذا فكرت في نوع علاقتها بزوجها، ذلك الرجل الطيب الذي دفع ثمنًا غاليًا جدًّا لمشكلات فاطمة النفسية، والذي عانى منها بلا شك أكثر مما عانى أي شخص آخر، بما في ذلك والدي.

كانت علاقة الدكتور عبد العزيز بالريف قوية جدًّا، فهناك نشأ وتعلم حتى سنوات الجامعة، وهناك تقيم كل أسرته، وهي أسرة محترمة، متوسطة الحال،

وتربط بين أفرادها مشاعر حميمة تجعل كلًّا منهم يتوقع من الآخرين المساعدة كلما احتاج إليها، وكذلك مستعدًّا لتقديم هذه المساعدة للآخرين كلما كان قادرًا عليها.

جاءت إحدى شقيقات الزوج لزيارة فاطمة، في ردائها الفلاحي، وهي تحمل سلة مملوءة بكل ما تتوقع امرأة ريفية أن تبتهج له أي امرأة من سكان العاصمة: البيض والزبد والفطير المشلتت، إلخ. دقت السيدة المسكينة جرس البيت ففتحت فاطمة الباب، فلما رأتها بجلابيتها الريفية ومعها السلة، رفضت أن تُدخلها البيت. ولا أدري ماذا قالت لها بالضبط، ولكن شقيقة الزوج عادت مكسورة الخاطر، لا تستطيع بالطبع أن تصدق أن شيئًا كهذا يمكن أن يحدث.

كانت فاطمة مهووسة بالنظافة والخوف من الميكروبات، واشتهر عنها أنها كانت تغلي الماء الذي تضع فيه زجاجة الإرضاع عدة مرات خشية أن تصيب بنتيها بعضُ الميكروبات. ربما كان لهذا الهوس علاقة بما حدث لابنتها الأولى؛ إذ ماتت الطفلة قبل أن تتم سنة من عمرها بسبب حقنة ملوثة حقنها بها أجزجي، وأصابت فاطمة بسبب ذلك الحادث لوثة من الجنون استمرت لعدة أشهر. كنت وقتها في نحو السادسة من عمري فلا أذكر تفاصيل ما جرى ولكني أذكر جيدًا أن فاطمة رفضت أن تعترف بأن بنتها قد توفاها الله. وأخذت تصرخ وتكرر أن بنتها لا زالت حية. وخشي أبي مما يمكن أن ينتهي إليه إصرارها على رفض الأمر الواقع، فكان يحتضنها ويحيط رأسها بيديه، ثم يمسح شعرها بإحدى اليدين ويكرر هذا وهو يقول لها برقة شديدة إن بنتها قد ماتت، وإنه قد تم دفنها، ووُضعت حجارة فوق القبر، ويكرر هذا القول عسى أن تعود فاطمة إلى صوابها.

هذا الخوف المستطير من أن يتكرر الأمر مع إحدى البنتين التاليتين جعل فاطمة مهووسة إلى هذا الحد بالخوف من الميكروبات، بل ربما كان هذا الخوف المرضي من الميكروبات هو الذي سبَّب على نحو أو آخر وفاة البنت.

* * *

على الرغم من كل ذلك (أم أنه بسبب كل ذلك؟)، كانت فاطمة في نظرنا جميعًا، شخصية ذات جاذبية لا تقاوَم، يطيب لنا، في أحوالها الهادئة، أن نتبادل

الزيارات معها. كانت دائمًا محدثة ذكية ولبقة، قادرة على الضحك الصافي والاسترسال فيه، مقدِّرة دائمًا للنكتة الطريفة، بل وقادرة على الاشتراك في مناقشات معقدة عن مسائل فلسفية ونفسية تتعلق بالشخصيات التي تقرأ عنها في كتب الأدب الإنجليزي، أو في روايات الأدباء الروس الذين كانت تعشقهم عشقًا.

لم يكن غريبًا من فاطمة، وقد اجتمعت فيها هذه الصفات، أن تكون عاشقة للمقامرة. ما أكثر ما جلسنا معها، ثلاثة أو أربعة من الإخوة، نلعب بالورق لعبة لا يتطلب الفوز فيها أي قدر من الذكاء أو الألمعية، ولا حتى قوة الذاكرة. كان الشيء الوحيد الجذاب في اللعبة هو احتمال الكسب المادي، فإذا بفاطمة تركز تركيزًا شديدًا وتفرح أشد الفرح إذا غلبتنا وأخذت نقودنا. لم يكن هذا الفرح الشديد نتيجة لحب شديد للمال، فقد كانت مسرفة جدًّا في إنفاقه، بل كان الفرح فيما أظن لإثبات تفوقها على إخوتها الذكور، تغذيه رغبة عارمة في تحقيق أحلام ممعنة في الخيال، كأن تحقق في يوم من الأيام ثروة لم يحققها أحد منا، أو تمكنها من شراء سيارة عظيمة يقودها سائق خاص من النوع الذي يوظفه كبار الأعيان، أو تعيين سفرجي رائع يكون رهن إشارتها كالذي كنا نراه في بعض الأفلام المصرية.

كانت تأتي إلينا أحيانًا فتدعونا إلى لعبة الورق وتصر على ذلك، ثم نتبين أن سبب هذا الإصرار أنها رأت في طريقها إلى البيت إعلانًا كبيرًا عن فيلم جديد اسمه «رابحة»، من تمثيل كوكا وبدر لاما، فتعتقد اعتقادًا جازمًا أن مرورها بهذا الإعلان لم يكن صدفة بل مبشرًا لها بتحقيق ربح كبير من لعبة الورق.

ومع كل هذا فما أكثر ما تعرض له كل واحد منا نحن الإخوة السبعة من مضايقات بسبب تصرفات لها في غاية السخافة؛ فأحوالها دائمة التقلب، تدعو بعضنا إلى وليمة رائعة في بيتها، فتطهو الطعام بنفسها، وتنتج أطباقًا رائعة (إذ كانت بالإضافة إلى كل ما سبق طباخة ماهرة)، ثم تعلن فجأة، قبل أن يفكر أحد منا في الرحيل، أنها تكتفي بهذا القدر، وأن من الأفضل لنا أن نذهب.

ما الذي كان يحملنا على أن نغفر لها كل هذه التصرفات؟ أظن أن السبب أنها

كانت تبدو لنا (وقد كانت بالفعل) صادقة دائمًا، فإذا طلبت من أحدنا الصفح عما ارتكبته في حقه، لم يخطر له أي شك في أنها كانت تشعر بندم حقيقي، ومن ثَم كان لا بد من الصفح. يبدو أن هذه الدرجة من الصدق شيء نادر جدًّا، مما يجعله أيضًا شيئًا بالغ الجاذبية.

٤

رجل يتحدى العالم كله

كان أخي حسين دائمًا أقرب إخوتي إليَّ، ليس فقط في السن (فهو الأخ الذي يكبرني مباشرة) ولكن أيضًا في نوع الاهتمامات، وعلى الأخص في الشغف بالكتابة والاهتمام بالثقافة بوجه عام. ومع ذلك، ومع أني قضيت معه من الوقت في تبادل الحديث والخطابات أكثر بكثير مما فعلت مع أي أخ آخر أو أخت، فإني لا زلت حتى الآن أستطيع أن أجزم بأني لم أفهمه حق الفهم، ولا زلت لا أعرف سره الحقيقي. ولكني أعود فأقول لنفسي: «أليس هذا هو الحال مع معظم أو حتى كل من عرفتهم من الناس؟» ـ أقصد مَن لم أعرفهم من الناس. كان حسين، بلا شك، لغزًا آخر كبيرًا من ألغاز العائلة؛ تتعاقب عليه فترات من السعادة الفائقة والشقاء الشديد، مما لا أظن أن أحدًا من الإخوة الباقين كان يمر به.

من بين الصور الفوتوغرافية الأثيرة لديَّ (وقد استخدمتها كصورة الغلاف لكتابي «ماذا علمتني الحياة؟»)، صورة تعود إلى نهاية الثلاثينيات من القرن الماضي أو أوائل الأربعينيات، إذ يبدو عليَّ فيها أني كنت بين الخامسة والسادسة من عمري، وحسين بين السابعة والثامنة، وقد جلست أنا في الوسط بين ذراعَي أبي، ويحيط بنا ستة من الإخوة من الجانبين (وكان الغائب الوحيد من الإخوة هو أخي الأكبر محمد ـ بالإضافة إلى أمي بالطبع التي لم يكن من الملائم وقتها، فيما يبدو، أن تظهر في الصورة). كنا في نزهة في حدائق القناطر الخيرية، ومع ذلك كنا جميعًا نرتدي أحسن ثيابنا، وعلى رأس أبي طربوش وكأنه ذاهب إلى اجتماع مهم، وقد

جلسنا على بساط فرش على النجيل أمام مصور ممن كانوا يطوفون بروَّاد الحديقة عارضين خدماتهم. كانت الجدية التامة ترتسم على وجوهنا جميعًا، باستثناء فاطمة التي كانت تبتسم للمصور ابتسامة رائعة، وباستثنائي أنا أيضًا حيث ارتسمت على وجهي ملامح نسناس صغير. أما نظرة حسين، فهي بالضبط ما أريد وصفه الآن: تقطيب شديد بين الحاجبين، وحملقة حادة، وكأنه يحاول أن يخيف الواقف أمامه؛ الواقف أمامه رجل يلتقط صورة، والجالسون حوله إخوته وأبوه، فلماذا هذا التقطيب وهذه الحملقة؟ لقد عرفت مع مرور الوقت كم كانت تسيطر على حسين دائمًا فكرة تفرده واختلافه عن بقية الناس. ولا شك عندي الآن أن هذه الفكرة كان لها علاقة بهذه النظرة الغريبة التي يظهر بها في الصورة.

من الممكن أن يكون ما كان يدور في ذهن حسين في ذلك الوقت أفكارًا مثل الأفكار الآتية: «نعم أنا شخص متفرد ومتميز تمامًا عن الباقين، قد لا أكون أذكى الناس ولا أوسمهم ولا أظرفهم، ولا أكثرهم علمًا أو أوسعهم ثقافة، ولكني متفرد ومتميز عن الجميع رغم كل ذلك. هكذا خُلقت، ولا بد أن وراء خلقي على هذا النحو حكمة، ربما كانت حكمة إلهية، سوف تتضح مع الزمن. ما دام الأمر كذلك فلا يجوز أن أعامَل مثل ما يعامَل بقية الناس، يجب أن تكون رغباتي مستجابة، وإرادتي هي السائدة، فإذا أحببت امرأة فمن الطبيعي ألا تنظر إلى أحد سواي، وإذا اشتركت في طعام كان من الواجب على الجميع أن يتخلوا لي، عن طيب خاطر، عن أفضله، حتى ولو كان شريكي فيه الأب ورئيس العائلة، وإذا اشتركت مع بقية الإخوة في لعبة، فمن الطبيعي أن أتفوق على الجميع، وإذا كانت مقامرة فلا بد أن أكون أنا الرابح، إلخ». كان لهذه الفكرة أثر السحر على ما يبذله حسين من جهد لكي يثبت لنفسه ولغيره أنها هي الحقيقة؛ فتركيزه، في أي لعبة قد نشترك فيها، يفوق تركيز الآخرين، فإذا كسب بالفعل، فالأمر في نظره طبيعي للغاية، وإذا خسر (وهذا نادر) أنكر بتقديم حجة بعد أخرى، الطريقة التي حسبت بها النتيجة، وصمم على إعادة اللعبة.

ما الذي يمكن أن يجعل فكرة غريبة كهذه (فكرة التفرد والتميز إلى هذا الحد) تسيطر على ذهن صبي في السابعة أو الثامنة؟ بل إني أرجح الآن أنها قد بدأت معه

في وقت مبكر عن هذا، كما أعرف أنها استمرت معه معظم عمره، وإن كانت قد اتخذت أشكالًا مختلفة في الأعمار المختلفة، وتقلبت أيضًا قوة وضعفًا.

كتب حسين بعد وفاة أبي كتابًا جميلًا اسمه «في بيت أحمد أمين». وهو يذكر في الكتاب بضعة أحداث تؤكد سيطرة هذه الفكرة، التي ذكرتها الآن، على ذهنه منذ وقت مبكر، وإن كانت لا تفيد في تفسيرها.

يقول وهو يصف نفسه عندما كان تلميذًا في المدرسة الابتدائية: «كان خليقًا بي، وقد أثبتُّ تفوقي في الدروس، وأرضيت غريزة السيطرة في بدايتها، أن أترك لغيري من الصبية فرصة أن يبرزوا في غيرها من الميادين، فيكون ثمة توازن يخفف من حنقهم عليَّ. ولكن عبثًا! ففي قاعة الموسيقى أنا المغني وهم بعدي يرددون، وفي جماعة التمثيل أنا الممثل الأول وهم التالون، وأنا في الملعب قائد أحد الجيشين فرعون الذي به يأتمرون، كل هذا دون أن تكون لديَّ موهبة خاصة لا في الغناء ولا في التمثيل ولا في الحرب والضرب...».

أحيانًا أميل إلى تفسير هذه الخصلة بما قد يشعر به طفل ذكي عندما يجد نفسه واحدًا من عدد كبير من الإخوة والأخوات، وليس لديه ما يمنحه مركزًا خاصًا بينهم. فهو ليس الأكبر ولا الأصغر، بل في مكان ما بين هذا وذاك. ومن الممكن أيضًا أن يكون لشهرة أبي علاقة بالأمر، ولكني أعود فأقول إن التفسير الأول ينطبق على معظم الإخوة وليس على حسين وحده، والتفسير الثاني ينطبق على الإخوة جميعًا بدون استثناء، فلماذا حسين بالذات؟ وحيث إني ألاحظ أيضًا أن ظروف الحياة التي مر بها حسين مع مرور الأيام لم تستطع انتزاع هذه الفكرة من رأسه، فإني أعود مضطرًا إلى ترجيح تدخل الجينات في الأمر (وهو لا يكاد أن يكون تفسيرًا على الإطلاق، بل مجرد إعلان للعجز عن التفسير).

إذا سيطرت فكرة كهذه على ذهن طفل صغير، فما الذي يمكن أن يصنعه لكي يثبت لنفسه وللآخرين صحتها؟ من الممكن أن يصبح صبيًّا مشاكسًا، ثم شابًّا متمردًا على الدوام، وقد كان حسين كذلك لدرجة ما، ولكن ليس بدرجة مزعجة جدًّا ولا مدمِّرة، وإن كانت قد جلبت له بالفعل كثيرًا من المتاعب خلال حياته. كان من الممكن أيضًا أن يشتغل بالسياسة ليصبح زعيمًا خطيرًا، ولكنه لم يفعل،

أو أن يشتغل بفن من الفنون فيحقق شهرة فائقة، ولكنه لم يفعل ذلك أيضًا، ربما لأنه لم يكن لديه الموهبة اللازمة لهذا أو ذاك. الذي حدث هو أنه اتخذ قرارًا بالعمل الدؤوب على تثقيف نفسه، على أمل أن يصبح ليس فقط أكثر ثقافة من أي شخص في مصر (وربما أيضًا في خارجها)، ولكن أيضًا أديبًا أو كاتبًا مشهورًا تزيد شهرته على شهرة أي أديب أو كاتب آخر.

كانت تتوفر في حسين الشروط اللازمة لتحقيق شيء قريب من هذا، ليس بالضرورة «أكبر مثقف» أو «أشهر كاتب»، ولكن «مثقف كبير» و«كاتب شهير». فقد توفر له القدر اللازم من الذكاء والحساسية الكافية لأوجه الجمال في عمل أدبي جيد، والقدرة على التمييز بين الغث والسمين في الأعمال الأدبية، وذاكرة قويةٍ جدًّا فيما يتعلق بما يقرأه، ولغة عربية صحيحة وجميلة، فضلًا عن الدرجة اللازمة من قوة الإرادة لكي ينكب على قراءة كتاب بعد آخر، ويبحث عن الكتاب الضروري بلا كلل حتى يجده، فيجوب المكتبات في مصر وفي أي مدينة خارج مصر يجد نفسه فيها، واهتمام شديد بأي خبر يسمعه عن ظهور كتاب جديد لمؤلف يعتبره مهمًّا، أو عن وجود كاتب مهم لم يكن قد سمع به من قبل، إلخ.

هكذا أصبح حسين بالفعل من أكبر مثقفي مصر، كما حقق درجة كبيرة من الشهرة، ووُصف بأنه كاتب فحل، جريء، وذو أفكار هامة وثاقبة وثورية، وصاحب أسلوب بالغ الجمال. لا أظن أني عرفت في حياتي (أو سمعت عن أحد) جمع مثل هذا الجمع بين الثقافتين العربية والغربية مثل أخي حسين، ولا كان هذا الجمع سطحيًّا، بل نفذ إلى أعماق كلتا الثقافتين، فاستوعب أوجه الجمال في كل منهما، واستطاع أن يفهم الكثير من أسرارهما، في ضوء ما قرأ عن الظروف التي نشأت وتطورت فيها كل منهما، فضلًا عن إجادته التامة للغتين العربية والإنجليزية.

عشق حسين الأدب الروسي عشقًا، ولكنه كان يعرف أيضًا أدق تفاصيل حياة وأعمال «جوته» الألماني، و«برنارد شو» الأيرلندي، و«سارتر» الفرنسي، و«هنري جيمس» الأمريكي، مثلما كان يعرف أدق تفاصيل حياة وأعمال الجاحظ وأبي حيان التوحيدي، وتفاصيل السيرة النبوية وكُتابها الأصليين، فضلًا بالطبع عن الأدباء العرب المعاصرين.

منذ أن بدأ الكتابة (وعندي أول قصة كتبها وهو في الثانية عشرة من عمره، وهي قصة لا زلت أعتبرها جميلة، بعنوان «كهولة مرحة»)، كان له أسلوب جميل وسلس، زاد قوة وبلاغة مع تقدمه في السن، ينتقل به بسهولة ويسر بين اقتطاف مسرحية من مسرحيات الأديب النرويجي «إبسن»، وبين بيت بليغ من الشعر الجاهلي.

لاحظ أبي ذلك، وأعجب به، وأراد أن يشجعه على الاستمرار فيه، خاصة بالنظر إلى معاناة أبي الشديدة في تعليم نفسه الإنجليزية على كبر، فأوصى ناشر كتبه (المرحوم حسن محمد صاحب مكتبة النهضة المصرية بشارع عدلي) بأن يسمح لحسين بأن يشتري منه ما شاء من كتب خصمًا من حساب أبي عنده من بيع كتبه. وكان أبي يفاجأ أحيانًا بأن رصيد حسابه في إحدى السنوات كان صفرًا بسبب مشتريات حسين من الكتب، ولكنه لم يحتج إلا عندما عرف أن أحد مشتريات حسين كان عدة مجلدات من يوميات الأديب الفرنسي «أندريه جيد» الذي لم يكن أبي راضيًا عن أخلاقه.

* * *

عندما كتب حسين أحمد أمين كتابه الشهير «دليل المسلم الحزين» كان متأثرًا بلا شك بهذا الجمع الرائع بين الثقافتين العربية والغربية، ولكن حسين كتب أيضًا أعمالًا أدبية جميلة، منها مسرحية بالغة الجمال عن حياة الإمام علي بن أبي طالب (سماها مسرحية «الإمام»، ونشرتها مكتبة مدبولي) فضلًا عن كتابه في السيرة الذاتية («في بيت أحمد أمين»). وكنا نتراسل بانتظام كلما كنا في بلدين مختلفين، فأتلقى منه خطابات ترقى في جمالها إلى مستوى الأعمال الأدبية، ولا زلت أحتفظ بها، ويكاد يصل حجمها إلى مجلد كامل. من بين هذه الخطابات، خطاب كتبه في القاهرة وأنا في البعثة في لندن، ومؤرخ ١٠ فبراير ١٩٥٨، أي منذ أكثر من نصف قرن، ويصف فيه لقاء بينه وبين يوسف إدريس:

> زارني أول أمس في البيت يوسف إدريس وأحمد عباس صالح، وجلسنا نتحدث في الأدب حتى الثانية والنصف صباحًا.. قال إدريس: «إن ثقافتي، (أي ثقافة إدريس) لا تبلغ نصف أو عُشر ثقافتك، ومع ذلك فإن الفارق بيني وبينك هو أني عرفت عامة الشعب منذ طفولتي وصباي، بينما لم تكد تخرج أنت عن نطاق عائلتك وعملك حتى الآن. إنني قد

اكتسبت خبرات من الكثرة بحيث أصبحت في حاجة الآن إلى العزلة للتفكير فيها وهضمها، أما أنت ففي حاجة إلى الخروج من عزلتك لاكتساب خبرات...». ونصحني أن أستقيل من عملي.. وأن عليَّ أن أنزل إلى الشعب، أن أكتشف مصريتي بمخالطتي إياه، وأن أبني أدبي على أساس هذا الاكتشاف...

* * *

تقلب حسين بين عدة وظائف قبل أن يستقر في وزارة الخارجية، ولكن لم يكن من المتوقع أن يصبر أحد من رؤسائه، سواء في الخارجية أو غيرها، على رجل لديه مثل هذه الفكرة عن نفسه. لم تكن المشكلة في أنه كان يجاهر بها أمام رؤسائه، ولكن في أنها كانت تمنعه منعًا باتًّا من أن يقبل ما يقبله الآخرون، كتنفيذ الأوامر، أو إنهاء عمل معين في وقت بعينه، وعلى الأخص القيام بمهمة لا يشعر القائم بها بأنه شخص مهم وفريد من نوعه.

كانت هذه هي العقبة الكأداء عندما اشتغل لمدة قصيرة جدًّا بالمحاماة، ثم لمدة أطول في الإذاعة المصرية، كما أثارت دهشة كبيرة لدى رؤسائه في الإذاعة البريطانية، وفي مكتب الأمم المتحدة بالقاهرة، ثم أثارت غضب سفير من رؤسائه بعد آخر، باستثناء سفير واحد ظل يحمل لحسين احترامًا شديدًا ومودة فائقة.

كان هذا الرجل (مراد غالب) سفيرنا في موسكو عندما التحق حسين سكرتيرًا ثالثًا في السفارة هناك، وكان السفير ذا ميول ماركسية قوية، ويعشق الاتحاد السوفيتي عشقًا. وقد فاجأه أن يجد أحد موظفي سفارته على هذه الدرجة الرائعة من العلم بالأدب الروسي، ومن الإعجاب الشديد بكل ما كتبه «تولستوي» و«تشيكوف»، ويعرف أدق التفاصيل عن حياتهم ومكان سكناهم وما يميز كلًّا منهم عن غيره، كل ذلك فضلًا عن قدرة حسين الفائقة على كتابة بحث أو تقرير جيد عما يحدث من تطورات في السياسة السوفيتية. اطمأن السفير إلى حسين وقرَّبه إليه وصارا صديقَين بدلًا من رئيس ومرؤوس، واستمرت صداقتهما حتى بعد انتهاء فترة إقامة حسين في موسكو، وظلا على هذه العلاقة القوية حتى وفاة السفير.

فيما عدا هذه العلاقة المدهشة، لا أكاد أعرف مثلًا واحدًا لرئيس آخر من رؤساء حسين ارتاح كل منهما للآخر، ولا نهاية لقصص المشادات التي حدثت بين حسين

وسفير أو مستشار في الخارجية، أو مسؤول من مسؤولي الإذاعة المصرية، أو موظف كبير في مكتب الأمم المتحدة بالقاهرة، إلخ. ولا يمكن تفسير ذلك في رأيي إلا بهذه الخصلة الثابتة في حسين التي لم يكن من الممكن لأحد أن يخلصه منها.

* * *

لا يمكن بالطبع أن يبلغ أي إنسان من حسن الحظ أن يقضي حياته كلها دون أن يصادف ما يتعارض مع رأيه في نفسه. كما أنه ليس هناك ـ فيما أظن ـ شخص تبلغ به ثقته بأنه على صواب درجة تجعله يصمد أمام كل ما يعمل على ضعضعة هذه الثقة. كان لا بد لحسين أن يمر بمثل هذه المتاعب، وقد رأيته أكثر من مرة في حالة من هذه الحالات من اهتزاز الثقة بالنفس، وكانت كلها، أو على الأقل ما عاينته بنفسي منها، يرتبط بعجز قصير أو طويل عن نشر ما يكتبه في صحيفة أو مجلة، أو رفض ناشر أن ينشر له كتابًا انتهى من تأليفه. يبدو أنه لم يكن هناك أي سبب آخر يمكن أن يجلب لحسين الاكتئاب الذي كان يجلبه له العجز عن النشر.

مما زاد مهمة حسين صعوبة أنه كان يعتقد اعتقادًا جازمًا بأن الناس يحتاجون باستمرار إلى شيء جديد يذكرهم بالكاتب الكبير؛ فالكاتب يجب ألا يتوقف عن الكتابة والنشر وإلا زال اسمه تمامًا من أذهان الناس، ونسوه إلى الأبد. حاولت أن أقنعه مرة بأني لا زلت حتى الآن أذكر مقالًا رائعًا كتبه هذا الكاتب الكبير أو ذاك منذ ثلاثين أو أربعين عامًا، وأنه بالتالي يمكن أن يتوقف عن الكتابة إذا أراد، سنين طويلة، دون أن يخشى أن ينساه الناس. لم أجد أي استجابة لهذا القول، وهو ما اعتدته دائمًا من حسين إذا سمع ما يتعارض مع اعتقاده.

* * *

كان حسين يمر بحالة كهذه من الاكتئاب لعدم عثوره على ناشر لما يكتب، عندما تلقيت خطابًا من رجاء النقاش، وكان وقتها رئيسًا لتحرير مجلة الدوحة القطرية، وكانت مجلة ناجحة جدًّا، استطاع رجاء النقاش أن يجعل منها مجلة ثقافية محترمة تُقرأ في البلاد العربية كلها. طلب مني في هذا الخطاب أن أكتب للمجلة، فاعتذرت له وذكرت له أخي حسين وأرسلت له عنوانه، فكتب رجاء

النقاش إلى حسين يدعوه إلى الكتابة. طار حسين بذلك فرحًا مرة أخرى، وأرسل له عدة مقالات، تم نشرها وحازت إعجابًا شديدًا وأحدثت دويًّا واسع النطاق، وكانت تتسم أيضًا بالجرأة الشديدة في تناول التاريخ الإسلامي، مما اعتبره رجاء النقاش مفيدًا في محاولة أن يجعل مجلته منبرًا تنويريًّا. ولكن حدث أن إحدى مقالات حسين أثارت غضب أحد الرجال المهمين في قطر، فعبر عن غضبه واحتجاجه لدى أعلى السلطات القطرية، وأدى ذلك إلى تقديم رجاء النقاش للمحاكمة لولا تدخل أحد الرجال المقربين للأمير، فصفح عنه، ولكنه لم يستطع الاستمرار رئيسًا لتحرير المجلة.

عاد رجاء النقاش إلى مصر يبحث عن وظيفة، وأما حسين فقد عاد إلى الاحتجاب عن العالم، تعاوده نوبات اليأس من حين لآخر، حتى عُين مستشارًا في السفارة المصرية بألمانيا. ابتهج حسين بشدة في البداية بالمقر الجديد، ففضلًا عن المزايا الكبيرة للوجود في بلد أوروبي، كانت بنات حسين الثلاث قد تعلمن في مدارس ألمانية بالقاهرة، فأصبح من الممكن أن يستمر تعليمهن بالألمانية. ولكن سرعان ما صادف حسين مشكلة كبيرة؛ إذ لم يمضِ أكثر من عام على ذهابه إلى ألمانيا حتى كتبت السفيرة المصرية إلى الوزارة بالقاهرة طلبًا بنقل حسين إلى مصر لأنها لا تستطيع التعاون معه.

* * *

هكذا ظل حسين دائمًا. إنه يتوق إلى شيء بشدة، ويعبر بقوة عن رغبته فيه، حتى نقتنع تمامًا بأن هذا هو بالفعل ما يتمناه ولا يتمنى غيره، ولكنه قادر دائمًا، متى حصل على ما يريد، على فعل الشيء الوحيد الذي يجعله يفقد ما حصل عليه بشق الأنفس. إنه ينظر إلى العالم بغضب، بالضبط مثلما يبدو من نظرته في الصورة التي وصفتها في بداية هذا الفصل، والتي لم يكن حسين فيها قد بلغ الثامنة من عمره. يتحدى العالم ولا يقبل أن يعامله العالم نفس المعاملة، ومن ثَم بدت حياته سلسلة متصلة من نجاح فائق بسبب موهبته الحقيقية في الكتابة، تليه صدمة قاسية وتقهقر شديد نتيجة لرد العالم على جرأته وتهوره. من أين أتى لحسين هذا الغضب، من

قبل أن يبلغ الثامنة من عمره؟ لا يمكن بالطبع أن يكون للأمر أي علاقة بظروف النشأة والتربية، أو الجو العائلي، أو معاملة الأب أو الأم، إلخ، فكل هذا لا يمكن أن يغرس منذ السنوات الأولى من عمر الطفل كل هذا الغضب الهائل على العالم، وهذا الميل القوي لتحدي الكون بأسره. هذا لغز آخر لم أستطع حتى الآن الوصول إلى حل له.

٥

حمامة

كان «حمامة» مجرد خادم، ولكنه كان شخصية مهمة في عائلتنا طوال العشر سنوات (على الأقل) السابقة على سفري للبعثة في إنجلترا. فلما رجعت من البعثة، وسكنت بمنزل مستقل، كان لا يزال يسكن في بيت العائلة بالدقي، يؤدي خدمات مختلفة لإخوتي في مساكنهم المستقلة، ولا يكاد أحد منهم يستغني عن هذه الخدمات. واستمر هذا حتى سافرت مرة أخرى لعدة شهور خارج مصر، فلما عدت في ١٩٧٢ سمعت بخبر مقتله في ظروف غامضة.

نعم كان مجرد خادم، ولكن يدفعني إلى تذكره من حين لآخر، وإلى الكتابة عنه، أنه كان شخصية خارجة تمامًا عن المألوف، بل أستطيع أن أقول إنه كان شخصية جميلة، رغم جهله التام وأميته وقلة كلامه. لم أر منه ولا سمعت شيئًا ينطوي على كراهية لأي شخص، أو شكوى من أي شيء. مستعد دائمًا لتلبية طلبات الجميع طالما كان قادرًا جسمانيًّا على ذلك، ولا يناقشك أبدًا فيما تعطيه من مكافأة على عمل قام به، وكأنه فعل ما فعل لمجرد إرضائك، وأن المكافأة مهما كانت كبيرة أو صغيرة، لن يكون لها أثر مهم في حياته.

كان هذا الموقف منه، إذا فكرت فيه قليلًا، موقفًا طبيعيًّا جدًّا. إذ ما الذي يمكن أن يصنعه بمبلغ من المال؟ كان ينام فيما كنا نسميه «بئر السلم» في بيتنا بالدقي، على أرضية من البلاط المغطى بغطاء خفيف، وبجانبه موقد صغير يعمل بالجاز ويستخدمه في تسخين ما تعطيه له والدتي من طعام. كان هذا الطعام يتكون من

بقايا غذائنا نحن، من أرز ولحم وخضار، ولكن حمامة كانت له طريقته الخاصة في تناول الطعام، إذ كان يخلط كل شيء بكل شيء، في إناء واحد، يقوم بتسخينه، دون أن يُعنى بتمييز نوع عن آخر. وما بقي منه يتناوله في اليوم التالي.

كان الذي دفع أبي إلى استخدامه كخادم في منزلنا (وكان قبل ذلك يعمل فرَّاشًا في لجنة التأليف التي يرأسها أبي)، ما لاحظه فيه من قوة جسمانية أكبر من المألوف. وكان من أوائل القصص التي تداولناها عن حمامة أن أبي طلب منه أن يستأجر عربة لنقل كنبة كبيرة كانت تحتاج إلى إصلاح، من بيتنا في الدقي إلى نجار في عابدين. أعطاه أبي خمسة وعشرين قرشًا لينفق منها على استئجار العربة، ولكن حمامة رُؤي بدلًا من ذلك وهو يحمل الكنبة على رأسه عابرًا بها كوبري قصر النيل. وعندما سئل في الأمر قال إن مبلغ الخمسة والعشرين قرشًا بدا له أكبر بكثير من أن ينفَق على شيء لا فائدة منه.

ومع هذا فلم يكن يبدو على حمامة أي حرص على جمع المال أو اكتنازه. كان يجمعه فعلًا ويكتنزه، ولكن السبب، كما تأكدت من ملاحظة تصرفاته، لم يكن رغبة قوية لديه في المال، بل كثرة أفراد العائلة المحتاجين لخدماته، وقلة حاجاته هو. كان الشيء الوحيد الذي يبدو أنه حريص فعلًا عليه هو كوب من الشاي، كل حين وآخر، ويشربه ثقيلًا جدًّا، وشديد السواد، بالإضافة، على الأرجح، إلى نوع رديء ورخيص من المخدرات كان يشتريه في صورة ملبن طري يلوكه في فمه. لا بد أن كان لهذا النوع من المخدرات علاقة بشعوره الدائم بالسكينة وميله إلى الصمت. كنت كثيرًا ما أراه جالسًا القرفصاء أمام بيتنا، لا يفعل شيئًا على الإطلاق، ولا يكلم أحدًا إلا بالرد على تحية القادم أو الذاهب، وهو ينظر أمامه في فراغ دون أن يبدو على وجهه أي تعبير.

ومع هذا كنت واثقًا من أنه يحبني ويثق بي، ربما لمجرد أني كنت أسأله من حين لآخر سؤالًا أو سؤالين عن أحواله وصحته كلما رأيته جالسًا أمام الباب، دون أن يفعل هو أو يقول أي شيء يدل على هذه الثقة، غير شكواه لي أكثر من مرة من زوجة أخي أحمد (الألمانية) وزوجة أخي عبد الحميد (النمساوية)، وكان يسميهما بنفس الاسم (جيتا)، فلا يميز بين «بريجيتا» و«جريتا». لم تكن هذه الشكاوى تتعلق بالمال

بل بأنهما يكلمانه أحيانًا بما اعتبره بعض القسوة. ولكنه على أي حال لم يكن يطيل في الشكوى، بل يكتفي بأقل الكلمات للتعبير عن قلة سروره بالذهاب إلى منزل أي منهما لأداء عمل أو آخر. كان من الواضح أيضًا أنه يحب والدتي حبًّا جمًّا ويتفانى في خدمتها، وكانت تبادله شعورًا مماثلًا. كان هو الخادم الوحيد الذي احتفظَت به حتى وفاتها ولم تكن تتصور أن تفقده.

* * *

ربما كان حمامة في نحو الثلاثين من عمره عندما التحق بخدمتنا، وفي نحو الخمسين عند مقتله، ولكني لم أسمع عنه أو منه قط شيئًا يدل على وجود أي أثر للنساء في حياته. لم يتزوج قط، ولا سمعت أن لديه نية أو رغبة في الزواج. المرة الوحيدة التي صدر منه أي شيء يدل على مثل ذلك، كانت عندما زارتنا مرة فتاة إيطالية جميلة كان أحد إخوتي قد تعرف عليها في زيارة لإيطاليا، ووقعت في غرامه وكانت تتمنى الزواج منه. زارتنا في القاهرة لهذا السبب وقضت في بيتنا ليلة، ولكن أخي أبدى نفورًا منها ورغبته في التخلص منها في أقصر وقت. عندما رأت والدتي ذلك عبَّرت عن شعور بالعطف على الفتاة، ثم قالت ضاحكة في وجود حمامة: «لماذا لا نزوِّجها لحمامة؟». قال حمامة بجدية تامة: «يا ريت والنبي يا ست!».

* * *

مع استمرار تدفق المال في يدَي حمامة بما يعطيه كل هؤلاء الإخوة وزوجاتهم مقابل عمله في منازلهم، وقلة ما ينفقه منه، كان لا بد أن يتراكم لديه المال دون قصد منه. ولا شك في أنه كان يضع ما لديه منه في مكان ما في بئر السلم بجوار فراشه. ولا أدري مَن مِن إخوتي كان أول من خطر بباله، عندما احتاج إلى بعض المال، أن حمامة يمكن أن يكون مقرضًا جيدًا. الذي أذكره أن أخي عبد الحميد كان أكثر إخوتي استخدامًا لهذا المصدر للإقراض، فقد كان أكثرنا حاجة إليه بسبب قلة موارده. وقد كان حمامة جاهزًا دائمًا لإقراض عبد الحميد، وهو الأستاذ بالجامعة، دون أن يبدو عليه أي تردد أو استغراب. كان عبد الحميد يرد ما اقترضه بالطبع، وفي التاريخ الذي وعد به، ولكنه سرعان ما يعود للاقتراض من جديد. كان المبلغ يمكن أن

يكون مائة جنيه أو أكثر (وقد كان هذا مبلغًا كبيرًا في نظرنا في ذلك الوقت) ولكن الأرجح أن حمامة لم يكن يعدُّ ويحسب ما كان دائنًا به أو ما تبقى لديه.

المهم أن شخصًا ما، أو مجموعة من الأشخاص، لا بد أن تنبهوا لما لا بد أن يكون لدى حمامة من مال، ولمكان وجوده. ولا شك أن السارق قد فاجأ حمامة ليلًا في بئر السلم، وأن حمامة قد قاومه، وإلا ما كان السارق في حاجة إلى تهشيم رأسه، على النحو الذي بلغني وصفه، ولكننا لم نسمع عن أي إجراء بوليسي اتخذ لمعرفة الجناة وضبطهم، ولا أن أحدًا من الإخوة اهتم بمتابعة هذا الأمر بعد وقوعه.

كانت والدتي قد تُوفيت قبل مقتله ببضع سنوات، ولكني لا أذكر أن أحدًا من إخوتي قد ذكر اسم حمامة قط، سواء بالمدح أو بالذم، طوال الأربعين عامًا التي انقضت منذ وفاته، وكأنه لم يوجد قط شخص بهذا الاسم.

٦

أقاربي الإنجليز

تعرفت على والدَي زوجتي الإنجليزية لأول مرة، عندما زرتهما في بيتهما الجميل والمطل على البحر مباشرة في بلدة إنجليزية صغيرة اسمها «فيلكستو»[١]، وتقع على بُعد ساعتين بالقطار من لندن. لم تكن لهذه البلدة أي ميزة خاصة في نظري، فلولا أنها البلدة التي عاشت فيها زوجتي وأسرتها قبل زواجي منها، ولولا هذا البيت الجميل الذي أقمت فيه أيامًا كثيرة، عامًا بعد عام، لما شعرت نحو هذه البلدة بأي عاطفة خاصة. وهذا هو ما اكتشفته عندما زرتها لأول مرة بعد وفاة الأب والأم وبيع البيت، فلما ذهبت في هذه الزيارة الأخيرة للمرور حول البيت لمحاولة تذكر أيام كثيرة سعيدة، لم أفلح في استعادة أي شيء. الحديقة الجميلة فقدت جمال تنسيقها، وبُنيت حجرة جديدة احتلت جزءًا مهمًّا من الحديقة، والبيت أعيد طلاؤه بلون غريب لم يعجبني، وعندما حاولت الاقتراب أكثر لرؤية ما حدث لحجرة الطعام المطلة على الحديقة، وجدت عيونًا تحدق فيَّ مستغربة من ظهور هذا الغريب بالقرب من الباب فأسرعت بالاختفاء.

* * *

لا زلت أذكر جيدًا زيارتي الأولى لأهل زوجتي (وكان قد تم اتفاقي معها على الزواج ولم يتم الزواج بعد)، إذ فوجئت في هذه الزيارة بشيء طريف للغاية، ولا زلت أحكيه حتى الآن وأعيد حكيه لأولادي، ونستغرق بسببه في الضحك.

---

(١) Felixstowe

كنت قد قرأت قبل هذه الزيارة كتابًا مشهورًا ولطيفًا جدًّا، لمؤلف لم يكن إنجليزيًّا ثم اكتسب الجنسية الإنجليزية، «جورج مايكس»، واسم الكتاب «كيف تكون أجنبيًّا؟»[1]، ويصف طبائع الإنجليز على نحو يجمع بين السخرية والمحبة. قال مثلًا، وهو يتكلم عن الأكل الإنجليزي، إن سكان القارة الأوروبية (التي يفصلها بحر الشمال عن إنجلترا) لديهم بعض الأصناف الرائعة جدًّا من الطعام، أما الإنجليز فلديهم قواعد رائعة يجب اتباعها عند الأكل. وقد لاحظت ذلك بالفعل لدى جلوسي لتناول طعام الغداء لأول مرة في بيت «فيلكستو».

تصادف أني كنت وقتها جائعًا، وأتطلع إلى وجبة دسمة، فإذا بي أُفاجأ بالبطاطس المسلوقة، والخضار المسلوق أيضًا، وقطع صغيرة جدًّا من اللحم. قلت لنفسي إني سأعوض هذا النقص عندما يأتي طبق السلطة، وقد جاء بالفعل طبق كبير للسلطة، ودار على الحاضرين واحدًا بعد الآخر حتى وصل إليَّ. فلما نظرت فيه لم أجد إلا قطعًا صغيرة جدًّا ومعدودة من الخيار، بالإضافة إلى قطعتين صغيرتين أيضًا أو ثلاث من الطماطم. لم يكن من الممكن بالطبع أن آخذ كل ما في الطبق، وأتركه خاليًا لمن يجيء بعدي، فأخذت فقط بعض ما فيه، وناولت الطبق إلى الشخص الجالس على يميني. وقلت لنفسي إن عليَّ أن أتذرع بالصبر. ولكني فوجئت بعد بضع دقائق، بطبق السلطة يدور من جديد على الجالسين، ويقول الجالس على يساري، وهو يناولني الطبق: «هل ترغب في المزيد من السلطة؟». اعتذرت بالطبع دون أن أنظر في هذه المرة إلى ما بقي في الطبق.

* * *

بعد مرور هذه السنوات الكثيرة أجد أني، كلما تذكرت الأب والأم، لا زلت أحمل لهما الكثير من المودة والحب، رغم ما عانيته من حماتي، المرة بعد المرة، خلال السنوات الأولى من زواجي. ولكني لا أذكر من والد زوجتي إلا كل خير، ويختلط بما أشعر به نحوه من مودة، حزن بفقده يزيد عما أشعر به من حزن عندما أتذكر كثيرين ممن عرفتهم عن قرب وفارقوا الحياة.

(١) George Mikes, *How to be an Alien*

عرفت والد زوجتي، «إدموند ووكر»[١]، لأكثر من ثلاثين عامًا، منذ أن كان في منتصف الخمسينيات من عمره، وحتى توفي في السابعة والثمانين. وعرفت زوجته «إلْسا»[٢] مدة أقصر؛ إذ توفيت قبله باثني عشر عامًا. ولدا في نفس اليوم من نفس العام في أوائل القرن العشرين، ومن ثَم عاصرا وكانا يتذكران جيدًا كل ما يتعلق بالحربين العالميتين الأولى والثانية، وقد تزوجا في أثناء الأزمة العالمية في الثلاثينيات، وأنجبا ولدًا وبنتين، إحداهما زوجتي «جان»، وهي أصغر الثلاثة.

كان «إدموند» في نظري رجلًا فريدًا من نوعه، أحب أن أتذكره وأن أكتب عنه، وكأن لديَّ رغبة في اكتشاف كنهه وسر عظمته. وأظن أنه كان من أقرب مَن عرفت من الناس إلى «الرجل السعيد». لم يكن شديد المرح أو كثير الكلام، ولكن لم يكن يخامرني أي شك في أنه راضٍ تمامًا عن نفسه، ولا يطمح إلى شيء لا يستطيع تحقيقه.

لم يكن لديَّ أيضًا أي شك في حدة ذكائه، سواء فيما يتعلق بشؤون الحياة العادية، أو بفهم الناس المحيطين به. وأعتقد أن فهمه هذا لتصرفات الناس وحقيقة دوافعهم، مع ثقة كافية بالنفس دون المبالغة في تقدير نفسه، هما من أسباب رضاه عن الحياة، وقدرته على الاستمتاع بما يحصل عليه منها.

ولد في عائلة إنجليزية أرستقراطية من مُلاك الأراضي الكبار، ويستطيع بسهولة أن يخبرك بتسلسل شجرة العائلة منذ بدايات القرن الثامن عشر. كوَّن جد من أجداده الأُول ثروة كبيرة من صناعة الصلب والمدافع، وبقيت الثروة في العائلة في صورة ملكية مساحات شاسعة من الأرض الزراعية، حتى وصلت إلى أبيه. اصطحبتني زوجتي مرة لمشاهدة البيت الذي ولد فيه أبوها، فرأيت قصرًا عظيمًا تحيط به حديقة يصعب تحديد بدايتها ونهايتها، ويقع على أطراف قرية في مقاطعة «يوركشاير» في شمال إنجلترا، ويسكنها مزارعون يعملون في زراعة الأرض التي كانت مملوكة للعائلة، كما كانت العائلة تملك أيضًا كثيرًا من البيوت التي يسكنها

---

(١) Edmund Walker

(٢) Elsa

هؤلاء المزارعون. ولكن فقد جد زوجتي معظم ثروته خلال الأزمة الاقتصادية في الثلاثينيات، واضطرت زوجته بعد وفاته للانتقال للعيش في بيت أصغر كثيرًا، وإن كان قد بقي معها من المال ما يكفي لمعيشة كريمة هي وأولادها.

كان «إدموند» الابن الأوسط بين أخ يكبره وأخت تصغره، وكان بلا شك أكثر الثلاثة ذكاء وأنجحهم في الحياة. ورث أخلاق الأرستقراطية الإنجليزية فكان صادقًا، صلبًا أمام الأحداث، وينفر كبقية الإنجليز من المبالغة في التعبير عن المشاعر، بل وحتى مجرد إظهارها، كما ينفر من أي نوع من الإسراف وتبديد المال فيما ليس فيه فائدة واضحة. قليل التأنق في الملبس، وليس لديه أي شره إلى الأكل.

قدرت كل هذه الصفات فيه، وإن لم أكتشف قدرته الكبيرة على التعاطف مع الناس إلا بالتدريج، كان كبقية الإنجليز، يخشى بشدة من أن يعتدي على حق أي شخص في الاحتفاظ بأسراره وخصوصيته، فيخاف أن يسألك عن همومك ومشاغلك، ويتركك حتى تصارحه بها إذا أردت، كما يتجنب أي فعل يمكن أن يشتبه منه التعدي على أمورك الخاصة. كنت أقضي بعض أيام في بيته أثناء مروري بفترة اكتئاب شديد، ولاحظ هو بالطبع ما أنا فيه من هم وشرود وميل للصمت، وضعف شهيتي للأكل بل وإلى أي شيء آخر. حار في أمري، وكان من بين ما خطر له للتسرية عني أن يعطيني رواية بوليسية لقراءتها. لا بد أنه كان يعتبرها بالغة التشويق، وقادرة على إثارة رغبتي في إتمامها متى بدأت فيها. جلبها إليَّ حيث كنت أجلس ولكنه لم يفُهْ بأي كلمة عنها، وإنما اكتفى بوضعها أمامي وأسرع بالانصراف. كذلك حاول أن يعرف من زوجتي أي صنف من الطعام يمكن أن يستهويني وذهب بنفسه لشرائه، ولكنه لم يحقق نجاحًا لا في هذا ولا في ذاك.

هكذا كان أيضًا مع أولادي: بالغ الرقة، وقوي الإحساس بميولهم ورغباتهم، وعلى استعداد لبذل الكثير من الوقت من أجل تلبية هذه الرغبات، دون أن يُشعرهم قط بقدر التضحية التي قام بها من أجلهم. فإذا ودعنا جميعًا عندما تنتهي العطلة التي نقضيها معهم في إنجلترا، لا تصدر عنه أي كلمة تعبِّر عن عواطف مصطنعة أو حقيقية، ولكني كنت أعرف من أشياء أخرى، قوة عواطفه.

كانت «إلسا» زوجته تشكو لزوجتي أحيانًا، على نحو عابر وكأنها تمزح، وإن كان من الواضح أنها تعني ما تقول، من قلة تعبيره عن عواطفه. وكنت بالفعل أتساءل أحيانًا عن مدى عمق شعوره نحوها، ولكني لم أسمع منه قط، خلال الثلاثين عامًا التي عرفتهما فيها، أي كلمة جارحة لها أو ناقدة لشيء فعلته، رغم كثرة ما لاحظته من تصرفاتها التي تستحق النقد فعلًا.

* * *

كانت «إلسا» تعاني، بلا شك، من نقطة ضعف خطيرة. كانت قوية الشخصية بلا شك، ولكن قوة الشخصية لها أشكال وألوان، وقد تتخذ صورًا مرهقة للغاية للمحيطين بصاحبها، وكثيرًا ما تكون ناتجة عن شعور بالنقص يجري تعويضه بالتعدي على حقوق الآخرين. أظن أن قوة شخصية «إلسا» كانت من هذا النوع. كانت تصر دائمًا، وبنجاح دائمًا، على أن تكون المركز الذي تتجه إليه كل الأنظار والأسماع، وتكاد تضيق بأي توجيه للكلام لشخص غيرها، ما دامت جالسة وسطنا، وقد منحتها هذه الرغبة العارمة في إثبات الوجود قدرة فائقة على تحويل دفة الحديث دائمًا لما يخدم هذا الهدف. فقدرتها على المقاطعة لا مثيل لها، وكذلك قدرتها على توجيه الأسئلة بحيث لا توجه الإجابة إلا إليها، كأن تميل برأسها، وربما بجسمها كله، نحو المتحدث وكأنها تمنعه منعًا باتًّا من أن يتوجه بالكلام لغيرها.

كنا نتساءل مرة حول أفضل مكان يمكن أن نقضي فيه يومًا مشمسًا، في الهواء الطلق، ونأخذ معنا الأطفال والطعام. فاقترح «إدموند» اقتراحًا بدا لي ممتازًا وظننت أنه سيحوز على الفور موافقة الجميع، بمن فيهم «إلسا». وفوجئت بأنها اعترضت بشدة دون أن تذكر أي سبب، ودون أن تترك مجالًا للمناقشة. نظرت إلى «إدموند» مندهشًا وسألته عما يمكن أن يكون سبب اعتراضها، فقال لي مبتسمًا وبصوت خافت: «لأن الفكرة لم تخطر ببالها أولًا!».

ومع ذلك كنا نقضي في بيتهما أيامًا سعيدة، بل وأسابيع، أحمل لها حتى الآن ذكريات بهيجة. فـ«إلسا»، رغم كل هذا، كانت قادرة على إشاعة السرور بحيويتها الفائقة ونشاطها المستمر واستعدادها لحل كل ما يطرأ من مشاكل، وترتيب كل ما يلزم لذلك. لم يكن «إدموند»، رغم أنه يفوقها ذكاء بكثير، على هذه الدرجة من

النشاط والكفاءة، بل كثيرًا ما كان يترك لها القيام بأعمال كان المتوقع أن يقوم هو بها. وأظن أن السبب في معظم الأحوال أنها كانت أسرع منه في المبادرة، وأنها كانت تعطل كثيرًا من جهوده، بتدخلها المستمر، لكي تستأثر هي بالسلطة، حتى يئس الرجل من جدوى الشروع في كثير من الأعمال. كانت قادرة على تخمين رغبات كل طفل قبل أن يعبر عنها، وعلى الحصول على المعلومات اللازمة للسفر، أو لترتيب موعد مع طبيب أو الحجز في مطعم، إلخ. وكانت جهودها في أغلب الأحوال ناجحة. ومن ناحية أخرى كانت شخصية «إدموند»، لحسن الحظ، من النوع الذي يفضل تجنب المشاكل بقدر المستطاع، والاستمتاع بما يمكن الاستمتاع به دون إثارة مشاكل صغيرة، والمستعد للتضحية برغبات بسيطة له في سبيل الآخرين.

هكذا استطاع «إدموند» و«إلسا» الظفر بزواج مستقر وبدون تقلبات عنيفة (أو هكذا بدا لنا الأمر على الأقل). ولم يخطر ببال أحد منا قط أن زواجهما يهدده أي شيء خطير. كان «إدموند» يقول أحيانًا لزوجتي، عندما تُظهر ضيقها ببعض تصرفات أمها، خاصة تصرفاتها إزاء أبيها، إنها يجب ألا تجعل هذا الأمر يشغلها كثيرًا، فأمها لا تتصرف على هذا النحو طول الوقت، بل فقط عندما نكون نحن معهما، وأنها تكون طبيعية تمامًا عندما يكونان على انفراد. وأظن أنه كان صادقًا في ذلك، بالنظر إلى التفسير الذي وصلت إليه لتصرفاتها.

* * *

كانت علاقة «إلسا» بزوج ابنتها الكبرى، علاقة عداوة شديدة، لا يخفي كل منهما ضيقه الشديد بالآخر، إلى حد أن كانت «إلسا» ترفض أحيانًا قدوم ابنتهما من أمريكا لتقضي عطلتها مع زوجها في بيت العائلة في إنجلترا، ما دامت مُصرة على اصطحاب زوجها معها. فلتأتِ وحدها مع أولادها إذا شاءت، ولكن ليس معه. وكان زوج البنت يعرف ذلك ويبادل معاملة حماته بمثلها. كان السبب هو معرفتها بكيفية معاملة الرجل لابنتها، وأنه سكِّير مقامر، ويستغل زوجته بإنفاق ما يستطيع الحصول عليه من أموالها على ملذاته الخاصة. كانت علاقة «إلسا» بي، وأنا زوج البنت الصغرى، مختلفة بسبب ما كانت تراه من رضا ابنتها عني. ومع ذلك فكثيرًا

ما نشب بيننا شجار وخصام لأسباب تافهة علق عليها «إدموند» مرة قائلًا: «تصرف كل منكما سخيف كتصرف الآخر بالضبط»[1]. ولكننا أصبحنا على وئام تام وشبه مستمر في العشر سنوات الأخيرة من حياتها، بعد أن قرر كل منا أن يغفر للآخر أخطاءه البسيطة، وبعد أن تحسنت أحوالي المالية لدرجة طمأنتها على مستقبل ابنتها، مع ما أبديناه لها هي و«إدموند» من كرم كلما قاما بزيارتنا في مصر أو في الكويت أو في أمريكا.

أرسلت إليها خلال مرضها الأخير باقة كبيرة من الزهور ومعها خطاب طويل، فردت عليَّ أيضًا بخطاب طويل رقيق كتبته بخط مرتعش ولا يحتوي على أي محاولة من جانبها لاستدرار العطف. كان قد أصابها سرطان المعدة الذي لم يمهلها أكثر من ثمانية شهور، أبدت خلالها قوة وصلابة تدعوان إلى الإعجاب. قالت لي زوجتي إن الشيء الوحيد الذي كانت تعبر عن ضيقها به، الاتصال التلفوني المتكرر من إحدى صديقاتها التي كانت تعرف مدى إعجاب «إدموند» بها. رفضت العلاج الكيميائي عندما أدركت أنه قد يطيل عمرها بضعة شهور دون أن ينقذها من المرض، وعبرت عن كراهيتها الشديدة لفقدان شعرها الجميل الذي كانت دائمًا فخورة به، والذي كان لا بد أن تفقده لو قبلت العلاج الكيماوي. ولكنها جمعت كل قواها في مقاومة الموت حتى تُحقق أملًا واحدًا، لم يكن يهمها ما يحدث لها بعد ذلك، وكان هذا الأمل يتعلق بابنها. كانت تهيم حبًّا بهذا الابن وتبدي له من العطف أكثر مما تبدي للبنتين. ربما كان هذا الموقف مألوفًا من الأمهات، ولكن هذا الابن كان يستدر العطف لسبب آخر غير أنه الولد الوحيد، وهو أنه كان يصاب من وقت لآخر باكتئاب شديد الوطأة ومثير للعطف. عشق هذا الابن التمثيل منذ صباه، واختار أن يلتحق بمدرسة للتمثيل أظهر فيها براعة وموهبة حقيقية، فسرعان ما لمع اسمه بعد ذلك على المسرح وفي التلفزيون ثم السينما. لم يقم أبدًا بالدور الرئيسي في أي مسرحية أو فيلم، ولكنه كان يقوم دائمًا بدور مهم في الصف الثاني، وكان حسن أدائه يضمن أن يظل الناس يذكرونه، والإشادة به في الصحف، مهما كان دوره صغيرًا. رأيته

---

(١) «You are both as silly as each other.»

على أكبر المسارح في لندن، واشترك في تمثيل مسرحيات لـ«شكسبير» مع أكبر الفرق المسرحية وأشهر الممثلين الإنجليز، وكان الناس يتعرفون عليه بسهولة أثناء سيره في الشارع، بل أحيانًا حتى في خارج إنجلترا. وشاع بالفعل اسمه واستطاع تحقيق ثروة لا بأس بها.

كان الأمل الوحيد الذي تريد أمه تحقيقه قبل أن تموت أن تشاهد مسرحية «قصة شتوية» لـ«شكسبير» التي أُعلن أن التلفزيون الإنجليزي سيقوم بإخراجها وعرضها في شهر أبريل، ويقوم فيها بدور البطولة «لورانس أوليفييه»، ومعه ابنها «جيريمي» في دور لا يستهان به. كانت تقول إنها لا يمكن أن تموت قبل أن ترى هذه المسرحية في التلفزيون. وبالفعل نجحت في تحقيق أملها. وفي اليوم المحدد لظهور الفيلم حملها زوجها بمعونة زوجتي على كرسي من حجرة نومها في الدور الثاني إلى حجرة الجلوس في الدور الأرضي، حيث جلست على كرسيها المعتاد أمام التلفزيون. وقد عبرت عن رضائها التام على أداء ابنها، وماتت بعد ذلك بثلاثة أيام.

* * *

كانت أخت زوجتي، وهي أكبر إخوتها، تقيم في لوس أنجلوس منذ زواجها بأمريكي، ولم تكن تعود لإنجلترا إلا لمامًا. كانت قد تركت إنجلترا غاضبة على الحياة كلها، بعد أن فقدت الأمل في أن يتقدم لخطبتها شاب وقعت في غرامه، وبدا عليه أنه وقع أيضًا في حبها، ولكنه لم يستطع اتخاذ قرار الزواج، فأخذ يقدم رِجلًا ويؤخر أخرى، حتى يئست منه وقبلت وظيفة ممرضة في أمريكا وسافرت وتزوجت من أول رجل عبَّر لها عن حبه.

كان هذا الأمريكي يكبرها باثني عشر عامًا، قليل الدخل، وبلا وظيفة ثابتة، ويبدو أنه كان بالإضافة لذلك طفيليًّا، فلم يجد غضاضة في الاعتماد على ما تحصل عليه هي من دخل من عملها، فتركها تتحمل مسؤولية الإنفاق على لوازم الحياة، بينما ينفق هو ما قد يحصل عليه من دخل من حين لآخر، على هوايتَيه في الحياة: الخمر والمقامرة. أبدت هي درجة من الصبر على هذا النمط من الحياة، أثارت دهشة أسرتها، إذ لم يبد للرجل أي ميزة تبرر تحملها له كل هذه السنين. كانت الأسرة

تعرف أنها كانت بطبعها قادرة على هذه الدرجة من الصبر، وتكتفي بالشكوى منه دون أن تواجهه بالغضب والرفض، وأنه يكفي لاسترضائها أن يقوم زوجها بعمل صغير تافه يدلل به على حبه لها، كوضع اسمها على يافطة الأرقام المثبتة على سيارته (مما تسمح به القوانين في أمريكا) أو توجيه الثناء عليها من حين لآخر لتضحية كبيرة قامت بها، قبل أن يعود إلى ما كان عليه من إدمان الخمر وشراء أوراق اليانصيب، معلنًا في كل مرة أنه واثق من أنه سيفوز في هذه المرة بمكسب ضخم.

كان هذا الزوج شخصية مدهشة. لا يخلو من جاذبية لا بد أنها هي التي أوقعت أخت زوجتي في حبه، رغم نقاط ضعفه الواضحة. كان واثقًا من نفسه، يعرف ما يريد بالضبط، ويعمل اللازم للحصول عليه، غير مبالٍ برأي أحد. يمكن اعتبار هذا أنانية مطلقة، وقد كان بالفعل كذلك، إذ لا أذكر له قولًا أو فعلًا لا يصب مباشرة في تحقيق مصلحة له. يقيِّم الناس بالضبط طبقًا لما يحققون له من منفعة، أو طبقًا لرأيهم فيما يصنع. صحيح أن هذا ينطبق إلى حد بعيد علينا جميعًا، ولكني أظن أنه ذهب في هذا إلى أقصى حد، بالمقارنة بمن عرفتهم من الناس. كان قادرًا على الضحك، ولكن نادرًا ما أبدى قدرة على ابتكار شيء أو فكرة تجلب المسرة لمن حوله. كان سريع الملل، إذا لم يجد ما يسليه من طعام أو شراب أو مغامرة من أي نوع، وإذا لم يتَح له شيء من هذا، لجأ إلى التلفزيون. دعتنا زوجته مرة إلى العشاء فوجدته عند وصولنا جالسًا أمام التلفزيون وقد مد ساقيه على مقعد أمامه ليحصل على الراحة الكاملة، فأذهلني أنه لم يقم لتحيتنا، بل اكتفى بتحية سريعة دون أن يحول نظره عن شاشة التلفزيون. ومع ذلك لم أسمع منه قط ثناء على برنامج تلفزيوني معين يحرص على مشاهدته، ناهيك عن قراءة جريدة أو تعليق على شيء مهم يحدث خارج أمريكا. بل وحتى أخبار الولايات المتحدة قد لا يعتبر من بينها خبرًا جديرًا بالاهتمام إلا فوز فريق لكرة السلة، ينتمي إلى الولاية أو جزء من الولاية التي يقيم بها، على فريق من ولاية أخرى.

كان رغم قلة ما يحققه من دخل، شديد الإسراف بقدر ما تسمح له موارد زوجته المالية وقدرته على الحصول على المال منها. إذا طال به الملل أثناء ساعات عملها في المستشفى، ركب سيارته للذهاب إلى مجمع المحلات التجارية القريب من

المنزل ليشتري قميصًا أو جاكتة جديدة ليس له أدنى حاجة إليها، إلا مجرد تسلية نفسه بعملية الشراء نفسها. وهو دائمًا وبلا استثناء، يشتري أفخر أنواع الملابس دون أن يكون هناك من المناسبات ما تستدعي ارتداء هذه الأنواع الفاخرة.

كان في الحقيقة يأنف بشدة من أن يظن أحد أنه قليل المال، ومن ثَم فهو دائم التظاهر بغير الحقيقة من حيث مستوى الثراء. يشتري السيارة الفاخرة بالتقسيط، ما دام الناس لا يعرفون أنها بالتقسيط، على أمل أن يربح في يوم ما مبلغًا كبيرًا من ورقة اليانصيب، أو أن تحصل زوجته على مبلغ من المال غير المتوقع من عملها (أو من عمتها الثرية). ركبت معه مرة سيارة لم يكن فيها جهاز لتكييف الهواء، ومع ذلك أصر على ألا يفتح نوافذ السيارة حتى لا يظن أحد من أصحاب السيارات الأخرى، أن سيارته ليس بها جهاز تكييف. لم يكن غريبًا إذن، وإن كانت مفاجأة غير سارة بالمرة، أن نسمع أنه قام برهن المنزل الذي يملكه هو وزوجته (واشترياه بأموال زوجته بالطبع) ليحصل بسرعة على مبلغ من المال يسدد به بعض ديونه. وسرعان ما فقدا ملكية البيت بأكمله.

كانت زوجته متوسطة الجمال والذكاء والحيوية، وإن كان لها جَلد عظيم على العمل في وظيفتها كممرضة، وفي تلبية مطالب البيت ومطالب زوجها ورعاية طفليهما، دون تبرم إلا بما كانت تصارح به والدَيها من حين لآخر عما تعانيه من تصرفات زوجها. ولكن كل هذا الإخلاص في العمل لم ينقذها من الوقوع في ضائقة مالية، سواء قبل أو بعد وفاة الزوج؛ فقد وجدت نفسها عندما توفي زوجها في سن الخامسة والسبعين، وهي في بداية الستينيات من عمرها، وقد تقاعدت عن العمل بعد أربعين عامًا من العمل الشاق والمستمر كممرضة مدربة تدريبًا عاليًا، لا تزال مضطرة لمراعاة الحرص الشديد فيما تنفق عليه دخلها. لقد تركها زوجها وهي تدفع إيجارًا للبيت الذي كانا يملكانه في وقت ما، فلم تحقق الأمل الذي يرنو إليه كل الأمريكيين وهو أن تملك البيت الذي تعيش فيه، واستمرت عاجزة عن تجاوز ما يعتبر من الضروريات في نمط المعيشة الأمريكية، أو أن توفر ثمن تذاكر السفر لزيارة أختها في مصر، أو للذهاب لإنجلترا لزيارة شقيقها كلما واجه مشكلة من المشاكل الناجمة عن الاكتئاب. اضطرت إلى الاكتفاء بمتابعة أخبار

شقيقها بالاتصال التلفوني بزوجتي، ولكن حتى هذه الاتصالات كانت تبدأ عادة من جانبنا، إذ كان عليها مراعاة الحرص الشديد في ضغط نفقات المكالمات التلفونية أيضًا.

انتهى الأمر في حالة كل من الأخ والأخت، بدخول كل منهما بيتًا من بيوت المسنين، الأخ في إنجلترا في إحدى ضواحي لندن، والأخت في أمريكا في إحدى ضواحي لوس أنجلوس. ولا تزال زوجتي تتصل بكل منهما بانتظام تلفونيًّا، وتزورهما كلما استطاعت، كما أصبحت هذه الزيارة من الواجبات العائلية التي يقوم بها أولادي من باب العطف على الخال والخالة، وإرضاء لمشاعرهم.

الباب الثاني

في الصبا والشباب

١

شكرًا لساعي البريد

كم يبدو غريبًا الآن، هذا الذي كنا نفعله ونحن صبية في بداية سن البلوغ والمراهقة، إذ كنا نتبادل الخطابات كلما سافر أحدنا إلى بلد خارج القاهرة، فنكتب خطابات مطولة قد تصل إلى خمس صفحات أو أكثر، ويرد مستلم الخطاب بمجرد قراءته بخطاب لا يقل عنه طولًا.

ما كل هذه العواطف التي لم نكن نخجل من التعبير عنها؟ لا بد أن لسن المراهقة علاقة بذلك، مع حرماننا التام من أي علاقة بالجنس الآخر. كنا إذا التقينا في العطلات، نحن الأربعة أو الخمسة من الأصدقاء الذكور، لا نتصور أن تنضم إلينا فتاة في مثل سننا. مدارسنا كانت للذكور فقط، والبنات مسجونات في البيوت لا يخرجن إلا مع عائلاتهن. والحب الوحيد الذي يمكن أن يحدث هو حب «بنت الجيران»، من خلال النوافذ والشرفات. ربما كان هذا التعبير الصريح عن العواطف بين ذكر وآخر، بديلًا عن التعبير عن مشاعر أخرى مكبوتة نحو الإناث، ولكن مما يستدعي الاستغراب أيضًا الآن، أن كاتب الخطابات كان يتوقع أن تصل هذه الخطابات إلى المرسل إليهم في فترة معقولة، والأكثر غرابة أنها كانت تصل بالفعل، وفي فترة معقولة.

* * *

لا زلت أحتفظ حتى الآن بمجموعة كبيرة من الخطابات التي تلقيتها من أفراد (شلة) الأصحاب التي كانت تجمعنا ونحن في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة من العمر، عندما كنت أقضي الصيف مع أسرتي في الإسكندرية، ومعظمهم قابع في

القاهرة، إما لأن أسَرهم لم تكن قادرة على تدبير نفقات التصييف أو لأسباب أخرى. أقرأ هذه الخطابات الآن (أو بعض خطاباتي أنا التي أعادها إليَّ أحدهم عندما رأى اهتمامي بها)، فأتعجب أيضًا من حجم الفراغ الذي كنا نتمتع به في ذلك الوقت، مما يسمح لنا بكتابة كل هذه الخطابات، فنكتب عما فعلناه أو قرأناه أو ما شاهدناه من أفلام، أو عن تحليل شخصية هذا الصديق أو ذاك، أو عن الشعور بالغضب من أحد الأصدقاء لأنه لم يفعل ما كان من الواجب أن يفعله إذا كان صديقًا حقًّا. وكثيرًا ما كنا نحاول تعريف معنى السعادة والشقاء ومسبباتهما (دون أن نعلم ما كان على الأرجح السبب الحقيقي لشقائنا في هذه السن وهو الشوق إلى الجنس الآخر)، ثم نختم الخطابات بعبارات مؤثرة عن شوق كل منا للآخر.

كنت أعرف أن الخطابات يمكن أن تصل إلى أقصى قرية في مصر، وكثيرًا ما كنت أرى على ظرف الخطاب، خاصة الآتي من الأرياف، عبارة موجهة من مرسل الخطاب إلى ساعي البريد هي «شكرًا لساعي البريد»، وهي عبارة تدل على درجة لا بأس بها من التحضر، فضلًا عن المكانة التي كان يحتلها ساعي البريد في حياتنا في ذلك الوقت بالمقارنة بحاله الآن. مما أذكره أيضًا أن أحد الخطابات التي وصلت إلى أبي ونحن في حي سيدي بشر في الإسكندرية، (وكان مرسل الخطاب أستاذًا جامعيًّا في الكيمياء، ولكنه كان أيضًا يهوى الأدب) كتب مرسله على الظرف بدلًا من سيدي بشر، «السيد بشر»، إذ رفض الأستاذ، فيما يبدو، أن يصف هذا الرجل المبروك، السيد بشر، بأنه سيده.

ظلت الخطابات المرسلة بالبريد تحظى بأهمية كبيرة، وساعي البريد يتمتع بمكانة محترمة حتى ستينيات القرن الماضي، كما استمرت الخطابات هي الطريقة الوحيدة تقريبًا للاتصال مع إخوتي الذين كانوا يدرسون في أوروبا في أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات. لا أذكر مطلقًا أن دق جرس التلفون في بيتنا بالقاهرة لتأتي مكالمة من أحد إخوتي المقيمين في لندن للدراسة، أو من أختي التي كان زوجها يعمل هناك. كان الاتصال التلفوني بين دولة وأخرى ممكنًا تكنولوجيًّا، ولكنه كان مكلفًا للغاية، فضلًا عن أنه كان يتطلب الانتقال من المنزل إلى مكان السنترال والانتظار حتى يحصل عامل السنترال على فسحة من الوقت

تسمح له بأن يتصل بالبلد الذي يريده. ثم لا تستمر المكالمة بعد ذلك إلا دقائق معدودة سرعان ما تنقضي في التعبير عن الأشواق، ثم تنقطع فجأة عندما يخبرك عامل السنترال بانتهاء المدة التي سبق أن حددتها، ثم تعود أدراجك إلى المنزل. كانت كتابة خطاب أسهل بكثير وأرخص، ومن ثَم لم يكن من الممكن لأي دولة، متقدمة أو متخلفة، أن تمتنع عن توفير هذه الخدمة لمواطنيها.

ثم أصيبت عادة كتابة الخطابات في مقتل (أو على الأقل بضربة قاصمة كادت أن تضع نهاية لها)، ليس في مصر وحدها بل في العالم كله، وذلك لسبب تكنولوجي بسيط هو انخفاض نفقة المكالمات التلفونية، أو على الأقل انخفاض نسبتها إلى الدخل انخفاضًا شديدًا. أصبح من الأسهل بكثير، إذا أراد أحدنا الاطمئنان على أحد أفراد الأسرة أو على صحة صديق مقيم خارج مصر، أن يتصل به تلفونيًّا من أن يكتب له خطابًا، بل أصبح هذا هو الطريق الأسهل لمجرد الدردشة، وتبادل الأخبار المهمة وغير المهمة. ساعد أيضًا على تدهور مكانة الخطابات البريدية كثرة وسهولة انتقال الأشخاص، بلحمهم ودمهم، من مكان لآخر، وبين دولة وأخرى. لم يعد السفر، كما كان منذ نصف قرن، ذلك الحدث الحاسم في التفريق بين الناس، والذي يشعر فيه المسافر ومن يفارقهم بأن فرصة اللقاء من جديد بعيدة المنال، إذ تفصل بينه وبينهم البحار والمحيطات التي يستلزم عبورها ركوب السفن والبواخر، فما أكثر ما كان يسيل حينئذ من دموع بالمقارنة بما يحدث الآن في الوداع بالمطارات.

هكذا أخذ الخطاب يفقد أهميته شيئًا فشيئًا، وانتهت ظاهرة انتظار الخطاب على أحر من الجمر، وفقد ساعي البريد ما كان يتمتع به من مكانة، إذ أصبح معظم ما يحمله لنا من خطابات لا يحتوي على أكثر من فاتورة واجبة الدفع، أو إعلانات لترويج سلعة أو أخرى. إني أسأل نفسي كم من الخطابات تلقيتها من ابني المقيم بأمريكا، أو ابني الآخر المقيم في لبنان خلال العشر سنوات الماضية؟ فأجد أن العدد في الحالين يكاد أن يكون صفرًا. وكذلك الحال مع حفيدي الذي يدرس الآن في نيويورك، والذي لا يخطر بباله قط أن يكتب خطابًا لأمه أو أبيه، ناهيك عن جده أو جدته. نعم نحن نعرف أخبار الحفيد والأولاد، بل وبتفصيل أكثر مما كان الحال في الماضي، ولكن عن طريق نوع آخر من البريد، هو البريد الإلكتروني،

الذي قد يصلك عن طريقه في اليوم عشرات الرسائل. لقد ظننا في البداية أن هذا يمثل «ثورة» في الاتصال بين الناس، ويضيق ما بينهم من مسافات، ويزيد من تقاربهم، ولكن الذي حدث كان شيئًا مختلفا جدًّا.

إن سهولة البريد الإلكتروني وسرعته وقلة نفقته كانت نتيجتها أن حل محل العدد المحدود من الخطابات البريدية القديمة، كميات لا نهائية من الرسائل الإلكترونية التي يرسلها كل من هب ودب إلى كل من يُعرف له عنوان إلكتروني. هكذا أصبح المرء يتلقى عن هذا الطريق تهنئة بالعيد، أو إعلانًا عن سلعة، أو مقالًا سياسيًّا، ولكن كواحد من مئات من الناس الذين يتلقون نفس التهنئة أو الإعلان أو المقال في نفس الوقت. وحل محل الخطاب الشخصي الحميم، كلام لا يفرق بينك وبين مئات الناس الآخرين. حل أيضًا محل خطك الشخصي الذي لا يشبهه خط شخص آخر في العالم، حروف يشترك فيها أفراد أسرتك وأصدقاؤك الحميمون مع بائعي السلع.

كذلك فإنه على الرغم من أن البريد الإلكتروني أسهل وأسرع من البريد القديم، فإن هذا لم تصحبه زيادة في الفراغ المتاح لك، ومن ثَم زيادة طول الخطاب أو تحسن في لغته، بل صاحبه ميل للاختصار وإحلال الحروف الأولى محل الكلمات الكاملة.

كان من الممكن أن نتصور أن كثرة الرسائل الإلكترونية سوف تؤدي إلى قدر أكبر من الزهد فيها، وانخفاض درجة الاهتمام بوصولها. ولكن يبدو أنه قد حدث العكس، فقد لاحظت على أحفادي حرصهم المستمر على الكشف، عبر فترات قصيرة جدًّا، عما يكون قد ورد إليهم من رسائل جديدة، فيفتحون جهاز الكمبيوتر أو تلفونهم المحمول أثناء جلسة عائلية أو حتى أثناء تناول الطعام، على أمل أن يجدوا رسائل جديدة، مما ذكرني بفرحنا بوصول ساعي البريد في الأيام الغابرة، وتلهفنا على معرفة ما قد يحتويه الخطاب من أخبار أو تعبير عن عواطف جياشة. يبدو إذن أنه مهما تطورت التكنولوجيا فسنظل دائمًا نحمل هذا الأمل الغامض بأن نتلقى خبرًا سعيدًا لا نعرف كنهه بالضبط، أو أن يعبر شخص ما، لا نستطيع التنبؤ من يكون، عن عاطفة قوية نحونا بالحب أو المودة.

٢

الحياة الحلوة

لا أستطيع أن أتذكر كيف تعرفت عليه لأول مرة، ولكني كلما تذكرته، سواء قبل وفاته أو بعدها، ينتابني دائمًا شعور قوي نحوه، ولم يتغير قط إعجابي الشديد بشخصيته وظرفه وذكائه وجمال روحه.

تخرج مثلي في كلية الحقوق، ولكني لم ألتقِ به في الجامعة، فهو يصغرني على الأقل بخمسة أعوام. كان صديق مشترك قد عرفني به قبل سفري إلى البعثة في إنجلترا، فلما التقيت به في لندن في سنوات البعثة كنت أعتبره صديقًا، وقد جاء مثلي للالتحاق بجامعة لندن للحصول على شهادة الماجستير فالدكتوراه. ما أكثر الأمسيات السارة التي قضيناها معًا هناك قبل زواجه، ثم بعد أن ذهب إلى مصر وعاد متزوجًا من ابنة خالته التي كان قد وعدها بالزواج قبل سفره. لا زلت أذكر يومًا زرته فيه في بيته بالهرم قبل سفره إلى لندن، ويصعب عليَّ نسيان ذلك اليوم، لأنه كان جديدًا عليَّ من أكثر من ناحية.

كان أبوه محاميًا شهيرًا يعرف الجميع كفاءته الفائقة كمحامٍ، والتي جعلت كثيرًا من الشركات الكبيرة والسفارات تختاره محاميًا لها، مما سمح له بتكوين ثروة كبيرة، وكان من بين ممتلكاته مساحة كبيرة من الصحراء على الطريق بين القاهرة والإسكندرية نجح بذكائه وطموحه وجرأته، في استصلاحها وتحويلها إلى مزرعة جميلة منتجة للفواكه ومدرة لربح وفير، قبل أن يفعل هذا كثيرون من بعده. كنت أتذكر هذا الأب كلما مر على خاطري اسم «جوزيف شومبيتر»، الاقتصادي

الشهير، وصاحب الكتاب المعروف عن التنمية الاقتصادية التي يجعل محورها ومحركها «رب العمل»[1] حتى اقترن اسمه دائمًا بـ«رب العمل». اشتهر وصف «شومبيتر» لرب العمل وتحليل خصائصه النفسية، وكانت هذه الخصائص النفسية هي ما أتذكره عندما أتذكر والد صديقي هذا: قوة الشخصية، الطموح الشديد، روح المغامرة والرغبة في اقتحام الجديد وتجريب غير المألوف، الذكاء اللازم للنجاح في هذه المغامرة، إصراره وتشبثه برأيه وعدم التراجع أمام الصعاب التي قد تواجهه، وتكرار المحاولة حتى ينجح. بالإضافة إلى ذلك طموحه لأن يشيِّد ما يشبه «المملكة»، أو «الأسرة الملكية»[2]، حيث يتيح لأولاده في حياته أقصى مستوى ممكن من الترفيه والراحة، وأن يضع لهم أسس التقدم المادي المستمر في المستقبل. لمست هذا عندما رأيت والد صديقي وهو جالس أمام حمام السباحة في هذه المزرعة الجميلة، وحوله مجموعة من الفيلّات الصغيرة التي يسكن إحداها ويسكن الفيلَّات الأخرى أولاده المتزوجون، ثم يجتمعون كلهم، الآباء والأولاد والأحفاد، في الحديقة حيث ينعم الجد المؤسس للمملكة برؤية أولاده وأولادهم يمرحون ويضحكون حوله، ثم وهم يقفزون إلى حمام السباحة، وراضيًا عن نفسه إذ أتاح لهم، بجهده ومغامرته، كل هذا الاستمتاع بالحياة.

كان صديقي أحد هؤلاء الأولاد. فلما زادت معرفتي به، رأيت فيه ما أعتقد أنه لا بد أن ورثه عن أبيه: هذا الطموح إلى تأسيس «مملكة»، وإتاحة هذا النعيم لأولاده وأولادهم، مثلما فعل أبوه، مقترنًا بحب قوي لهم، لا يجد مانعًا من التعبير لهم عنه باستمرار، بعبارات لا يمكن أن تستهجن عاطفيتها الشديدة، بسبب ما يظهر فيها من صدق، فيبادله ابنه وابنته نفس العواطف بعبارات مشابهة.

كان صديقي بالإضافة إلى ذلك بالغ الوسامة، وعلى درجة عالية من الأناقة، سمح له بها دائمًا دخله المرتفع. كان أيضًا محبًّا للنكتة، فلا يعجز قط عن العثور على تعليق لطيف على أي موقف، يقرنه بنكتة صغيرة أكثر لطفًا، يتبعها استغراق مُعْدٍ في الضحك مع من حوله. كانت صحبته إذن شيئًا سارًّا دائمًا، حتى عندما

---

(١) Entrepreneur

(٢) Dynasty

يوجد ما يقلقه أو يحزنه، إذ لم يكن يستطيع منع الابتسامة من الارتسام على وجهه، ولا يحب أن يشغلك أكثر من اللازم بما يقلقه.

فوجئت مرة باكتشاف خصلة أخرى من خصاله، لم أكن قد تعرفت عليها بعد، وكنت أظن أنها لا توجد فيمن اعتاد هذه الدرجة من الترف والنعيم، وهي الشهامة والاستعداد الكامل للتضحية بالجهد والوقت، لخدمة صديق يمر بمحنة من أي نوع.

كانت المحنة التي أقصدها تتعلق ببستاني طيب، عمل في خدمتي سنوات كثيرة، وأثار دهشتي وإعجابي بجَلده غير المألوف في كل ما يتعلق بتربية أولاده. كان لديه ستة أولاد، يرسل أحدهم إلى المدرسة، فإذا نجح وأفلح فيها، فعل كل ما في وسعه لكي يستمر الولد في الدراسة أملًا في أن يدخل الجامعة، مما كان لا يزال أمرًا غير مألوف لأبناء طبقته في تلك الأيام. ولكي يتمكن من تحقيق هذا الهدف، كان يصر على أن يشتغل الولد التالي بعمل يكسب منه ما يزيد دخل الأسرة، كأن يعمل بستانيًّا مثله في بيت قريب، على أن يجرب حظ الولد الثالث في المدرسة.. وهكذا.

حقق الابن الأكبر لهذا البستاني أمل أبيه في أن يستمر في الدراسة بنجاح حتى وصل إلى السنة النهائية في المدرسة الثانوية، مما يبشر بمستقبل باهر إذا نجح فيها أيضًا ودخل الجامعة. كان هذا مثار فخر عظيم للأب وأسرته، من شأنه أن يرفع مقامه بين سكان الحارة التي يسكنها. إلا أن جارًا له كان يكنُّ له، بسبب ذلك، غيرة وحقدًا شديدين، إذ لم ينجح أحد من أولاده في الاستمرار في الدراسة فاشتغلوا جميعًا بأعمال يدوية.

جاءني البستاني في أحد الأيام في حالة يرثى لها من البؤس والإحباط، وأخبرني أن ابنه هذا الذي يوشك أن يدخل امتحان الثانوية العامة، محبوس الآن في قسم الشرطة بالمعادي، إذ اتهمه هذا الجار الغيور بتهمة ظالمة عقوبتها السجن لعدة سنوات. أنكر ابن البستاني ذلك، وأصر الجار على أقواله، فقُبض على ابن البستاني تمهيدًا لمحاكمته. كان معنى صدور حكم بالسجن على هذا الشاب انهيار آمال أبيه وأسرته كلها، وضياع كل ما بذله من أجل تعليمه من تضحيات، وكأن عمره كله قد راح سدًى.

كان صديقي الذي أتكلم عنه قد اشتغل بعد تخرجه بالمحاماة في مكتب أبيه، فاتصلت به وشرحت له قصة البستاني وابنه، فقال إنه سيحضر يوم المحاكمة، ولكنه يريدني أيضًا أن أكون حاضرًا للشهادة، وطلب مني أن أشهد أمام القاضي بمزايا الشاب المحبوس وأشيد بأخلاقه. وذهبنا إلى المحكمة للقيام باللازم. كانت المحكمة في حلوان، وفوجئت بجمهور غفير من الناس، واقفين بجوار سور المحكمة، رجال ونساء قرويين من مختلف الأعمار، سرعان ما تبينت أنهم جميعًا من سكان قرية البستاني وأقاربه، جاءوا ليشدوا أزره في محنته.

تعمد صديقي المحامي أن يشيد بي وهو يقدمني للشهادة أمام القاضي، وأكد على أني أستاذ بكلية الحقوق (قاصدًا بالطبع أن أستاذًا في كلية الحقوق لا يمكن أن يكذب). وقد نجح في مسعاه، وصدر الحكم بالبراءة، وخرج الشاب فورًا من محبسه ليستقبله الجمهور الغفير بالزغاريد والتكبير والتهليل. ثم جاءني البستاني في اليوم التالي ليسأل عن عنوان صديقي ليقوم بشكره ويرد له الجميل بالطريقة الوحيدة المتاحة له، وهي أن يأخذ له سلة كبيرة من الفطير المشلتت من قريته، مع الزبد والبيض.

لم أكن أنا أحمل مودة زائدة لهذا الابن الأكبر من أولاد البستاني، ولكني أيضًا لم أكن أبغضه. لم يكن ظريفًا أو ذكيًّا بدرجة ملحوظة، بعكس أخيه التالي له مباشرة والذي كان أذكى منه كثيرًا وأظرف، وإن كان حظ هذا الأخ الأصغر، نظرًا لترتيبه بين الأولاد، قد فرض عليه عدم إتمام الدراسة والاشتغال بدلًا من ذلك مساعدًا لأبيه كبستاني صغير. أما الابن الأكبر، بطل هذه القصة، فقد جلس لأداء امتحان الثانوية العامة، ونجح فيه، ثم دخل الجامعة وتخرج منها، بل وحصل على بعثة لإكمال الدراسة في أوروبا، فسافر إليها مع زوجته وطفله، وعاد حاملًا للدكتوراه، واشتغل بالتدريس في الجامعة.

* * *

لنعُد الآن إلى صديقي المحامي. لم يقتنع أبوه باشتغال ابنه في مكتبه دون أن يحصل على شهادة أكبر من جامعة أكبر. فأصر على أن يذهب إلى جامعة لندن للحصول على الماجستير والدكتوراه في الاقتصاد، ورتب له مكانًا في إحدى كلياتها بمساعدة صديق إنجليزي له يعمل أستاذًا في هذه الكلية.

قابلت صديقي من جديد في لندن، عندما جاء للدراسة، وكنت أنا على وشك الانتهاء من دراستي فيها. كان سعيدًا مرحًا كعادته وإن لم ألاحظ منه أي حماس حقيقي لمواصلة الدراسة، وخطر لي أنه لم يفعل هذا إلا إرضاء لطموحات أبيه. كان من الواضح أنه يفتقد نوع الحياة التي تركها وراءه في مصر: ذلك النعيم المبهر الذي لمسته بنفسي عند زيارتي لأسرته في مزرعة الهرم، مما يذكر المرء بلا شك بما كان يعنيه تعبير «الحياة الحلوة» في الفيلم الإيطالي الشهير والذي يحمل هذا الاسم. لقد رأى الحياة في إنجلترا مبهجة أيضًا، وقد استمتع بها تمام الاستمتاع، ولكن أين هذا من رغد العيش الذي تتمتع به الطبقة العليا في مصر، وما تهيئه من خدم وحشم، ولقاءات عائلية لا تنقطع، وصحبة الأصدقاء الذين يتوفر لهم من ساعات الفراغ ما لا يمكن أن يتوفر لإنجليزي الآن، أيًّا كانت طبقته الاجتماعية؟

لم يبذل صديقي الجهد الكافي للنجاح في أول امتحان أداه في لندن، رغم ذكائه وتوقد ذهنه، إذ لا بد أنه شعر بأن الأمر لا يستحق كل هذا العناء. فلما ظهرت النتيجة بالرسوب، أخبرنا ببعض الأسف، ربما كان يخفي وراءه شعورًا بالارتياح، بأن الأستاذ الإنجليزي، صديق أبيه، نصحه بلطف بأن يعود إلى ما اعتاد عليه في مصر من نمط الحياة، مما كان يعرفه أيضًا الأستاذ الإنجليزي معرفة جيدة.

عاد صديقي إذن إلى القاهرة، ووجدته لدى عودتي شابًّا سعيدًا لا تفارقه كالعادة ابتسامته المحببة، وقد نجح في توفير كل عناصر «الحياة الحلوة» التي نشأ وترعرع في ظلها، وأتاحها أيضًا لأولاده. كان يعشق بوجه خاص لعبة البريدج التي مكنه ذكاؤه من أن يبرع فيها، إلى حد أنه كان يُدعى للاشتراك في مسابقات دولية تقام لها، ولكنه استمر يعمل بالمحاماة في مكتب أبيه، وقام بأعبائه كاملة بعد وفاة الأب، ونجح فيه مثلما نجح والده، واستطاع أن يكتسب مودة واحترام كل ممثلي الشركات والسفارات التي كان أبوه يحمل توكيلات فيها، فاستمر قادرًا على تحقيق الدخل الوفير لأسرته ولأولاده بعد زواجهم.

* * *

كنت أجد في هذا الموقف من الحياة، الذي لمسته أولًا لدى والد صديقي، ثم رأيته في صديقي ثم في أولاده، درجة عالية من الجاذبية، ولكني لا أنكر أني كنت أشعر أيضًا بأنه موقف لا يخلو من الشوائب. فمما سمعته من أخبار أبيه، مما يلقي ضوءًا على شخصيته ونظرته للحياة، أنه كان أحيانًا مستعدًّا للذهاب لأبعد مما يجب من أجل تحقيق آماله لنفسه وأسرته ومملكته، ولو تطلب هذا تصرفات تنطوي على قسوة زائدة أو مجافاة للعدل. (مما يتفق أيضًا، فيما أظن، مع الصورة التي كان يتخيلها «جوزيف شومبيتر» لـ«رب العمل»). ولكني لم ألاحظ شيئًا من هذا في سلوك صديقي.

كان مما قوَّى لديَّ الشعور بأن الحس الأخلاقي أقوى لديه مما كان لدى والده، أنه عندما اشتد غضبنا على الولايات المتحدة لهجومها على العراق في سنة ٢٠٠٣، قرأت إعلانًا كبيرًا في الجريدة اليومية المصرية بأن صديقي هذا، باعتباره صاحب مكتب المحاماة الشهير، قرر قطع أي علاقة بينه وبين الشركات الأمريكية التي كان يقوم بتقديم الخدمات القانونية لها، احتجاجًا على تصرف الحكومة الأمريكية.

* * *

كانت صدمة كبيرة لي عندما سمعت بمرض صديقي بالكبد ثم وفاته، ولكنه حتى في أسابيعه الأخيرة، كان يتصل بي أحيانًا تلفونيًّا، وهو يتظاهر بأن مرضه بسيط وسرعان ما يشفى منه، ويقول إنه سيرتب جلسة رائعة في بيته لي ولأصدقائنا القدامى، ثم يلقي إليَّ، وهو مستغرق في الضحك، بنكتة جديدة أعجبته فأجدها تستحق الإعجاب بالفعل.

مات صديقي قبل أن يبلغ الستين، وظللت أتابع من بعيد أخبار أسرته، وكنت كلما قابلت ابنه وابنته وأولادهما، وجدت فيهم كلهم نفس اللطف والعاطفة والكرم، مما ورثوه بلا شك عن الأب، وسرني أن أجد أن الابن سمى الحفيد باسم جده.

فوجئت بعد وفاة صديقي ببضع سنوات بمَن يخبرني أن والدته لا زالت على قيد الحياة، وقد قاربت سنها المائة عام، ولكنها لحسن الحظ لم تعلم بوفاته، إذ كانت قد ضعفت قواها العقلية في السنوات الأخيرة فسهل إخفاء الخبر عنها.

لم أكن قد قابلت والدته قط، رغم أني سمعت عنها الكثير؛ سمعت أنها سيدة رائعة الخُلق وواسعة الثقافة، وتعيش عيشة أقرب إلى التصوف، ولا تتناول أي نوع من اللحوم، وتمارس رياضة اليوجا. قلت لنفسي إن شخصية صديقي لم تكن إذن نتاج الوراثة من الأب وحده. ربما ورث عن الأب صفات «رب العمل» المجتهد والمغامر والطموح إلى تكوين «مملكة»، ولكنه لا بد أيضًا أن ورث عن أمه تلك الصفات الرائعة التي جعلته يبدو لي دائم الشباب، ويظفر بهذا القدر من السعادة ومن محبة الجميع.

٣
مثقف لوجه الله

كان زميلًا لأخي حسين في كلية الحقوق، فهو يكبرني بثلاث سنوات. حصل بمجرد تخرجه على وظيفة بمجلس الدولة، وظل فيه دون أن يفكر قط في أن يبحث عن وظيفة أخرى حتى أحيل إلى المعاش.

تعرفت عليه من خلال أخي حسين فأصبحنا صديقين، وعلى الرغم من السنوات الكثيرة التي انقضت ونحن في بلدين مختلفين: أنا في البعثة في إنجلترا وهو في مصر في مجلس الدولة، أو أنا في الكويت وهو أيضًا في مجلس الدولة، ثم وهو في الكويت بعد خروجه على المعاش وأنا في مصر، إلخ، ظللنا على اتصال دائمًا ولو عن بُعد، يعرف كل منا بالضبط ما حدث للآخر، فإذا تقابلنا بعد فراق طويل، كنا كمن لم يفترقا قطّ، ويجد كل منا من الآخر، محبة حقيقية واشتياقًا إلى متابعة ما تركناه من حديث.

بعد أن توثقت معرفتي به توصلت إلى قرار لا شك فيه هو أنه «المثقف بامتياز». إني أجد من الصعب تعريف المثقف، ولكني كلما فكرت في هذا الصديق أتساءل: هل أعرف أحدًا ينطبق عليه وصف المثقف أكثر مما ينطبق على صديقي هذا؟ كان واسع المعرفة بلا شك، وفي مختلف فروع الثقافة، من التاريخ إلى الأدب، إلى السياسة والاقتصاد، إلى الموسيقى وسائر الفنون، إلخ، بل ويفاجئني أحيانًا بمناسبة الكلام عن مرض ألمَّ بي أو به، بأن يصدر منه كلام علمي مستخدمًا بعض المصطلحات الطبية التي أجد صعوبة في تذكرها. ولكن ليس لهذا السبب أصفه بأنه «المثقف بامتياز»، ولا لأنه قارئ نهم، يقضي الساعات في بيته، وحتى على

سريره بمجرد الاستيقاظ، يقرأ في كتاب أو مجلة أو صحيفة، وفي المكتبات مكتشفًا لأحدث الكتب أو باحثًا عن كتاب يكون قد سمع عنه مؤخرًا ما يدل على أهميته. الأهم في رأيي من هذا وذاك أن عقله دائم النشاط بحثًا عن الموقف الأمثل في قضية فكرية أو أخرى، وما أسرع ما يحوِّل أي موضوع يذكَر أمامه إلى قضية فكرية، بنفس السرعة التي يحول بها معظم الناس أي قضية فكرية إلى موضوع عادي. وهو في هذا الانشغال بالقضايا الفكرية مخلص تمام الإخلاص، لا تجد في كلامه أي شبهة للتظاهر والتكلف، فهو لا يهمه أن تدرك سعة ثقافته، أو أن تعرف أنه قرأ هذا الكتاب أو سمع عن هذه القطعة الموسيقية قبلك. المهم عنده هو القيمة الذاتية للكتاب أو للقطعة الموسيقية، وأن يرى علاقة الفكرة أو العمل الفني بموضوع آخر يهمه أو يهمك.

اكتشفت أيضًا أنه لا يقرأ ليكتب، كما يفعل كثير من المثقفين، بل يقرأ ليعرف، وهذا شيء أندر بكثير مما نظن؛ فالمعرفة في نظره هدف في حد ذاته وليست وسيلة لشيء آخر. وهو قادر، فضلًا عن ذلك، على الربط بين ما يرِد إلى ذهنه من معلومات جديدة وبين ما كان يعرفه من قبل. فإذا تكلم عن هذه المعلومات الجديدة وصلت إليك مختلطة بعصارة فكره، ومقترنة بموقف المؤيد أو الرافض بعد أن يطرح منها جانبًا ما لا يستحق أن يبالي به.

لهذا كنت أحب تبادل الحديث معه، ربما أكثر مما أحب ذلك مع أي شخص آخر. وكنت دائمًا أجد الفارق شاسعًا بينه في هذا الصدد وبين أي مثقف آخر عرفته. فما أكثر مَن عرفت من مثقفين يحولون أي قضية يدور حولها الحديث إلى مناسبة للفخر بأنفسهم بطريقة صريحة أو مستترة، أو يسرعون إلى ربطها بحادثة وقعت لهم فيطيلون الكلام عنها دون أن يكون لها مغزى حقيقي، أو يجدونها مناسبة للدفاع عن موقفهم الأيديولوجي أو السياسي، أو يرددون رأي شخص مشهور فيها، أو يكررون مواقف أو آراء معروفة وسبق أن قيلت مرارًا وتكرارًا، إلخ.

ولكن صديقي هذا لديه، فوق هذا، حس أدبي يجعله لا يمانع بالمرة من ربط الموضوع العام بحادثة فردية طريفة وقعت له أو لشخص يعرفه، فيضفي على الموضوع الجاد ظرفًا وحميمية. وهو منتبه لكل ما تقول عسى أن يكون فيه

ما يستحق الاهتمام والتفكير، ومن ثَم فهو مصغٍ جيد جدًّا، مع ندرة هذه الصفة أيضًا. والإصغاء الجيد يجعله يدهشك بتذكره لحادثة صغيرة أو خبر صغير تكون قد ذكرته له منذ فترة طويلة وتظن أنه لا بد أن نسيه. لا عجب أن الحديث معه يمكن أن يستمر ساعات دون أن يعتريك الملل، ودون أن يبدو عليه هو أيضًا أنه قد اعتراه الملل. وهو شيء نادرًا ما صادفته في أي شخص آخر.

لا أعرف بالضبط كم كانت درجة ثرائه، وما إذا كان لديه مدخرات كبيرة أو صغيرة. كان من أسرة متوسطة لم تذق شظف العيش قط، وكان أبوه موظفًا محترمًا في الحكومة، ذا دخل يكفي لتهيئة حياة مريحة لأسرته وللسكنى في بيت مريح في حي راقٍ. قضى صديقي سنوات دراسته دون أن يصادف أي صعوبة، ولكن دون تحقيق تفوق استثنائي عند التخرج، إذ لا بد أن اهتماماته الفكرية المتعددة قد منعته من توفير الوقت اللازم لهذا التفوق. ثم ظل قانعًا بمرتبه في مجلس الدولة، وهو مرتب محترم ولكنه لا يسمح لمن يكتفي به بترف زائد. لم ألاحظ عليه أي إسراف في الإنفاق، بل ربما بدر منه ما يدل على الحذر والحرص على ألا ينفق المال فيما لا يستحق، ولكني كنت أشعر ببعض الدهشة، إذ ألاحظ حسن اختياره لما يرتدي من ملابس، حتى في المناسبات التي لا تتطلب اهتمامًا خاصًّا بالمظهر. فالألوان دائمًا متناسقة، وإذا كانت الكرافتة والجاكتة مناسبَتين ارتداهما حتى ولو لم تكونا ضروريتين. بل لفت نظري أيضًا أنه الوحيد من بين شلة الأصدقاء الذي كان يتابع أحدث التطورات التكنولوجية في بعض السلع إذا كانت تلبي اهتماماته الثقافية بدرجة أكثر كفاءة. فهو يقتني جهازًا للتسجيل أو لسماع الأسطوانات قبل أن نكتشف وجود هذا النوع من الأجهزة، وقبل أن نقتنيه نحن بسنوات. وهو أول من اقتنى منا سيارة، وإن لم تكن إلا سيارة «رمسيس»، وكانت أرخص سيارة متاحة في مصر في ظل اشتراكية الستينيات، ومن ثَم كنا نتندر بضعفها وكثرة مشاكلها. ثم فاجأنا مرة أخرى في الستينيات أيضًا حين أعلن لنا أنه ذاهب في رحلة لرؤية معبد «أبو سمبل» قبل أن تضيع فرصة رؤيته في مكانه الحقيقي، أي قبل أن يجري تفكيكه ونقله شمالًا بسبب إغراق بحيرة ناصر لموقعه ببناء السد العالي.

أذكر أنه سافر معي إلى بورسعيد مع صديقين أو ثلاثة في يناير ١٩٥٨، لتوديعي وأنا أستقل الباخرة في بداية بعثتي الدراسية إلى إنجلترا. ولا أذكر أننا تبادلنا أي رسائل طوال الست سنوات التي قضيتها هناك. فلما عدت في ١٩٦٤ عدنا إلى اللقاء المنتظم كما كنا قبل البعثة، وحكى لي تطور موقفه من نظام ثورة يوليو بعد أن زاد الطابع البوليسي للنظام، وكيف بدأ يفقد ثقته فيه حتى من قبل وقوع هزيمة ١٩٦٧. كان قد تزوج أثناء غيابي في إنجلترا من فتاة مثقفة ورائعة الجمال، وعندما داعبه أحدنا بسؤاله كيف استطاع أن يحقق هذه الزيجة الممتازة، اقتطف لنا ضاحكًا المثل الشعبي الذي يقول: «إن عشقت اعشق قمر، وإن سرقت اسرق جمل».

* * *

كنت بعد عودتي من البعثة كثير السفر إلى إنجلترا لقضاء جزء من العطلة الصيفية مع زوجتي الإنجليزية ووالديها، وراعني أن أعرف أن هذا الصديق لم تطأ قدمه قط أي بلد خارج مصر، وهو الذي يكاد يعرف الشوارع الرئيسية في لندن وباريس دون أن يراهما، من كثرة ما قرأ من روايات تدور أحداثها هناك. كان من الواضح لي أنه غير قادر على السفر في ظل القيود المفروضة على تحويل الجنيه المصري إلى عملة أجنبية، فضلًا عن أنه لم يكن من السهل عليه توفير المبلغ اللازم حتى بالجنيهات المصرية. عرضت عليه قرضًا بالجنيه الإسترليني يمكنه من السفر إلى إنجلترا أثناء وجودي هناك، فقبل مسرورًا، وسرَّني أن أشاهد ذهوله وعدم تصديقه وهو يرى كليات جامعة «كامبردج» ومعمارها البديع. وأذكر أني استعجلته مرة وهو يتأمل كنيسة كلية الملك، التي بناها «هنري الثامن»، مبهورًا بجمالها، محاولًا لفت نظره إلى أنه لا يزال أمامنا الكثير مما تجب رؤيته، ولا نستطيع أن نقضي من الوقت أكثر من ذلك في التفرج على كلية واحدة، فأجابني بإجابة ظلت عالقة بذهني حتى الآن لأن بها قدرًا من الحقيقة: «ليه أنت دائمًا بتلهث بالشكل ده؟». كانت زيارته الأولى هذه لإنجلترا بداية لرحلات له لا تنتهي إلى بلد بعد آخر من بلاد أوروبا، وكأنه اكتشف الكنز الذي لم يكن يعرف بوجوده بعد، أو على الأقل لم يكن يعرف أنه يحتوي كل هذه اللآلئ الثمينة. يذهب مرة إلى إنجلترا للتعرف على كنوز السينما العالمية واقتناء ما يستطيع من أفلامها، ومرة يذهب إلى باريس لاكتشاف سر الحي

اللاتيني الذي خلب لب المثقفين من كل مكان، ثم يكتشف أنه لا بد أن يذهب إلى إسطنبول، وكان قد اكتشف حديثًا أهمية تجربة «كمال أتاتورك» ويريد فهم مغزاها بالنسبة لبلد كمصر ورأى أنه لا بد أن يراها «على الطبيعة».

كل هذا وهو لا يكاد يكتب شيئًا. قد تطرأ عليه رغبة في الكتابة عن حقبة معينة من تاريخ الأدب الروسي، أو عن تطور موقف المثقفين المصريين من الحضارة الغربية منذ الطهطاوي، وقد يكتب بالفعل مقالًا طويلًا عن هذا وذاك، ولكنه لم يفعل مثل هذا كثيرًا، إذ إن مستوى الدقة والاستقصاء الذي كان يعتبره ضروريًّا لكي يصبح المقال ذا قيمة، كان عاليًا لدرجة تتطلب منه درجة كبيرة من التأني والبطء في الكتابة، فإذا به قبل أن يفرغ من المقال قد جذبته مشكلة أخرى تستحق التفرغ لها فينسى المقال الذي بدأه.

* * *

قال لي مرة إن زملاءه في مجلس الدولة يندهشون من اهتماماته الفكرية، ومما يسمعون منه أحيانًا من إشارة إلى بعض الكُتاب ممن لم يخطر ببالهم قط أن يقرأوا لهم. لم يكن هو من النوع الذي يحاول أن يلفت أنظارهم إلى ثقافته، ولا كانوا هم ممن يشعرون بأي نقص إذا تبينوا مقدار جهلهم بالمقارنة به، فوظيفتهم هي الاشتغال بالقانون ولا يجب أن يُطلب منهم أكثر من ذلك، وقد ارتاحوا هم إلى الاعتقاد بأن ثقافته الواسعة كانت على حساب قدرته على معالجة المشاكل القانونية التي يتعرضون لها في عملهم. قال لي ضاحكًا إن الحقيقة هي عكس ذلك بالضبط، إذ إن قدرتهم في التعامل مع المشاكل القانونية لا تزيد عن قدراتهم الأخرى. كان من الواضح له أن سبب عجزهم في هذا الأمر هو نفسه سبب عجزهم في الأمور الأخرى. وقد تأكدت له صحة هذه النتيجة عندما عمل لفترة قصيرة في الكويت كمستشار قانوني لإحدى المؤسسات، إذ حدث مرة أن جاء له زميل اقتصادي يعمل في نفس المؤسسة ويعاني مثلما كان زملاؤه في مجلس الدولة المصري يعانون من العجز عن التعامل مع أي مشكلة فكرية، جاءه يستنجد به ليساعده في كتابة مذكرة اقتصادية، فكتبها له وعبَّر له هذا الزميل الاقتصادي عن امتنانه الشديد لإنقاذه من ورطته.

لم يسلبه إذن انشغاله المستمر بقضايا فكرية ذات طابع إنساني، القدرة على حل مشاكل فكرية أصغر، كما أن منطقه الصارم وحياده في الحكم على الأمور لم يضعفا حسه الوطني القوي أو يُقللا حزنه على حال بلده. في أحد المؤتمرات السنوية للاقتصاديين المصريين، التي كانت تعقد في السبعينيات بنجاح كبير وجذبت الكثيرين للحضور من غير الاقتصاديين، ألقيت مرة محاضرة عن الأخطار التي يتعرض لها الاقتصاد المصري من جراء الصلح مع إسرائيل، والتي يمكن أن تترتب على تطبيع العلاقات الاقتصادية معها، وكان قد جاء للاستماع إلى محاضرتي وغيرها. بعد انتهاء محاضرتي، جاء إليَّ ليهنئني عليها، ففرحت بتهنئته أكثر مما فرحت بما جاءني من ثناء من أي شخص آخر، إذ إني أعرف أنه لا يقول إلا ما يعتقده حقًّا. ولكني فوجئت أنه فضلًا عن ذلك قام باحتضاني، وهو شيء نادر جدًّا منه، وقد فرحت بذلك أيضًا وفسرته بأنه يرجع إلى اعتقاده بأني فعلت شيئًا مفيدًا للوطن.

٤

التكفير عن الذنب

تعرفت عليها أنا وزوجتي لأول مرة في القاهرة، قبل أن تستقر هي نهائيًا في إنجلترا. كانت تقوم بتدريس مادة الأنثروبولوجيا في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، بينما كانت زوجتي تدرس للحصول على شهادة الماجستير في علم الاجتماع في نفس الجامعة. كانت مثل زوجتي إنجليزية متزوجة من عربي. وكان الزوج من حضرموت، ولكنه وُلد وترعرع في كينيا، مثل كثيرين من أهل حضرموت. ظل الاثنان، الزوج والزوجة، على علاقة وثيقة بكينيا، حتى بعد استقرارهما في إنجلترا، وظلت هي تعامل أقارب زوجها المقيمين بكينيا معاملة الأقارب المقربين، واستمرت علاقتها الحميمة بهم حتى بعد طلاقها.

كان أكثر ما يلفت النظر فيها، صغر حجمها. كانت رقيقة الملامح لا تخلو من جمال، خاصة شعرها الناعم الطويل، ولكنها لم تكن تجذب النظر بأنوثة طاغية، وبدت وكأنها هي نفسها ضعيفة الشعور بأنوثتها. لم أرَ قط على وجهها أي طلاء من أي نوع، كما كانت ملابسها فضفاضة دائمًا تُخفي معالم جسمها، ومع زيادة معرفتي بها وجدت أن هذا الإخفاء المتعمد لأنوثتها يتسق تمامًا مع بقية صفاتها.

كانت في حديثها لكنة واضحة اكتسبتها من المنطقة التي جاءت منها من إنجلترا، ولم تكن هذه اللكنة تخلو من جاذبية، وكذلك ما في صوتها من بعض الخشونة، مثلما يضفي الشعر القصير جدًّا على بعض النساء درجة من الأنوثة. ولكنها بلا شك لم تكن تعي ذلك، ولو وعته لخجلت منه ولحاولت إخفاءه. كانت تتسم أيضًا بدرجة

عالية من الحياء. وإن لم يمنعها هذا الحياء من التعبير عن أفكارها بقوة وبلا تردد. وإنما كان فقط يمنعها من الإساءة لشعور أي شخص، وكثيرًا ما كانت تلجأ للنظر بعيدًا أو إلى الأرض لكتم عواطفها، إذا حدث وخشيت أن يتضح استياؤها من قول أو عمل سمعت به.

كل هذا كان يبدو لي متسقًا تمامًا مع ما لاحظته منها من شعور قوي جدًّا بالواجب، وبدرجة غير مألوفة. لم تكن رغباتها الشخصية أو ميولها الخاصة هي التي تحدد سلوكها، بل فقط ما إذا كان العمل واجبًا عليها، من الناحية الأخلاقية، أو غير واجب. ويبدو أن قائمة الواجبات التي كانت تشعر بالالتزام بها طويلة للغاية. أذكر مرة أثناء إقامتها بالقاهرة، أنها ذهبت للتدريس في الجامعة وهي مريضة جدًّا وبدرجة حرارة مرتفعة؛ إذ لم تتصور تغيبها عن المحاضرة دون أن يكون الطلبة قد أخطروا بذلك من قبل بوقت مناسب. كذلك كان هذا الشعور القوي بالواجب يظهر في اتخاذها قرارًا بالسفر من إنجلترا إلى كينيا لحضور مناسبة أو أخرى، كزواج أو مولد طفل، تتعلق بإحدى قريبات زوجها السابق. ثم ظهر هذا الشعور بالواجب لدرجة كان من الصعب عليَّ التجاوب معها، عندما اتخذت تلك القرارات المدهشة بتبني طفل بعد آخر من أطفال كينيا، وأخذتهم للعيش معها في إنجلترا عندما استقرت للتدريس في إحدى جامعاتها.

كان من الواضح من البداية حبها الشديد للأطفال، فلا بد إذن أن كان تحققها من عجزها عن الإنجاب صدمة بالغة القسوة، تزيد في قسوتها عن قرار زوجها بتطليقها لنفس السبب، ولكني واثق من أنها لم تكن لتهجره لأي سبب طالما كان هو راغبًا في استمرار الزواج. كان شعورها «بالواجب» لا بد أن يمنعها من هذا أيضًا. فلما حدث الانفصال (الطلاق) لم يكن فقدان الزوج هو الذي نغص عليها بل صعوبة تصوُّر الحياة بلا أطفال.

لم تكتفِ بتبني طفل واحد بل تبنت ثلاثة، وتعمدت أن يكونوا كلهم ذوي بشرة سوداء، لشعورها بواجب عدم التمييز بين الناس بسبب اللون. ولعل شعورًا كهذا كان هو الدافع إلى اختيارها علم الأنثروبولوجيا لدراستها. وأذكر بهذا الصدد أنها عندما جاءت مرة لزيارتنا في القاهرة، في طريق عودتها إلى إنجلترا بعد إقامة

عدة سنوات في كينيا لدراسة نمط حياة إحدى قبائلها، وجلسنا معًا للغداء، كانت تتناول الأرز من الطبق بأصابعها، وقالت ما معناه إنها اقتنعت أنه لا ضرورة بالمرة لاستخدام الملعقة.

كانت تتبنى الطفل بعد ولادته بشهور قليلة، ولكني لا أعرف بالضبط كم من السنوات كان يفصل بين تبنيها لكل طفل وتبنيها للآخرين. كانوا بنتًا وولدين، وكرست حياتها لتربيتهم بالإضافة إلى القيام بواجبها على أكمل وجه في التدريس بالجامعة. كانت تعتقد بلا شك أن هؤلاء الأطفال الذين لا يُعرف لهم أم أو أب، معرضون لحياة بائسة للغاية لولا هذا التبني، وأنهم لو أُعطوا فرصة حياة كريمة ومعاملة إنسانية لأصبحوا مثل غيرهم ممن أسعدهم الحظ بهذه الحياة وهذه المعاملة. كنت أنا دائمًا أميل إلى الشك فيما تستطيع أن تفعله البيئة الصالحة والتربية الجيدة إذا لم يكن لدى الطفل الاستعداد الطبيعي اللازم، إذ كنت أكثر ميلًا دائمًا إلى الاعتقاد بأن للوراثة والجينات أثرًا أكبر بكثير من الظن الشائع. ولكن من الواضح أن صديقتنا الإنجليزية لِم تكن تعتقد ذلك. ثم جاءت النتائج مؤيدة لرأيي ومخالفة لتوقعاتها. فقد سمعنا أن الولدين أظهرا فشلًا في الدراسة، ثم سمعنا أن البنت (أي البنت المتبناة) أنجبت طفلًا أسمر مثلها، ولكنها لا تستطيع أن تحدد مَن هو أبوه، وأسرعت صديقتنا بالتقاط الطفل الذي هجرته أمه، وشرعت هي في رعايته وتربيته مثلما فعلت مع الآخرين.

* * *

كانت زوجتي تتصل بها تلفونيًا، في كل عام، كلما ذهبنا إلى «كامبردج» لقضاء عطلة الصيف، ولاحظتْ زوجتي أنها كانت تعتذر دائمًا عن الاستمرار في الحديث، وتحدد لزوجتي موعدًا آخر لتبادل الأخبار، بسبب انشغالها حينئذ بشيء يتعلق بهذا الطفل الجديد، أي حفيدها بالتبني، فهو إما يتناول طعام العشاء أو يتلقى حمَّامه اليومي، إلخ. ثم قامت هي بزيارتنا في «كامبردج» ومعها الطفل الذي كان عمره حينئذ لا يتجاوز العامين بكثير، وقضيا معنا يومين. كان طفلًا بالغ الحيوية، لا يتوقف لحظة عن الحركة، ويصدر أصواتًا مستمرة تعبر عن سروره أو استيائه من شيء ما، ولكن دون أن يستطيع تكوين عبارات مفهومة. كان وسيم

الملامح ولكنه لم يستطع أن يحصل على تعاطف قوي مني، فاقتصر جهدي على القيام ببعض ما يخفف عن صديقتنا عبئها الثقيل. كم بدا لي الطفل مرهِقًا لمن حوله بحركته المستمرة، وكم تعجبت من قدرتها على الصبر عليه كل هذه الساعات حتى ينام، ناهيك عن تساؤلي عن الدافع الذي يجعلها تفعل كل ذلك من أجل طفل لم تلده، ولا ولدته ابنة أو ابن لها، ولا تعرف له أبًا، ولم يتقدم إليها أحد برجاء أن ترعاه وتربيه. هل هو شعور قوي جدًّا بـ«الواجب»؟ أم هو تكفير عن ذنب لم ترتكبه وتظن أنها ارتكبته؟

٥

أكبر منفعة.. بأقل التكاليف

رغم أني سمعت بمرضه منذ مدة طويلة، فوجئت برؤية خبر نعيه في جريدة «الأهرام»، وكان شعوري لدى رؤية الخبر شعورًا غريبًا للغاية، وكأني لا أصدق أن الموت يمكن أن يصيبه كما يصيب غيره. لهذا قرأت الخبر أكثر من مرة. ودهشت أيضًا لأن الحيز الذي شغله الخبر في الجريدة كان صغيرًا جدًّا لا يليق في نظري بمثله، كما نشر في أسفل أخبار نعي أخرى، بينما كنت أظن أن نعي مثله يأتي عادة في صدر أحد العواميد.

نعم، ذُكر في الخبر أنه كان العميد الأسبق لكلية جامعية، ولكن بقية النعي عادي جدًّا، وأسماء الأقارب المذكورين لا تتجاوز الأربعة أو الخمسة، معظمهم قد توفوا قبله، ولا تُذكر أي وظيفة مرموقة لأي منهم. الأغرب من هذا أن الخبر لا يذكر مكانًا أو تاريخًا لتقديم العزاء، بل يكتفي بالقول بأن الجنازة قد شُيعت بالفعل قبل نشر الخبر بثلاثة أيام، ثم يذكر العنوان التلغرافي لمن يريد أن يرسل العزاء بالتلغراف. هذه إذن هي نهاية هذا الشخص الفريد من نوعه، البالغ النشاط والحيوية والذكاء، والناجح جدًّا في كل ما أراد تحقيقه وخطط له.

عرفته لأول مرة منذ خمسين عامًا، إذ كانت عودته من البعثة في فرنسا، في نفس السنة التي عدت فيها من بعثتي في إنجلترا. كلانا درس الاقتصاد وعاد بالدكتوراه، فأصبحنا عضوين في قسم الاقتصاد، ومن ثَم كان لا بد أن نشترك في أعمال كثيرة، ونُدعى إلى لقاءات ومناسبات تتعلق بعملنا في الكلية، فاكتشفت فيه من الصفات،

ما لم أجده في أي زميل آخر في الكلية، بل ونادرًا ما وجدتها مجتمعة في أي شخص آخر.

خمنت على الفور أنه نشأ في طبقة اجتماعية متواضعة، مما لا يمكن إخفاؤه لا بما يرتديه من ثياب، ولا بإجادته للغتين أجنبيتين، أو تقديره الشديد لعادات الغرب والسلع الآتية منه وولعه باقتنائها. بل لقد فسرت هذا الولع الشديد بمنتجات الغرب بهذه النشأة المتواضعة نفسها، فقد لاحظت على الأخص ولعه الشديد بالأدوات الكهربائية والأوتوماتيكية، التي تجعل المرء يستغني عن بذل جهد عضلي.

لاحظت فيه أيضًا ما كنت أراه في كثيرين ممن نشأ مثل نشأته من اهتمام زائد بجمع المال. لقد وجدت بعض مدرسي وأساتذة الكلية عند عودتي من البعثة من هذا النوع من الناس، مما كان يظهر في اجتماعاتهم التي يتقرر فيها توزيع المقررات، فيوزعونها فيما بينهم حسب ما تدره من دخل على مَن يقوم بتدريسها، وفي موقفهم مما يتقرر توزيعه من مكافآت. رأيت في زميلي هذا نفس ما كان يبديه هؤلاء من اهتمام بكل ما يتعلق بزيادة أو نقص ما يجمعونه من مال. أذكر مثلًا ما بذله من جهد لدى عميد الكلية لكي يقوم دون غيره بتدريس مادة الاشتراكية، عندما تقرر أن تصبح مادة إجبارية في جميع الكليات، وكان هذا يعني القيام بتدريسها في أكثر من كلية، نظرية أو عملية، ومن ثَم توزيع أعداد هائلة من الكتاب الذي يقوم بكتابته وتدريسه.

لم تنقضِ سنوات قليلة على قيامه بتدريس الاشتراكية حتى سمعت أنه اشترى قطعة أرض في العجمي، لا تبعد كثيرًا عن البحر، وبنى عليها فيلًا عظيمة استأجرتها منه في أحد الأعوام لقضاء شهر من شهور الصيف. ثم لم تنقضِ أعوام كثيرة بعد ذلك، حتى سمعت عن شرائه لفيلًا أخرى في المعادي، ثم شقة في المعادي أيضًا، ثم اتخاذه خطوة جريئة لشراء مساحة كبيرة من أرض صحراوية على طريق مصر-الإسكندرية لاستصلاحها، مما كان يتطلب أن تكون له سيارة كبيرة قادرة على السير في الرمال، فاشترى هذه أيضًا.

لم يكن يضيع الوقت في شراء ما لا نفع منه أو لا يُدر المزيد من المال، ولكنه لم يكن يتردد في الإنفاق، بل وإلى درجة البذخ أحيانًا، في مناسبات يعرف أن الإنفاق فيها يمكن أن يسفر عنه حصوله على المزيد من المال. وكان كل هذا يقترن بدرجة

عالية جدًّا من النشاط، فهو يقوم عن طيب خاطر بأي عمل له نتيجة مثمرة في توليد الربح. أذكر مرة أنه عندما تسلم من المطبعة نُسخ كتابه عن الاشتراكية، وكان كتابًا ضخمًا (إذ كانت الجامعة تفرض حدًّا أقصى لثمن الكتاب المقرر على الطلبة يزيد مع زيادة حجمه) اكتشف بعض الأخطاء المطبعية. فإذا به، عندما شرع في إعداد بعض النسخ للإهداء، يمسك بالقلم ويصحح بالحبر كل الأخطاء. لم أكن قد رأيت مؤلفًا يفعل هذا من قبل، وقد رأيت في هذا العمل دليلًا جديدًا على ما يتمتع به من نشاط وسرعة اتخاذ القرار وتنفيذه مهما كان غير مألوف.

انقطعت عني الأخبار عن تطور ثروته منذ أكثر من عشرين عامًا، وهي فترة كافية لمضاعفة الثروة عدة مرات لمن كان له مثل همته ونشاطه وجرأته. قد يتساءل المرء كيف يمكن لشاب عاد من دراسته للدكتوراه بالخارج، دون أن يملك شيئًا على الإطلاق في مصر، أن يتملك بعد عشرين عامًا هذه الثروة الطائلة من العقارات المبنية والأراضي الزراعية والسيارات، إلخ، وهو مجرد مدرس ثم أستاذ بالجامعة لا يشتغل في شركة تجارية أو صناعية، والمفروض أن ينصرف كل همه وتفكيره فيما يُجريه من بحوث أو يعده من محاضرات. بل إنه، بعكس كثيرين من زملائه في الجامعة، لم يسافر قط إلى أي بلد عربي، خليجي أو غير خليجي، ليحصل على مرتب يزيد عدة أضعاف على مرتبه في مصر، بل كوَّن كل هذه الثروة وهو قابع في مصر. لا بد أنه أدرك بذكائه الحقيقة الآتية: أن العمل الإنساني، سواء كان عملًا عقليًّا أو ذهنيًّا، لا يمكن أن يجلب ثروة طائلة، مهما كان نوع العمل، ومهما كانت درجة الكفاءة التي يُؤدى بها، أو البلد الذي يعيش فيه. الربح الكبير يأتي من عمليات التجارة أو المضاربة، ومن الشراء والبيع في الوقت المناسب. لا بد أنه شاهد بداية عصر التضخم في مصر في مطلع السبعينيات، ورأى في التضخم مصدرًا هائلًا للإثراء السريع يفوق ما يمكن أن تجلبه أي وظيفة أو سفر إلى الخارج. وهكذا بدأ في عمليات الشراء ثم البيع ثم الشراء والبيع من جديد، حتى كوَّن لنفسه ولأسرته الصغيرة هذه الثروة الكبيرة.

لفت نظري أيضًا تصرف آخر منه، استغربته في البداية ثم وجدت أنه ينسجم تمامًا مع سائر تصرفاته. كانت مؤسسة «فورد» بالقاهرة قد أعلنت عن منحة يمكن

أن يحصل عليها مدرس أو أستاذ بالجامعة إذا كان لديه مشروع لكتابة كتاب أو بحث، ويحتاج في سبيل ذلك إلى السفر إلى أي بلد آخر خارج بلده، بشرط أن يبرر هذا السفر باحتياجه للوجود خارج بلده لإتمام هذا المشروع. حصلت أنا على هذه المنحة في إحدى السنوات، ثم حصل زميلي هذا على نفس المنحة في السنة التالية. لا أذكر البلد الذي سافر إليه، ولكني عرفت بعد انتهاء مدة منحته أنه قضى السنة في كتابة كتاب جديد من الكتب الدراسية التي يقررها على طلابه وتدر عليه الربح الوفير عامًا بعد عام، دون أن يشرع في القيام بأي بحث مبتكر.

كان على الرغم من هذا الترتيب للأولويات في حياته، أستاذًا محترمًا، يلتزم بواجبات الأستاذ نحو تلاميذه، وكان تلاميذه يحبونه لالتزامه وفهمه الكامل لظروفهم. كان أيضًا يؤمن إيمانًا صادقًا بمبدأ «فلتعشْ ولتترك الآخرين يعيشون»، أو بعبارة أخرى «إني أعرف تمامًا أهدافي، وليس من حق أحد أن يعرقل مسيرتي نحو تحقيقها، ولكني أقدر تمامًا حق الآخرين في أن يسعوا بدورهم لتحقيق أهدافهم دون أن أتدخل أنا في شؤونهم، طالما لا تتعارض مع تحقيقي لأهدافي». كان يغضب بشدة إذا وقف أحد في طريقه، ويقاوم هذا بشدة (وبنجاح في العادة)، ولكنه لا يشعر بأي حسد أو غيظ إذا رأى شخصًا آخر يحقق نجاحًا يفوق نجاحه، طالما أن هذا لم يكن على حسابه. في نفس الوقت، لا أذكر أنه ضحى قط بمصلحة خاصة له في سبيل مصلحة شخص آخر، أو عرض مثل هذه التضحية، إذ إنه لم يكن يرى قط أي مبرر يدفعه إلى ذلك.

* * *

كان بمجرد انتهائه من الدراسة في فرنسا قد تزوج من فتاة ألمانية جميلة، ومتعلمة تعليمًا جيدًا، لا بد أنها كانت تشاركه نظرته للحياة، وربما كان مزاجها الألماني منسجمًا مع نوع طموحاته. فلما جاءا إلى مصر حصلتْ على وظيفة في مدرسة ألمانية بالقاهرة بمرتب لا بد أنه ساهم في الإسراع بتحقيق الهدف، وأنجبا ولدين دخلا المدرسة الألمانية. لم أرَ الولدين قط ولكني لا أشك في أنهما ورثا النجابة عن الأب والأم.

بدا لي من كلامه عن حياته وأسرته أن كل شيء يسير كما يتمناه وخطط له

بالضبط: الولدان يتعلمان في مدرسة ألمانية ممتازة، وزوجته تدرِّس في نفس المدرسة بمرتب جيد، وهم يسكنون شقة رائعة في دور مرتفع في شارع مهم، اشتراها في وقت مبكر قبل أن ترتفع أسعار الشقق في تلك المنطقة بدرجة كبيرة في أعقاب الانفتاح. ثم أقنع مالك العمارة بأن يبادلها بشقة أكبر وأوسع ولها شرفة رائعة في أعلى العمارة. وكان يصف لي ما يشعر به من متعة كبيرة عندما يجلس في هذه الشرفة في إحدى ليالي الصيف ليحتسي البيرة المثلجة.

لهذا دهشت دهشة كبيرة عندما سمعت أن زوجته والولدين تركوا القاهرة واستقروا في ألمانيا. عندما قابلته بعد ذلك وجاء ذِكر أسرته، لم يبدُ عليه أي شعور بالهم أو الاستياء بل برر ما حدث بأسباب عقلانية تمامًا: التعليم في ألمانيا أفضل، والزوجة تستطيع أن تحصل هناك على وظيفة أهم، ومن السهل عليه أن يسافر إليهم عبر فترات قصيرة، ليقضي معهم عطلاته مهما كانت قصيرة. لم يكن من الصعب تبرير هذا الترتيب الجديد باعتبارات يعرفها الاقتصاديون جيدًا ويسمونها «حساب العائد والنفقات»، أي اتخاذ أي قرار طبقًا للفارق بين ما يتطلبه العمل من نفقات (مقدرة بالنقود) وبين ما يتوقع أن يجلبه من منافع (مقدرة أيضًا بالنقود). وقد مرت سنوات كثيرة عرفت بعدها أن هذا الترتيب استمر دون تعديل: الزوجة والولدان في بلد وهو في بلد آخر، وإن كنت لم أتبين ما إذا كان سفره إلى ألمانيا أو حضورهم هم إلى مصر قد استمر على نفس الوتيرة التي شرحها. ثم سمعت أيضًا أنه باع الأرض التي استزرعها بنجاح، وحقق من ورائها ربحًا كبيرًا، وقد برر البيع بأنه تبين أن ابنيه لم يظهرا شغفًا كبيرًا بالإشراف على الأرض. واستمر هو يدرس في نفس الكلية التي بدأ التدريس فيها منذ خمسين عامًا، وشغل فيها لبعض الوقت منصب العميد إلى أن أحيل إلى المعاش.

لم أسمع عنه أي شيء غير مألوف لسنوات كثيرة، حتى قال لي زميل مشترك إنه سمع أنه أصيب بمرض ألزهايمر الذي منعه من التدريس، وإنه يقيم الآن مع أخته التي تسهر على رعايته، وإن أخًا له أصغر منه هو الذي يذهب إلى الكلية في كل شهر ليتسلم مرتبه.

* * *

عندما قرأت النعي المنشور في الجريدة اليومية استرعت انتباهي طريقة كتابة النعي كما سبق أن ذكرت، حيث استُخدمت أقل عبارات ممكنة، فضلًا عن عدم ذكر النعي لإقامة أي سرادق للعزاء بل الاكتفاء بالتعزية بالتلغراف. واستنتجت من ذلك أن النعي لا بد أن كتبته الأخت أو الأخ أو الاثنان معًا دون معونة من أحد، مع توخي، في هذه الحالة أيضًا، تحقيق النتيجة المطلوبة بأقل نفقة ممكنة. أعدت قراءة النعي أكثر من مرة، وكأني أستغرب أن تنتهي حياة هذا الرجل على هذا النحو المبتسر، وأن يأتي نعيه بهذه الدرجة من الاختصار. لقد ذُكر الاسم الأول لكل من الولدين مقترنًا بكلمة «بألمانيا»، دون أن تُذكر لأيهما وظيفة أو شهادة علمية (إذ ما النفع الذي يمكن أن يتحقق بذكر هذه أو تلك؟). ولم يذكر أيضًا اسم الزوجة، ربما بافتراض أنهم، بوجودهم في خارج مصر منذ مدة طويلة، لا يتوقعون أن يقدم لهم أحد واجب العزاء.

الباب الثالث

مشاهير وعظماء

١
سلوا قلبي

كنت في صباي مولعًا أشد الولع بأغاني أم كلثوم. كان اسم أم كلثوم وقتها على كل لسان، ويعتبر ظهور أغنية جديدة لها حدثًا يضارع في أهميته الأحداث السياسية. لا أذكر بالضبط متى بدأ هذا الولع من جانبي، ولكني أذكر جيدًا الأثر القوي الذي أحدثته في نفسي أغنية «سلوا قلبي»؛ إذ أخذتُ أغنيها لنفسي وأرددها، وحفظت كلماتها ولحنها عن ظهر قلب. وعندما اشترى لي أبي كمانًا قديمًا لأبدأ في تعلم العزف عليه، علمت نفسي كيف أعزف مقاطع منها. لم يكن عزفي جيدًا قط بحيث يجذب اهتمام أي فرد في العائلة أو خارجها، ولكن هذا لم يمنعني من العزف لنفسي، ولا بد أني كنت أحصل على درجة كافية من السرور مما أفعل.

أذكر على الأخص رحلة مدرسية لقضاء بضعة أيام في الإسكندرية، وكنا نجلس في المساء في حفلة سمر، وحاولت خلالها أن أغني لهم «سلوا قلبي». وأذكر أن الطلبة والمدرسين رحبوا بأن أبدأ في الغناء (ربما لأنه لم يكن لديهم شيء آخر يريدون عمله). ولكني أذكر أيضًا أني لم أستمر طويلًا، وأن أحدًا لم يعترض على توقفي عن الغناء. عندما أستعيد هذه الذكرى في ذهني أستغرب جدًّا كيف كانت أغنية كهذه تحظى بكل هذا الإعجاب والاهتمام من الناس في ذلك الوقت: اللغة المستخدمة هي اللغة الفصحى، والكلمات صعبة والمعاني عميقة، ومع ذلك كان الراديو ينقل إلينا هتاف وصياح المستمعين معبرين عن إعجاب حقيقي وليس مصطنعًا. ولم تكن هذه ظاهرة استثنائية، بل كانت معاني الأغنيات بصفة

عامة راقية، واللغة المستخدمة في التعبير عنها أرقى كثيرًا من المستخدم الآن في الأغاني أو حتى في الصحف.

* * *

كان الملحن المسيطر على أغاني أم كلثوم، طوال الأربعينيات والخمسينيات (بل يكاد أن يكون الوحيد في ذلك الوقت) هو رياض السنباطي. كنا نعرف سبب احتجاب زكريا أحمد عن التلحين لأم كلثوم، بعد أن كان من أهم الملحنين لها حتى وصل الخصام بينهما إلى حد الالتجاء إلى القضاء. أما محمد القصبجي، فقد توقف عن التلحين لها فجأة بعد نجاح ساحق لأغنية «رق الحبيب» (١٩٤٢)، باستثناء أغانٍ قليلة قصيرة في بعض أفلامها. لم نعرف قط سبب احتجاب محمد القصبجي عن التلحين لأم كلثوم، رغم أنه استمر يجلس خلفها في حفلاتها الشهرية كعازف للعود، وحتى وفاته. لمع إذن اسم رياض السنباطي في تلك الفترة لمعانًا شديدًا، فلحن لها أغنية بعد أخرى، بما في ذلك بعض قصائد أحمد شوقي التي رددها الناس رغم فصاحة كلماتها وعمق معانيها. واستمر إعجابي وغرامي بأغنيات أم كلثوم حتى سفري للبعثة في إنجلترا في ١٩٥٨.

* * *

في الست سنوات التي قضيتها في إنجلترا (١٩٥٨-١٩٦٤) كدت أنسى تمامًا أي شيء له علاقة بالموسيقى العربية. كان من الصعب علينا نحن المقيمين بالخارج، أن نعرف بالضبط ما ظهر من أغانٍ جديدة في مصر؛ فقد كانت محطات الإذاعة المصرية تصل إلينا بصعوبة بالغة، ومشوشة وغير واضحة، حتى ليكاد يستحيل سماع نشرات الأخبار المصرية ناهيك عن الأغاني. كنا نحاول جاهدين أن نستمع إلى خطبة لعبد الناصر نتوقع أن تكون مهمة، فنتحمل في سبيلها تقلب الصوت وما يتعرض له من تشويش. لم نكن قد وصلنا بعد إلى عصر القنوات الفضائية ولا حتى عصر الأشرطة المسجلة على كاسيتات، وكانت النتيجة أن حُرمت طوال وجودي بإنجلترا من الاستماع إلى أغانٍ جميلة لمجموعة جديدة من الملحنين، بينها بعض من أجمل أغاني عبد الحليم حافظ. كما أني لم أفطن إلى أهمية وعبقرية بليغ حمدي حتى عدت إلى مصر في ١٩٦٤، بل ولم أسمع آخر ما لحنه زكريا أحمد لأم كلثوم بعد

انتهاء خصومتهما، وهو لحن يقطر حزنًا وجمالًا («هوَّه صحيح الهوى غلَّاب»)، بل ولا سمعت عن وفاة زكريا أحمد ووفاة بيرم التونسي إلا بعد عودتي.

* * *

عند ركوبي الباخرة المصرية «الجزائر» من «فينسيا» إلى الإسكندرية في ١٩٦٤، عائدًا عودة نهائية إلى مصر بعد انتهاء بعثتي، كانت معي زوجتي وكنت قد تزوجتها بعد حصولي على الدكتوراه بتسعة أيام. كان شوقي لكل شيء في مصر شديدًا بالطبع بما في ذلك شوقي إلى سماع أي أغنية أو موسيقى مصرية. لا عجب أن طرت فرحًا إذ سمعت على الباخرة أغنية عبد الحليم حافظ «قلنا حَنِبني وآدي احنا بنينا السد العالي». كان الفرح والحماس ناتجَين عن مزيج من الانفعال بالموسيقى من ناحية، وبالمعنى السياسي لكلمات الأغنية. وقد يبدو مدهشًا لنا الآن أن يصيب كل هذا النجاح أغنية تتضمن كلماتها عبارات عن «الاستعمار» بل وعن «البنك الدولي» ورفضه تقديم قرض لمصر لبناء السد، إلخ. ولكننا كنا نعيش في تلك الأيام مناخًا مختلفًا تمامًا، جعلني أقوم بحماس بترجمة الأغنية لزوجتي كلمة كلمة، فأصابتها عدوى الحماس لعبد الحليم والسد العالي معًا.

لم أكن أدري حينئذ، بل اكتشفت بالتدريج فيما بعد، أن تلك السنة التي عدت فيها إلى مصر كانت في الحقيقة بداية التحول في هذا المناخ برمته، وأن الثورة المصرية بدأت منذ ذلك الحين تشيخ وتهرم حتى انتهت تمامًا بوفاة عبد الناصر بعد ست سنوات. وقد أصابت هذه الشيخوخة وهذا الضعف الموسيقى والأغاني العربية أيضًا، فإذا بها تدخل مرحلة من التدهور والانحطاط لا زالت مستمرة حتى الآن، بعد مرور أكثر من أربعين عامًا.

كان النجاح السياسي الذي حققته ثورة عبد الناصر وبلغ قمته باتحاد مصر وسوريا في ١٩٥٨، قد بدأ يضعف وينحسر بانفصال سوريا عن مصر في ١٩٦١، وبالورطة العسكرية التي وقع فيها الجيش المصري في اليمن ابتداء من ١٩٦٢، ثم بتلويح الولايات المتحدة في ١٩٦٤ بعزمها على وقف معوناتها الاقتصادية لمصر، وحدث ذلك بالفعل بمجرد انتهاء سنوات الخطة الخمسية الأولى في ١٩٦٥. ثم جاءت الضربة القاصمة بالهزيمة العسكرية واحتلال سيناء في ١٩٦٧. كان من الطبيعي تمامًا

أن تزول رنة الفرح وروح الحماس اللتان اقترنتا بالأغاني والموسيقى المصرية في السنوات الأولى للثورة، ومالت كلمات الأغاني أكثر فأكثر منذ منتصف الستينيات إلى أن تصبح أقرب إلى ترديد الكليشيهات وأقل صدقًا. لم يكن من الممكن مثلًا أن ينتج أحد من الموسيقيين، بعد ١٩٦٥، نشيدًا بمثل جمال نشيد «الله أكبر» الذي لحنه محمود الشريف أثناء معركة ١٩٥٦. ولا بد أن كمال الطويل والموجي قد أصابهما إحباط متزايد منذ ذلك الوقت، كما أصاب بقية المصريين.

من الطريف أن نلاحظ اهتمام حكومة الثورة، بعد عدة نكسات، بإقناع أم كلثوم وعبد الوهاب بالاشتراك معًا في عمل فني واحد، وهو ما بدا مستحيلًا قبل ذلك. كان كل من أم كلثوم وعبد الوهاب حريصًا بالطبع على تفرده وتميزه، ولكن حكومة الثورة رأت في قيام عبد الوهاب بالتلحين لأم كلثوم ما يمكن أن يضيف إلى رصيد النظام لدى الناس وقد يساهم في التخفيف من الشعور بالفشل السياسي أو العسكري. نجح النظام في إقناعهما بالتعاون فأنتجا أول أغنية مشتركة بينهما («إنت عمري») في ١٩٦٤، وحققت بالطبع نجاحًا جماهيريًا ساحقًا، ولكنها لم تحرك عواطفي مثلما كانت تحركها أغنية جديدة من تلحين السنباطي. كانت فيها أشياء مصطنعة مثلما أصبح النظام بأسره منذ ذلك الوقت.

* * *

اشتدت أزمة الثورة بهزيمة ١٩٦٧، ولجأ النظام إلى عدة وسائل لمواجهة السخط الشعبي والإحباط، فتوفرت السلع في الأسواق أكثر من ذي قبل، رغم الصعوبات الاقتصادية، وتسامحت الرقابة مع الأفلام الجنسية أكثر مما كانت تفعل قبل ١٩٦٧، كما وجد النظام عونًا لا بأس به في إثارة شعور الناس بالتاريخ. فالعهد الذي كانت حكومة الثورة تسميه في بدايتها بـ«العهد البائد»، بدأت الحكومة تجد فيه أشياء ناصعة يحسن بالناس تذكرها وتأملها، وكأن الأشياء الطيبة التي حدثت في الماضي، كثورة ١٩١٩ مثلًا، أو صمود وشجاعة سعد زغلول، يمكن أن تعزي الناس وتواسيهم في مواجهة انتكاسات الحاضر. لا يمكن إذن أن يكون من قبيل المصادفة ما قدمته الحكومة من دعم وتشجيع للفرق التي تقوم بعزف وإحياء الموسيقى العربية الكلاسيكية. هكذا

نشأتْ بدعم كبير من الدولة فرقة عبد الحليم نويرة للموسيقى العربية في النصف الثاني من الستينيات، وأُنشئت قاعة جديدة على طريق الأهرام سميت «قاعة سيد درويش»، وأصبحت تقدم فيها بانتظام حفلات الموسيقى العربية التي لقيت ترحيبًا وحماسًا كبيرَين من الجمهور، لأسباب لا بد أن يكون من بينها الحالة السياسية السائدة وقتئذ.

أما عني أنا فقد اكتشفتُ لأول مرة عن طريق فرقة الموسيقى العربية جمال موسيقى محمد عثمان وألحان عربية قديمة أخرى لا يُعرف حتى اسم مؤلفها. فكان يشار إليها في البرنامج بكلمة واحدة هي «قديم». وقد ساعد على رواج هذه الألحان القديمة فجأة، بعد عشرات السنين من الإهمال والنسيان، ظهور الكاسيت وشرائط التسجيل وانتشارها بين أيدي الناس، فلم يعد الأمر مقصورًا على ما يذيعه الراديو أو التلفزيون. كنت في البداية أذهب بانتظام إلى قاعة سيد درويش للاستماع لهذه الأغاني، ثم استغنيت عن هذا بشراء الكاسيتات، ثم أضيفت إلى ذلك حفلات لأكثر من فرقة تقام بانتظام وعلى فترات متقاربة في دار الأوبرا الجديدة، كان أشهرها فرقة سليم سحاب، وقد لاحظت بدهشة بالغة كيف كانت حفلاته تباع تذاكرها كاملة، قبل موعد الحفلة بأسابيع، وكيف كانت الألحان القديمة تُستقبل بحماس غير معهود من الجمهور.

هكذا اكتشفت بسرور بالغ كم كانت جميلة تلك الأغاني القديمة التي كانت تثير في نفوسنا منتهى السأم في صبانا ومطلع شبابنا. أهي بهذا الجمال إذن أغنية «ابتسام الزهر يشبه للحبيب» لأم كلثوم؟ أو «إمتى الزمان يسمح يا جميل» لعبد الوهاب؟ كيف غاب عني هذا طوال هذا الوقت؟ بل اكتشفت لدهشتي الشديدة ألحانًا بديعة أقدم من هذا وذاك غنتها أم كلثوم لملحن لم أسمع اسمه من قبل قط، وهو طبيب أسنان كان يهوى التلحين وهو أحمد صبري النجريدي، فأثارت هذه الألحان في نفسي مشاعر لا تختلف عما تبعثه في نفسي بعض من أجمل مقطوعات «باخ» أو «شوبان» أو غيرهما من أقرب الموسيقيين الغربيين إلى قلبي.

* * *

ثم جاء التضخم الجامح ابتداء من منتصف السبعينيات فقلب المجتمع

المصري رأسًا على عقب، ودفع الناس دفعًا للانشغال إما بتكوين المزيد من الثروات، أو بتوفير لقمة العيش أو السكن. أدى التضخم أيضًا إلى تسارع حركة تحرر المرأة المصرية لاضطرارها إلى الانضمام للرجل في كسب العيش، ولزيادة تفضيل الرجال للمرأة العاملة بالمقارنة بالمرأة القابعة في المنزل دون عمل مدر للدخل. تضافرت كل هذه العوامل لإنتاج نوع جديد من الغناء والموسيقى. أصبحت الأغاني الجديدة أسرع وأكثر اعتمادًا على الإيقاع، وموسيقاها أقرب إلى الرقص منها إلى الغناء. ذلك أن المجتمع بأسره أصبح مجتمعًا راقصًا: الراقصات يرقصن في شارع الهرم للسياح العرب، والممثلون في المسرحيات الجديدة يرقصون بدورهم أمام الأثرياء العرب والأثرياء الجدد من المصريين، سواء كان النص المسرحي يحتوي على فقرة راقصة أو لا يحتوي عليها، كما أن التكالب على المكسب السريع جعل أشياء كثيرة أخرى تتسم بـ«الخلاعة»، في السياسة والاقتصاد والصحافة والإعلام والثقافة، إلخ.

في ظل هذا المناخ الجديد توفيت أم كلثوم، ثم توفي عبد الحليم حافظ بعدها بقليل. كان خبر وفاة أم كلثوم خبرًا مذهلًا حقًّا، وكأننا لم نكن نتصور أن يصيب الموت شخصًا احتل جزءًا أساسيًّا من حياتنا منذ وعينا على أي شيء على الإطلاق. وأصيبت الحكومة المصرية بدورها بالذهول، ولكنها أصيبت أيضًا بخوف شديد من أن تعجز عن السيطرة على الناس الذين لا بد أن يخرجوا إلى الشوارع ليعبروا عن حزنهم، إذ ربما تحول التعبير عن الحزن إلى تعبير أيضًا عن السخط على كل ما فعلته الحكومة وما لم تفعله. فسمعنا أن الحكومة أجلت الإعلان عن الوفاة عدة ساعات حتى تتخذ للأمر عدته وتتمكن من نشر قوات الأمن في كل مكان.

أما عبد الحليم حافظ فقد سمعت عن وفاته وأنا في الكويت، وسمعت الخبر من مكالمة تلفونية من أحمد بهاء الدين، الذي كان يعمل، في الكويت أيضًا، رئيسًا لتحرير مجلة «العربي». سمعت صوته الحزين والمضطرب وهو يسألني: «هل سمعت الخبر؟» ولم يدُرْ بخاطري قط أن يكون الخبر الذي يقصده أحمد بهاء الدين ويدفعه إلى مكالمتي تلفونيًّا هو موت عبد الحليم حافظ، ولكني اكتشفت من درجة جزعه،

ثم من مقال كتبه عن عبد الحليم بعد أيام في جريدة كويتية، أعتبره من أجمل وأرق ما كتبه بهاء الدين على الإطلاق، اكتشفت كيف كان عبد الحليم وجيله من الفنانين يمثل شيئًا مهمًّا للغاية في حياة أحمد بهاء الدين وجيله من الكُتاب الوطنيين. لقد اقترن بزوغ نجم عبد الحليم ببزوغ نجم بهاء، وصعدا معًا مع صعود الثورة، ولمعا معًا مع كل مكسب حققته ثورة ١٩٥٢، ثم أصيب كلاهما بالإحباط والقنوط مع أفول نجم الثورة وانكسارها.

٢

دبلوماسي بطبعه

عرفته منذ أن كان كل منا في الرابعة من عمره، حيث كان أبوه صديقًا لأبي، وتسكن عائلتانا في نفس الحي من مصر الجديدة، فكنت أذهب لألعب معه في حديقة منزله الجميلة والمطلة على ما كان حينئذ مكانًا فسيحًا لسباق الخيل. ثم مرت سنوات كثيرة تزاملنا فيها في روضة الأطفال، ثم في المدرسة النموذجية بحدائق القبة، ثم في كلية الحقوق. ولم تنقطع علاقتنا، لا بسبب اختلاف وظائفنا، ولا بسبب سفري وكثرة أسفاره، وإن كانت قد قلت لقاءاتنا بالطبع. ظللنا مع ذلك نتبادل التهنئة بعيد ميلاد كل منا، الذي يذكره كلانا جيدًا بسبب تكرار مرات احتفالنا به ونحن أطفال.

ثم كتبت سيرة حياتي منذ عشر سنوات، ووضعت فيها صورة له وهو لا زال طالبًا بالحقوق، ثم كتب هو سيرته الذاتية في كتاب جميل اسمه «صراع الدبلوماسية»، حكى فيه ما مر به من أحداث سياسية مهمة خلال عمله في وزارة الخارجية، ولكنه بدأ بفصل قصير عن نشأته وصباه، فإذا بي أجد اسمي يُذكر في الفصل مرتين. وفي كلتا المرتين كان سبب ذكر اسمي يدعو للزهو، إذ إنه يدل على تقدمنا في درجة الوعي السياسي والثقافي قبل أن يتجاوز عمرنا ١٢ سنة.

ففي سنة ١٩٤٧، قررنا، أنا وهو وبعض الأصدقاء الآخرين، تكوين جمعية سياسية ثقافية، واخترنا لها اسم «جمعية الجيل الجديد». لم تستمر هذه الجمعية أكثر من أسبوع أو أسبوعين، إذ طلب منا والده أن نحل الجمعية على الفور،

فقد جرى القبض على أعضاء جمعية تحمل نفس الاسم بتهمة محاولة قلب نظام الحكم.

في نفس السنة كوَّنا معًا مجلة باسم «عصفور النيل»، ووصفناها بأنها مجلة أدبية علمية، وصدرت منها ثلاثة أعداد مطبوعة، ثم توقفت بسبب الإفلاس (وهو ما لم يكن يعني في ذلك الوقت أكثر من أن آباءنا لم يعطونا المصروف الكافي، أو لم يقتنعوا بفائدة المجلة للحياة الثقافية المصرية). كانت المجلة قد طُبعت في مطابع لجنة التأليف والترجمة والنشر، التي كان يرأسها أبي، مما أعفانا من تكاليف الطباعة، وكان هذا هو السبب في موافقة المشتركين في إصدار المجلة على أن يُذكر على غلاف المجلة أنني «رئيس مجلس الإدارة».

كنت أشعر بالفخر إذن، عندما ذهبت منذ سنوات قليلة للاحتفال بتدشين كتاب صديقي عن «صراع الدبلوماسية»، ولكن كان ينتابني أيضًا شعور بعدم التصديق. ذلك أن كان من الصعب عليَّ أن أصدق أن هذا الصبي الصغير، الذي كنت ألعب معه في سن الرابعة في حديقة منزله، ثم في روضة الأطفال، قد أصبح له حقًّا هذا الشأن العظيم، إذ أصبح سفيرًا مرموقًا بوزارة الخارجية، ثم رئيسًا لوفد مصر بالأمم المتحدة، ورئيسًا لمجلس الأمن في إحدى دوراته، ثم قاضيًا في محكمة العدل الدولية، ثم وزيرًا للخارجية، ثم أمينًا عامًّا لجامعة الدول العربية. هل يمكن حقًّا أن يحقق كلَّ هذا ذلك الصبي الذي لا زلت أتذكره وهو بالبنطلون القصير والطربوش الأحمر الذي يغطي معظم جبهته؟

خطر لي أنه إذا قدر له أن يقرأ هذا الكلام فسوف يقول: «وما هو الغريب بالضبط في الموضوع؟ أن يبدأ الطفل ببنطلون قصير وطربوش أحمر ثم ينتهي أمينًا عامًّا للجامعة العربية؟». وتخيلته وهو يقول لي: «مش حتبطَّل بقى فلسفة يا جلال؟ ما هو الغريب في الموضوع؟».

لا بد أن أعترف بأنني كنت دائمًا أدرك هذا الفارق المهم بيني وبينه؛ كان لديه حس عملي بالغ القوة، ودائم البحث عما يجب عمله في مواجهة أي مشكلة تصادفه، بينما أبحث أنا عن أفضل الطرق لوصف المشكلة دون أن أقدم أي حل. بعبارة أخرى: هو يعمل، وأنا أقوم بتنبيه الجميع أن علينا أن نعمل. لا عجب أننا منذ

سنواتنا الأولى في كلية الحقوق كان هو يعرف جيدًا أنه يريد أن يصبح دبلوماسيًّا، وأنا أريد أن أصبح مدرسًا بالجامعة، مما يذكرني بالطبع بكلمة «برنارد شو» الشهيرة: «ذلك الذي يعرف كيف يقوم بعمل شيء ما، يقوم بعمله، وذلك الذي لا يعرف، يقوم بتدريسه».

ولكني لا بد أن أعترف أيضًا بأنه كان أحيانًا يثير غيظي لسبب بسيط وهو سرعة فهمه بالمقارنة بي. أذكر مرة أننا كنا في إحدى سنوات الدراسة بالحقوق، وقد اقترب الامتحان واشتد تعبنا ومللنا من كثرة الجلوس للمذاكرة، فقررنا أن نجتمع، نحن الثلاثة أو الأربعة من الأصدقاء، في منزل أحدنا، لنراجع معًا فصلًا من فصول كتاب عن القانون المدني. راعني أن ألاحظ السرعة التي ينتهي هو بها من فهم الفقرة بينما أنا لا زلت أحاول فهمها، وإذا بي أراه ينظر إلى السقف منتظرًا أن ننتهي من فهمها حتى ننتقل إلى ما بعدها.

كنت أواسي نفسي حينئذ بأنه ربما كانت سرعة الفهم شيئًا مختلفًا عن عمق الفهم، وأن هذه لا بد أن تكون على حساب ذاك، وظللت أعتقد ذلك حتى قرأت فقرة مزعجة جدًّا في كتاب السيرة الذاتية لـ«برتراند راسل»، الفيلسوف الشهير، وكان فيها يتكلم عن صديقه «جون مينارد كينز»، الاقتصادي الشهير أيضًا، فإذا به يقول إن «كينز» كان هو الشخص الوحيد في حياته الذي أشعره بقدراته العقلية المحدودة، وأنه هو (أي «راسل») كان يظن أيضًا، حتى قابل «كينز»، أن سرعة الفهم تتعارض مع عمق الفهم، فلما قابل «كينز» اكتشف للأسف الشديد أن هذا غير صحيح؛ إذ من الممكن أن تحظى بسرعة الفهم وعمقه في نفس الوقت.

هذا الحس العملي القوي، وهذا الذكاء الحاد، لم يكن من الممكن أن ينتجا كل هذه النتائج الباهرة التي أحرزها صديقي، لو لم يقترنا أيضًا بشعور وطني قوي. كان اجتماع هذه الصفات هو في رأيي ما مكنه من أن يفعل أشياء كثيرة مبهرة في أيام قليلة أثناء توليه وزارة الخارجية. ففي هذه الفترة القصيرة أحرز تقدمًا ملموسًا في علاقة مصر بإيران، ونحو حل مشكلة مياه النيل مع إثيوبيا، وفي التقريب بين الفصائل المختلفة من الفلسطينيين، وفي تحديد الموقف الصحيح من اتفاقية «كامب دافيد» مع إسرائيل، إلخ.

ثم قرأت كتابه «صراع الدبلوماسية» فوجدت فيه ليس فقط تأكيدًا لكل هذه الصفات، بل وأيضًا تأكيدًا لصفات أخرى فيه، كجَلده الشديد على العمل، وزهده في الافتخار بنفسه أو في الحديث عن أخطاء الآخرين، مهما كانت هذه الأخطاء جسيمة، كحديثه مثلًا عن أنور السادات ولقائه به أثناء محادثات «كامب دافيد» في ١٩٧٨، أو عن حسني مبارك أثناء الاحتفال باستعادة طابا من الإسرائيليين.

إنه يقول إنه لا يستطيع أن يتذكر ذلك اللقاء مع السادات دون أن يشعر بالتوتر والأسف، رغم مرور أكثر من ثلاثين عامًا عليه. فعندما اعتذر كل الأعضاء الآخرين في الوفد المصري في المفاوضات، عن مواجهة الرئيس بملاحظاتهم النقدية، قبِل هو أن يذهب للقائه بمفرده (قال أحد هؤلاء الأعضاء بأنه «يشعر بحرج شديد من ذلك»، وتعلل آخر بأن الرئيس «عصبي جدًّا هذه الأيام»). ذهب صديقي إذن لمقابلة السادات ليعرض عليه بعض الاعتراضات القوية جدًّا ضد مشروع المعاهدة التي يريد السادات توقيعها مع إسرائيل، فلا يجيب السادات إلا بترديد القول: «إنكم في الخارجية ترون الأشجار ولا ترون الغابة»؛ إذ يبدو أن التعبير الإنجليزي عن الأشجار والغابة قد أعجبه فظل يردده. ومع ذلك يعترف صديقي بالفضل للسادات لأنه لم يعاقبه رغم تجرؤه على الكلام معه بصراحة، وعلى الرغم من أن البعض قال للسادات: «كيف تسمح له أن يكلمك بهذا الأسلوب؟».

كذلك عندما كتب عن حسني مبارك، لم يكتب عنه كلمة جارحة، بل يحكي فقط ما حدث، كالقصة المذهلة الآتية: كان صديقي رئيسًا للوفد المصري في المفاوضات لاسترداد طابا من الإسرائيليين، والتي استمرت لمدة ست سنوات قبل أن تستردها مصر بالفعل. أقيم احتفال بهذه المناسبة في طابا، حيث رُفع العلم المصري، ووقف صديقي مع زملائه الذين قاموا بجهود جبارة في المفاوضات، وانتظروا أن يتجه الرئيس مبارك إليهم لتحيتهم وشكرهم، فإذا بالرئيس يسمع الممثل الشهير فريد شوقي ومعه الممثلة الشهيرة يسرا ينادي: «يا ريِّس، يا ريِّس»، فيتجه الرئيس إليهما بدلًا من أن يذهب لشكر رئيس وأعضاء الوفد المصري في المفاوضات. وبقي رئيس الوفد وأعضاؤه «لعدة دقائق في حالة دهشة تامة».

* * *

كلما تذكرت أن معرفتي بصديقي هذا وصداقتي له قد استمرت أكثر من سبعين عامًا، أشعر بالسرور والفخر في نفس الوقت. صحيح أننا مختلفان جدًّا في المزاج، ولكن ربما ساعد هذا على استمرار صداقتنا. وقد عبرت له عن امتناني بصداقته بطريقتي الخاصة؛ وهي أنى قمت بتدريس مقرر في الاقتصاد لكل من أولاده الثلاثة: مي ومروان وهشام. ذلك أن التدريس هو ـ فيما يبدو ـ الشيء الوحيد الذي أنا شاطر فيه!

٣

يد في الماء.. وأخرى في النار

لا بد أن معرفتي به تعود إلى أكثر من نصف قرن، وقد استمرت حتى وفاته وهو في منتصف السبعينيات من عمره. كان يكبرني بعامين أو ثلاثة، ودخل كلية الآداب بينما دخلت أنا كلية الحقوق. وقد سافرت للدراسة بإنجلترا بعد تخرجي بسنتين، أما هو فلم تطأ قدمه العالم الغربي إلا بعد أن اشتهر وأصبح يحتل مركزًا مهمًّا في حياتنا الثقافية. أتاح لي سفري للدراسة أن أجيد اللغة الإنجليزية، قراءة وكتابة، مما لم يتح له قط، بل أظن أحيانًا أنه لا يكاد يقرأ شيئًا بلغة أجنبية على الإطلاق. فعلى الرغم من ثقافته الواسعة، وقدرته على مناقشة أفكار طرحها كُتاب من الغرب والشرق، فقد كانت إشاراته لهؤلاء الكُتاب تأتي دائمًا من خلال الإشارة إلى كتب مترجمة إلى العربية، أو إلى مقالات كُتبت عنهم بالعربية، فهو لا يقرأ لهم مباشرة بل دائمًا عن طريق وسيط، أو هكذا يبدو لي.

الذي سمح له إذن بتحقيق هذه الشهرة الواسعة وحصول كتاباته على تقدير الكثيرين، هو ذكاؤه أولًا ثم مثابرته ونشاطه. ولكنه بالإضافة إلى ذلك كان ذا جاذبية شخصية يأسر بها الجميع. كان على درجة لا بأس بها من الوسامة، وابتسامته جميلة تنم عن عواطف صادقة، فضلًا عن فصاحة لا شك فيها في التعبير عما يدور في رأسه، واستعداد دائم لمجاملة مَن يلتقي به. وهي مجاملة يسهل قبولها وتصديقها، لأن ذكاءه كان يسمح له بالتخمين الصحيح لما يمكن أن يصادف قبولًا من جانب أصدقائه ومعارفه.

لا بد أن أقول مع ذلك إن ما كان يكتبه في الصحف أو في كتب لم يكن يحوز إعجابًا شديدًا من جانبي، إلا في السنوات الأولى لمعرفتي به، عندما كنت لا زلت في مطلع العشرينيات وقبل أن تزداد وتتنوع قراءاتي. نعم، كان له أسلوب جذاب ومشوق، يدخل إلى الموضوع مباشرة ولا يطيل الكلام فيما لا نفع فيه، فضلًا عن جرأته وشجاعته في نقد ما لا يعجبه، بما في ذلك ما يكتبه أحيانًا عن بعض كبار الكُتاب. ولكني تبينت مع مرور الوقت أن كتاباته وأفكاره لا تتجاوز مستوى معينًا من العمق، ثم اكتشفت شيئًا أسوأ، وهو ميله، بعد أن تقدم في العمر، إلى التقرب من الحكام والمسؤولين، حتى سمح لنفسه أحيانًا بكتابة أشياء لا يمكن أن تخدع أحدًا من القراء. كان من الواضح إذن أنه لم يعد يبالي بدرجة مصداقيته لدى القراء، طالما وصل الكلام إلى المقصودين به، وحقق بذلك غرضه.

اتضح مما أصبح يكتبه في العشرين سنة الأخيرة من حياته، وكذلك من قبوله لوظيفة أو أخرى، أنه يعلق أهمية كبيرة عما يحققه من ثراء وعلى الوصول إلى منصب رفيع في ميدان الثقافة. كان نجاحه في تحقيق كلا الهدفين أقل بكثير من طموحه. جمع الكثير من المال، ولكنه كان يستطيع بلا شك أن يجمع أكثر من ذلك، وتولى رئاسة تحرير صحف ومجلات مهمة ومشهورة، ولكنه كان يطمح إلى مناصب ومستويات أكبر وأرفع. إني أميل الآن إلى تفسير هذا القدر المتواضع نسبيًا من النجاح، بأنه كان رجلًا أفضل بكثير ممن حققوا نجاحًا أكبر منه بكثير، في كلا الأمرين: الثراء والمنصب الكبير. كان رجلًا شريفًا في الحقيقة ولكنه كان يعاني (منذ نعومة أظفاره فيما أظن) من ضعف معين جعله يتصرف أحيانًا تصرف الرجل الصغير. وهو يعرف تمامًا (بل وعلى استعداد أحيانًا للاعتراف بذلك) أنه تجاوز بتصرفه هذا أو ذاك الحدود المقبولة.

إن اجتماع هذين الجانبين المتعارضَين في شخصيته ومواقفه، هو الذي يفسر، فيما أظن، كيف كان يتمتع بحب وصداقة كثير من الشخصيات الجديرة بالاحترام والحب، ويثير في نفس الوقت سخط كثيرين من نفس النوع من الناس. إنه يطمع في الشهرة وحب الناس، وهذا يغريه باتخاذ مواقف جريئة في القضايا العامة،

ولكنه أيضًا يحب كثرة المال والمنصب الرفيع لدرجة تغريه بالتقرب من أصحاب المال والنفوذ.

لم يكن غريبًا أن تنشأ علاقة طيبة بيني وبينه دون أن تتحول إلى صداقة حميمة، ليس فقط لأسباب تتعلق بالصفات الشخصية لكل منا، ولكن أيضًا لاختلاف نوع نشاطنا العام. ولكن لم يكن غريبًا أيضًا أن يحدث ما سبَّب فجوة عميقة بيننا، تطورت تطورًا غير متوقع، أدى بنا إلى التقاضي أمام المحاكم. وقد أثار هذا استياء شديدًا لدى بعض الأشخاص الذين نحبهم، أنا وهو، حبًّا جمًّا ونحمل لهم تقديرًا فائقًا. فتدخلوا من أجل التصالح، وتصالحنا بالفعل، وأقبل هو عليَّ وهو يمد ذراعيه لعناقي، فلم يعد هناك بد من معانقته، ولكن بقي شيء بالطبع في نفس كل منا، مما فضل كل منا كتمانه ثم نسيانه. فلما مرض بالسرطان وأصابه هزال شديد حتى أصبح من الصعب التعرف على وجهه الوسيم المألوف، شعرت بحزن حقيقي.

لم أستغرب منه حتى وهو في هذه الحالة أن يكتب مقالًا في جريدة يومية، يشكو فيه من أنه لم يحصل بعد على جائزة الدولة التقديرية، رغم كل ما فعله وكتبه ونشره. وسعى أصدقاؤه المهمون إلى أن يحصل عليها، فحصل عليها بالفعل قبل وفاته بشهور قليلة. لم أهنئه بالجائزة ولكني ذهبت لتقديم واجب العزاء لزوجته الطبيبة الفاضلة، وصافحتها مواسيًا، ولكني لم أستطع أن أتبين من ملامحها نوع الأفكار التي دارت في ذهنها حينئذ. كنت قد سمعت من صديق مشترك أنها وجهت عتابًا شديدًا لزوجها على ما فعله معي، وأدى بي إلى رفع قضية ضده. ولكنها ربما كانت تشعر بأني قد أخطأت بدوري في حقه. فما هي قصة هذا الخلاف وهذه القضية بالضبط؟

* * *

كان تطور علاقتي به إلى ما يشبه الصداقة، يرجع بلا شك إلى حبنا المشترك لذلك الأديب السوداني العظيم، الطيب صالح. وكان الطيب صالح يشعر بمودة عميقة نحوه، وكان هو من أول مَن يتصل بهم الطيب صالح إذا جاء في زياراته الدورية للقاهرة، ثم يجتمع أصدقاء الطيب في جلسة سمر ممتعة كنت أُدعى إليها أحيانًا وأرحب بحضورها

دائمًا. لم تكن لهذه الجلسات أي نظام ولا غرض محدد، بل كان يدهشني الاختلاف الشديد بين مشارب وميول أعضائها الدائمين، فكان الحديث يتجه في كل اتجاه ولا يستقر عند موضوع بعينه لمدة تكفي لتناوله بأي درجة من العمق. وقد لاحظت أيضًا أن ناقدنا الشهير لا يمتاز بالفكر الثاقب ولا بدرجة عالية من روح الفكاهة، وإن كان قوي الشخصية، يتكلم دائمًا بثقة، ولا يتردد أو يتلعثم. كان من الواضح أنه لم يكن يجمع بين الحاضرين إلا الرغبة في الالتقاء بالطيب صالح، رغم أنه هو نفسه كان رجلًا قليل الكلام جدًّا وإن كان مستمعًا ممتازًا.

فوجئت يومًا بمقال في مجلة «المصور» كتبه صاحبنا، ويشيد فيه بلا مناسبة بالرئيس حسني مبارك، وينسب إليه من الأفضال ما لا يستحق، بل إنه ذهب في ذلك إلى حد القول بأن حصول نجيب محفوظ على جائزة «نوبل» إنما يعود الفضل فيه إلى حسني مبارك. كيف بالضبط؟ لا أدري ولا أتذكر، ولكن المقال استفزني إلى كتابة رد عليه في جريدة الأهالي المعارضة، وصفت فيه كاتبه بالصديق العزيز، دون أن أخفي سخطي الشديد على ما كتب. كان قيام رئيس تحرير «الأهالي» بنشر هذا المقال يحتاج إلى جرأة، وحظي المقال بإعجاب كثيرين واتصل بي بعضهم لتهنئتي عليه، ولكن استبد الغضب به وصمم على كتابة مقال أشد، يهاجمني فيه بقسوة تزيد كثيرًا عن قسوتي، ونشره في مجلة «المصور» تحت عنوان «مَن يده في الماء ليس كمَن يده في النار». كان عنوانًا واضح الدلالة على المشاعر التي دارت في قلبه لدى قراءة مقالي. لقد سبق أن بدر منه أكثر من مرة ما يدل على مشاعره نحو رجل مثلي لم يعانِ قط مثلما عانى هو في نشأته الأولى، إذ اضطر وهو أكبر إخوته إلى التوظف قبل أن يتم دراسته، ليكسب من المال ما يساعد بقية إخوته على الاستمرار في تعليمهم. كان فعلًا رجلًا عصاميًّا بالدرجة الأولى، بنى نفسه بنفسه، وظل إخوته يحملون له الجميل ويجلونه رغم اختلاف بعضهم عنه اختلافًا شديدًا في المواقف السياسية.

ضرب في مقاله أمثلة على أن «يدي في الماء»، وبالغ في ذلك حتى تجاوز الحقيقة. فقال إني سافرت إلى الكويت، وهو صحيح، وجمعت من ذلك ثروة طائلة، وهو غير صحيح، وإني بنيت من هذه الثروة قصرًا في المعادي، والحقيقة أنه

بيت جميل على أرض صغيرة اشتريتها بالتقسيط، وبنيت عليها البيت الذي سكنته لعدة سنوات قبل سفري إلى الكويت، ودفعت أقساط البيت مما كسبته من عملي وترجمتي لبعض الكتب. قال أيضًا إني تزوجت من إنجليزية لكي أهرب من مصر إذا ساءت الأحوال فيها، والحقيقة أني تزوجت عن حب. هكذا راح يجول ويصول في محاولة للانتقام مني لأني انتقدته عندما رد الفضل في فوز نجيب محفوظ بجائزة «نوبل» إلى الرئيس مبارك. وأنهى مقاله بثناء مستفيض، من جديد، على الرئيس مبارك، بسبب أفضال أخرى أضافها إلى ما ورد في مقاله السابق.

كان مقاله ضدي شديد اللهجة ولكنه لم يترك في نفسي إلا أثرًا ضعيفًا بسبب تفاهته، وكنت واثقًا من أني سرعان ما سأنسى الأمر برمته. ولكن صديقًا قديمًا اتصل بي وعبَّر عن استيائه الشديد من المقال، وقال إنه يعرف محاميًا شابًّا أبدى استعداده لرفع قضية باسمي مطالبًا بالتعويض، وإنه لا يطلب مني أي مكافأة مقابل جهده في القضية. لم أسترح لهذه الفكرة، كما أدركت أن المحامي الشاب لم يعرض خدماته إلا رغبة في تحقيق بعض الشهرة. ولم أقبل إلا تحت إلحاح شديد من هذا الصديق الذي أكد لي أن المحامي سيقوم وحده بكل شيء، ولن يطلب مني القيام بأي جهد. انتهت القضية بالفشل، ليس فقط بسبب ضعف المحامي، ولكن أيضًا بسبب أن القاضي تصادف أن كان قبل اشتغاله بالقضاء قريبًا جدًّا من السلطة، وأن رئيس تحرير المجلة التي نشرت المقال، والذي اختصمه المحامي بالإضافة إلى كاتب المقال، كان يتمتع بحصانة ضد مثل هذه القضايا لعضويته في مجلس الشورى.

بلغني ما شعر به صديقنا المحبوب الطيب صالح من استياء عندما سمع بخبر القضية والمحاكم، وأنه قال باستغراب شديد: «هل يُعقل أن يصل الخصام بين فلان وفلان إلى حد اللجوء إلى القضاء؟». وبعد انتهاء القضية حاول الطيب صالح أن يحقق مصالحة، فدعانا إلى جلسة عشاء في بيت صديق مشترك. لم يكن لديَّ أي مانع من التصالح، كما لم أستغرب عندما استقبلني الرجل صاحب المقال لدى وصولي بالأحضان كعادته، وكأن شيئًا لم يحدث. الذي استغربته هو أنه عندما انفرد بي لبضع دقائق قال لي: «هل تعرف ماذا فعلتَ بي؟ إنك كنت كمن اكتشف رجلًا وهو يضاجع

خادمته، فصاح بصوت عالٍ مما أيقظ الجميع بمن فيهم الجيران، وحدثت فضيحة اضطرت الرجل إلى أن يتزوج من الخادمة!». يقصد فيما أظن أن لومي له على الثناء على الرئيس، بدون وجه حق، قد اضطره إلى أن يسبغ عليه المزيد من الثناء!

عندما أستعيد القصة كلها في ذهني لا يثور لديَّ أي شك في أن الرجل قد أخطأ خطأً جسيمًا مرتين: مرة فيما كتبه عن دور مبارك في فوز نجيب محفوظ بالجائزة، ومرة عندما كتب عني بعض الأكاذيب. ولكني لا أخفي أني لست واثقًا تمام الثقة بأني لم أخطئ بدوري. نعم، أنا واثق من أني في مقالي لم أكتب غير الحقيقة، ولكن هل كانت هناك ضرورة لكتابته؟ نعم، لقد ابتهج الكثيرون ممن قرأوا مقالي بأني وضعت بعض الحق في نصابه، ولكن هل يصح أن أهاجم بهذه السهولة شخصًا أعرفه معرفة وثيقة إلى درجة أن من الممكن اعتباره صديقًا؟ صحيح أن مجرد اشتراكنا في صداقة الطيب صالح والتقائنا في صحبته من حين لآخر لا يصل إلى حد العلاقة الحميمة بيني وبينه، ولكن هل الخطأ الذي ارتكبه يبرر أن أذهب في إيلامه إلى هذا الحد؟ إن كتابتي لهذا المقال لم يكن دافعها فقط الرغبة في قول الحقيقة، بل كانت هناك أيضًا الرغبة في تحقيق بعض الشهرة. فهل يصح أن يكون هذا على حساب رجل يعاملني دائمًا بلطف وألتقي به في مناسبات ودية كثيرة؟

أذكر أنه قبل هذه الحادثة جاء ذكر الرجل في حديث بيني وبين الطيب صالح وتساءلت: «أليس فيه بعض الانتهازية؟»، فكان رد الطيب صالح أن قدرًا من الانتهازية قد يكون أحيانًا مطلوبًا أو على الأقل مغتفَرًا.

كان رد الفعل لهذه القصة كلها، من جانب كثيرين ممن حادثتهم في أمرها من أصدقائي وأصدقاء الطيب صالح، بل وربما منهم جميعًا، أنه هو الذي أخطأ في حقي بهجومه القاسي عليَّ، وأنني لم أخطئ. ومع ذلك فإني لا أستطيع أن أقول إن الأمر قد تم حسمه في رأيي، وأحيانًا أقول لنفسي إن كلًّا منا قد تصرف على النحو الذي وصفه هو بحق في عنوان مقاله: «يده في النار ويدي في الماء»، مما قد يعفي كلينا من الذنب.

٤
الأكاديمي الظريف

كان اسمه محترمًا ومحبوبًا منا جميعًا، نحن الطلبة المصريين المبعوثين لدراسة الاقتصاد في الخارج، خلال الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي. وكان قد نشر في منتصف القرن ثلاثة كتب مهمة عن الاقتصاد المصري، في وقت كانت الكتابة نادرة في هذا الموضوع، وكانت الكتب الثلاثة تدل على سعة المعرفة ونزاهة البحث، فلا يشعر قارئوها مثلًا بما إذا كان تعاطف المؤلف أو عدم تعاطفه مع مواقف جمال عبد الناصر السياسية، بوجه عام، له أثر في تقييمه لسياساته الاقتصادية.

كان شارل عيسوي يعتبر نفسه مصريًّا لبنانيًّا، باعتبار البلدين اللذين نشأ وتعلم فيهما، وإن كان قد قضى النصف الأخير من حياته في الولايات المتحدة، أستاذًا مرموقًا في جامعة «كولومبيا» ثم في جامعة «برينستون»، ونشر خلال ذلك كتبًا ومقالات مهمة ومشهورة عن التاريخ الاقتصادي للبلاد العربية وتركيا وإيران.

أثناء دراستي في لندن جاء ذكر شارل عيسوي مرة في مناقشة بيني وبين الأستاذة الأمريكية التي كانت تشرف على دراستي للدكتوراه، وصدر منها تعبير ينم عن بعض الاستخفاف بكتابات الرجل، وقد استغربت هذا في ذلك الوقت بسبب إعجابي الشديد به، ثم رجحت فيما بعد أن السبب ربما كان الغيرة من شهرة الرجل، أكثر من أن يكون تقييمًا صحيحًا له. وقد قرأت له بعد ذلك أشياء زادت من إعجابي به، منها مقال طويل بعنوان «تركة العالم العربي الثقيلة»[1] تناول فيه التطور الاقتصادي

---

(١) «The Arab World's Heavy Legacy»

في العالم العربي طوال القرن التاسع عشر، وأذكر منه قوله، عند الحديث عن الفشل في القضاء على الأمية، أن الاستعمار، وإن كان يتحمل جزءًا كبيرًا من المسؤولية، فإنه ليس المسؤول الوحيد، إذ إن أغنياء العالم العربي لم يبذلوا جهدًا كبيرًا في ميدان التعليم، مثلما بذل أغنياء أوروبا. كان شارل عيسوي أيضًا أحد الاقتصاديين المعاصرين القلائل الذين اهتموا بدراسة أفكار ابن خلدون الاقتصادية، فكتب كتابًا صغيرًا ممتازًا عنها وعن نظرية ابن خلدون في التاريخ.

في منتصف الثمانينيات جاء شارل عيسوي إلى القاهرة ليتسلم الدكتوراه الفخرية التي قررت منحها له الجامعة الأمريكية بالقاهرة، حيث كنت أقوم بالتدريس في ذلك الوقت. وفوجئت بمكالمة منه من داخل الجامعة، يسألني عما إذا كان يستطيع المرور عليَّ في مكتبي، فرحبت بذلك بالطبع، بقدر استغرابي أنه يعرف اسمي أصلًا. جاء إلى مكتبي وأخبرني أنه قرأ كتابي «تحديث الفقر»[1] وأعجب به، وأنه ذكَّره بشبابه (وقد فهمت هذا بمعنى أنه كان في شبابه متحمسًا مثلي وناقدًا بشدة لما يجري في البلاد العربية). وجدته رجلًا لطيفًا مرحًا وعلى سجيته تمامًا. وقد تأكد هذا الانطباع الطيب عنه عندما سمعته في مناقشته للطلاب في قاعة «إيوارت»، إذ سأله طالب عن رأيه في مشكلة تفاقم الديون الخارجية في مصر، وكانت هذه المشكلة من أكثر مشاكل مصر الاقتصادية إثارة لاهتمامنا في ذلك الوقت. كان من أسهل الأمور على شارل عيسوي، وهو الباحث في الاقتصاد المصري منذ فترة طويلة، أن يجيب إجابة تفي بالغرض، ولكنه آثر الاعتراف بأنه لم يعطِ هذا الموضوع ما يستحقه من عناية، ومن ثَم فهو ليس أفضل مَن يجيب على هذا السؤال.

كان واحدًا من ذلك الصنف النادر من الناس الذي لا يبالغ في قيمة نفسه، ولا حتى يأخذها مأخذ الجد في بعض الأحيان. ولأنه كان يعرف أن هذه الصفة النادرة هي الصفة الأكثر تعبيرًا عن الحقيقة، فإنه كان مستعدًّا للاعتراف بأشياء عن نفسه، وبأخطاء صغيرة ارتكبها دون أن يكترث بما يمكن أن تتركه من أثر. ومن الأمثلة على هذا ذلك الحادث الطريف الذي صادفته منه في منتصف التسعينيات.

---

(١) *The Modernization of Poverty*

كنت في نيويورك أحضر المؤتمر السنوي للجمعية الدولية لدراسات الشرق الأوسط، وقرأت إعلانًا عن أن حفلة عشاء سوف تقام تكريمًا للأستاذ عيسوي بمناسبة بلوغه سن الثمانين، وأنه سيحضر الحفلة ويلقي فيها كلمة، وأن الدعوة مفتوحة لحضور الحفل بشراء تذكرة. اشتريت تذكرة مسرورًا بأني سأراه من جديد وأستمع إليه، ولكن قيل لنا للأسف خلال الحفل إنه أرسل اعتذارًا عن الحضور بسبب مرضه، وإن كان قد أرسل كلمة مكتوبة سوف يلقيها علينا أحد الأعضاء. استمعنا إلى الكلمة، وكانت رائعة بما فيها من حكمة وظرف. وقد احتفظت ذاكرتي منها بهذه الواقعة التي رواها عن شيء فعله في شبابه، قبل أن يبلغ الثلاثين، عندما التحق للعمل بالأمم المتحدة وعُين مسؤولًا (أو أحد المسؤولين) عن القسم الخاص بالبلاد العربية. حدث هذا في الأيام الأولى لمنظمة الأمم المتحدة (ربما في سنة ١٩٤٥)، حين طلب منه أن يقدم على وجه عاجل تقديرات لمتوسط الدخل في كل بلد عربي، لكي تقدر على أساسها الحصة المطلوبة من كل بلد للمساهمة في ميزانية المنظمة.

كانت المشكلة التي تواجه الأستاذ عيسوي أنه لم يكن هناك في ذلك الوقت أي تقديرات يعتد بها للدخل القومي ومتوسط الدخل في أي بلد عربي. ومن ثَم كان عليه أن يعتمد على نفسه ويقوم بعملية أقرب إلى التخمين. قال إنه سأل نفسه: ما هي الدولة العربية التي تبدو أغنى من أي دولة عربية أخرى؟ قال: إنها على الأرجح لبنان. فلأعطها ١٥٠ دولارًا كمتوسط الدخل السنوي. وما هي أفقرها؟ قال: اليمن على الأرجح. فأعطاها ٢٠ دولارًا. رأى أن مصر والعراق يأتيان على الأرجح بين لبنان واليمن، فأعطى لكل منهما ١٠٠ دولار. وهكذا أتم الجدول وهو يعرف تمامًا مدى بُعده عن الحقيقة. ولكنه فوجئ بعد بضعة شهور برؤية نفس الجدول منشورًا في نشرة لمنظمة «الفاو» (الأغذية والزراعة) الدولية، وفي أسفله جاءت عبارة (تقديرات الأمم المتحدة). ثم فوجئ بعد بضع سنوات بطالب من طلبته يحضر للدكتوراه في جامعة أمريكية، وقد استخدم نفس الجدول، وقد ذكر في أسفله «منظمة الأغذية والزراعة»، باعتبارها المصدر الذي أخذ منه الأرقام.

وجدت القصة طريفة للغاية، وذكرتها لطلبتي أكثر من مرة كنوع من التحذير لهم من أن يعلقوا أهمية مبالغًا فيها على ما يرونه منشورًا من أرقام. كما ذكرتني القصة بقصة أخرى حكتها لي زوجتي عن أستاذ كان يدرِّس لها الفلسفة في جامعة «جلاسجو»، وكان يصر على أن يملي على طلبته المحاضرة كلمة بكلمة. فلما سألوه لماذا لا يطبع المحاضرة ويوزعها عليهم فيوفر عليهم وعلى نفسه مشقة الإملاء، أجاب بأنه يعرف جيدًا ما تضفيه عملية الطبع من قدسية على أي شيء مطبوع، مهما كانت قلة أهميته، ومن ثَم فهو يأمل بأن يعاملوا النص الذي كتبوه هم بخط اليد، المعاملة التي يستحقها.

٥

زوجة دائمة الشباب

سألني مرة أستاذي الإنجليزي «ليونيل روبنز»[1]، الذي كان يشرف على دراستي للماجستير، عما أنوي عمله بعد عودتي إلى مصر، فقلت له إن الحكومة المصرية أرسلتني في بعثة لكي أعود بعدها للتدريس في الجامعة، فقال لي ما معناه إن التدريس مهنة عظيمة، ثم وصفها بأنها تشبه الزواج من امرأة دائمة الشباب.

ظللت أذكر هذا التشبيه مع مرور الزمن عليَّ وأنا أشتغل بالتدريس، في جامعة مصرية أولًا ثم في الجامعة الأمريكية، ووجدت أنني فعلًا بينما تتقدم بي السن يظل تلاميذي في الثامنة عشرة من العمر أو أكثر قليلًا. وكان يزداد شعوري بفارق السن كلما كانت بين تلاميذي فتاة جميلة. لا بد أن أعترف بأن وجود تلميذات جميلات كان من بواعث سروري بهذه المهنة حتى حدث الحادث التالي:

كنت قد جاوزت السبعين من العمر، إذ جاءتني طالبة جميلة لتقول إنها تريد محادثتي بعد انتهاء المحاضرة. كان شيئًا سارًّا بالطبع أن تطلب فتاة مثلها أن تتحدث إليَّ، سواء بعد المحاضرة أو قبلها، ولكني فوجئت باكتشافي السبب الحقيقي الذي دفعها للحديث إليَّ؛ إذ جاءت إليَّ بعد المحاضرة لتقول إن أخت جدتها ترسل لي السلام! سألتها بشيء من خيبة الأمل عمن تكون أخت جدتها، فقالت إنها كانت تلميذة لي. ألهذا الحد إذن تقدمت بي السن؟ فما الجدوى إذن من أن تظل تلميذاتي في شباب دائم؟

Lionel Robbins (١)

ولكن التقدم في السن لم يكن هو السبب في اتخاذي فجأة لقرار التوقف عن التدريس. كذلك لم يكن الدافع إلى ذلك أي سبب قانوني، إذ كان قانون الجامعة الأمريكية يسمح لي بالاستمرار في التدريس طالما كنت قادرًا عليه. كما أن صحتي كانت تسمح لي بذلك. لقد شعرت مع ذلك، في الشهر أو الشهرين السابقين مباشرة لتوقفي عن التدريس، بأني لا بد أن أتوقف، إذ أخذ يتكرر ورود السؤال التالي بذهني، وهو ما لم يكن قد مر بذهني من قبل: «ما هذا الكلام الفارغ الذي تقوله للتلاميذ؟».

ثم وجدت أنني بعد ذلك، وكلما مر الوقت على آخر محاضرة ألقيتها في مقرر جامعي، وطاف بخاطري أو سألني سائل عما إذا كانت لديَّ أي رغبة في العودة إلى التدريس، وتصورت نفسي أقوم بهذا الدور من جديد، أستبعد الفكرة من ذهني تمامًا وكأنها مستحيلة. كذلك فإني كنت إذا ذهبت إلى الجامعة لأي سبب آخر غير التدريس (كما لو ذهبت لاستلام بعض الخطابات أو لأدفع اشتراك التأمين الطبي) وقابلت بعض المدرسين الشبان (الذين كان بعضهم في وقت ما تلاميذ لي) وهم يستعدون لدخول أحد الفصول، وسألت أحدهم، بغرض استرجاع بعض ذكريات الماضي، عن موضوع المحاضرة التي سوف يشرع في إلقائها، وقال لي مثلًا إنه «مرونة الطلب» أو «التوازن في سوق المنافسة الحرة» اعتراني شعور بالاستغراب الشديد من أن يكون مثل هذا لا يزال يحدث؛ أي أن يكون من الممكن أن يأتي عدد من الطلاب من مختلف أنحاء القاهرة، بأتوبيس الجامعة أو بسياراتهم الخاصة، وقد يستيقظون مبكرًا لهذا الغرض، فيجلسون في الفصل ليستمعوا لمحاضرة في مثل هذه الموضوعات. بل وأحيانًا أتذكر المبالغ الطائلة التي يدفعها التلاميذ كمصاريف للدراسة، وأتساءل عما إذا كانت مثل هذه الموضوعات التي يتلقون محاضرات فيها تصلح مبررًا كافيًا لكل هذه التكاليف.

كيف بدأت هذه التساؤلات تمر بذهني فجأة بعد ما يقرب من أربعين عامًا من التدريس، لم يخطر خلالها مثل هذه التساؤلات على ذهني قط؟ قد تكون هذه التساؤلات غير عقلانية بالمرة، إذ لا يمكن أن يكون كل هؤلاء المدرسين والأساتذة

والتلاميذ وعائلاتهم لا يدركون الحقيقة، وأنني وحدي الذي أدركها. ولكني ببعض التفكير في الأمر وجدت أن هذه التساؤلات التي مرت بذهني ودفعتني إلى التوقف عن التدريس، وراءها شكوك حقيقية وليست مصطنعة أو عابرة. كان لا بد إذن من البحث عن تفسير مقنع لها.

حاولت أن أجد بعض المساعدة، للوصول إلى هذا التفسير، في استعادة ذكرياتي عن أساتذتي القدامى، والمحاضرات التي استمعت إليها في فترات سابقة من حياتي في مصر أو في الخارج. كان هناك عدد قليل من الأساتذة الذين لا زلت أتذكرهم مع شعور بالحب والتقدير، وعدد قليل جدًّا من المحاضرات العامة التي تركت أثرًا باقيًا في نفسي. حاولت أن أتبين شيئًا مشتركًا في هؤلاء الأساتذة المفضلين، وفي هذه المحاضرات المتميزة، فلم أستطع أن أستخلص إلا شيئًا واحدًا: قدرة المحاضر على المزج بين العام والخاص مزجًا فعالًا، لا يقتصر أثره فقط على نقل مجموعة من الأفكار الشيقة، بل وينقل أيضًا مشاعر إنسانية. إني أقصد بـ«المزج بين العام والخاص» تقديم الفكرة العامة مقترنة بحادثة شخصية تقوي الفكرة وتعطيها مغزى إنسانيًّا، ومن ثَم تستدر التعاطف من المستمعين. كان هناك أيضًا قدر لا يستهان به من المرح أو روح الفكاهة، ولكني أظن أن روح المرح أو الدعابة كثيرًا ما تنطوي بدورها على المزج بين العام والخاص، وربما كان هذا هو مصدر نجاحها في إحداث الأثر الذي أتكلم عنه.

سألت نفسي عما إذا كان هذا التفسير يصلح أيضًا تفسيرًا لما كنت أستمده من سرور من إعداد وإلقاء محاضراتي، فتبين لي أنه بدون المزج بين العام والخاص ما كنت لأحصل على مثل هذا السرور، وما ظللت أقوم بالتدريس طيلة كل هذه السنوات دون أن يعتريني الملل. وسأضرب للقارئ بضعة أمثلة، من بعض محاضراتي، عسى أن أوضح ما أعنيه بهذا المزج بين العام والخاص.

في محاضرة لي في مقرر التنمية الاقتصادية، كنت أقارن بين متوسطات الدخل في الدول الغنية (المسماة بالمتقدمة) والفقيرة (المسماة بالمتخلفة أو النامية)، وحاولت أن أشرح للطلاب الفكرة الآتية: وهي أن كثيرًا من السلع والخدمات

التي يدخل حسابها في الناتج (ومن ثَم الدخل) القومي للبلاد الغنية قد تقوم الدولة الفقيرة أيضًا بإنتاجها واستهلاكها ولكنها لا تدخل في حساب الدخل القومي لهذه الدولة لأن إنتاجها واستهلاكها يتمان دون دفع أي قيمة نقدية، ومن ثَم يظهر الفرق بين متوسط الدخل في الدولتين، الغنية والفقيرة، أكبر مما هو في الحقيقة. لتوضيح الفكرة للطلبة، ذكرت لهم كمثال ما كنت ألاحظه في صباي وأنا مسافر بالقطار مع والدتي وبعض إخوتي؛ إذ نجلس جميعًا في أحد صالونات الدرجة الثانية، ويتصادف وجود سيدة أخرى غير والدتي ولكنها قريبة منها في السن. تتعرف أمي على السيدة وتبدآن الحديث، وسرعان ما ترتفع الكلفة بينهما فإذا بهما لا تصلان إلى محطة النزول إلا وقد أصبحتا صديقتين. أثناء الحديث تحكي كل منهما للأخرى الكثير من أسرار حياتها العائلية وعلاقتها بزوجها، وقد يتضمن الحديث شكوى كل منهما للأخرى مما تصادفه من زوجها من بعض الصفات، كالبخل مثلًا أو التكبر أو الإهمال أو ضعف العاطفة، إلخ، فتستريح كل منهما إذ تجد أن للسيدة الأخرى تجارب مشابهة وأسبابًا مشتركة للشكوى. قلت لطلبتي إن مثل هذه «الخدمة» التي حصلت عليها كل من السيدتين، من مجرد تبادل الحديث مع راكبة التقت بها بمحض الصدفة، ودون أن تدفع أي منهما ثمنًا ماديًّا مقابل هذه الخدمة، لا تختلف (بل ربما كانت أكثر فعالية) عمَّا يحصل عليه الشخص الذي يذهب لطبيب نفسي في دولة متقدمة، فيطلب منه الطبيب أن يمدد جسمه على الأريكة، وأن يحكي له المشكلة التي يعاني منها، ويكتفي الطبيب بهز رأسه دون مشاركة في الحديث، ثم يكتب له الدواء الذي تدخل قيمته، وكذلك قيمة خدمة الطبيب، في حساب الدخل القومي. مع ملاحظة أن جزءًا من «الدواء» في الحالة الأولى، ربما كان هو مجرد اكتشاف وجود نفس الشكوى لدى «المريض» الآخر، وهو ما لا يحصل عليه المريض للأسف في الحالة الثانية.

لنفترض أن هذا هو السبب الحقيقي (أو أحد الأسباب) في أن بعض المحاضرات تترك أثرًا في النفس (وفي الذاكرة) أكثر من غيرها، فكيف أفسر بهذا عزوفي المفاجئ عن الاستمرار في إلقاء المحاضرات واتخاذ قراري بتوقفي عن التدريس؟ لماذا

وجدت نفسي فجأة أسأل نفسي عند خروجي من المحاضرة: «ما هذا الكلام الفارغ الذي أقوله للتلاميذ؟».

ربما كان السبب هو أنني مع تقدمي في السن (فقد اتخذت هذا القرار بعد أن تجاوزت الخامسة والسبعين) تبين لي أمران: الأول أن حاجتي للربط بين العام والخاص قد زادت عما كانت عليه من قبل، بحيث أصبح من الصعب عليَّ، أكثر مما كان في الماضي، أن أتكلم طويلًا في شرح نظريات أو قواعد عامة أو أفكار مجردة دون أن أقحم تجارب خاصة بي أو مشاعر شخصية فيما أقول، ومن ثَم طرأ لي أنني قد أكون قد اقتربت من دائرة الخطر، حيث لا أستطيع بسهولة التمييز بين ما يمكن وما لا يمكن قوله للطلبة. والأمر الثاني: أنه أيًّا كان المقرر الذي أقوم بتدريسه، فإن هناك حدودًا لا يمكن تجاوزها لهذا المزج بين العام والخاص، وإلا أصبحت المحاضرة أقرب إلى الهزل منها إلى الجد. ربما كان هذا هو السبب في ذلك القرار الذي اتخذته بتفضيل السكوت على الكلام.

* * *

أثناء تفكيري في هذا الأمر تذكرت واقعة طريفة وقريبة مما أتحدث فيه، وتتعلق بنفس الأستاذ الإنجليزي الذي قال لي مرة إن مهنة التدريس تشبه الزواج من امرأة دائمة الشباب. كان «ليونيل روبنز» اقتصاديًّا شهيرًا، وكان من أسباب شهرته، عدا تأليفه كتابًا مهمًّا في تعريف علم الاقتصاد، كُتبه ومقالاته في تاريخ الفكر الاقتصادي، فكان من أهم مَن كتب في هذا الفرع من فروع علم الاقتصاد في الغرب. حازت أيضًا محاضراته في تاريخ الفكر الاقتصادي التي ألقاها في مدرسة لندن للاقتصاد، شهرة واسعة جذبت إليها كثيرين من التلاميذ النجباء من مختلف دول أوروبا ومن الولايات المتحدة، ممن حققوا هم أنفسهم فيما بعد شهرة واسعة.

استمر «ليونيل روبنز» يحاضر في تاريخ علم الاقتصاد حتى بعد أن تجاوز الثمانين من العمر، مما جعل بعض محبيه يشفقون من أن يقتصر المنتفعون بهذه المحاضرات على مَن جلسوا لسماعها، فقرروا تسجيل المحاضرات التي ألقاها قبل وفاته بسنوات قليلة، وإعدادها للنشر. عهدت أرملة «روبنز»

بمسودة هذه التسجيلات لـ«وليام بومول»[1]، أحد تلاميذه المشهورين الذين كانوا قد حازوا جائزة «نوبل» في الاقتصاد، ليشرف على إعدادها للنشر، فلما قرأها وجدها، على الرغم مما رأى فيها من مظاهر الشيخوخة، صالحة جدًّا للنشر، بل ونصح أرملته بأن تنشرها بأقل قدر من التصويبات حتى تظل تحمل روح المحاضِرات وتلقائيتها. ظهر الكتاب وهو يحمل عنوان «تاريخ الفكر الاقتصادي: محاضرات «روبنز» في مدرسة لندن للاقتصاد» وقرأته بشغف، فإذا بي أجد فيه عدة أمثلة تؤيد الفكرة التي ذكرتها حالًا؛ وهي ميل الأستاذ المحاضِر، بعد تقدمه في السن، إلى الاهتمام، أكثر مما كان في الماضي، بالجوانب الشخصية (أو العاطفية)، وكأنه يعتبرها الآن لا تقل أهمية عن الجوانب الفكرية والنظرية. لفت نظري بوجه خاص في محاضرته عن «آدم سميث» (وهو الذي نعتبره أبا علم الاقتصاد ومؤسسه)، فقرة بالغة الطرافة تؤيد هذا المعنى. ذكر «روبنز» في المحاضرة أن الأستاذ النمساوي الشهير «جوزيف شومبيتر»، الذي يعتبر كتابه في تاريخ التحليل الاقتصادي أشهر وأهم حتى من كتب «روبنز»، لم يكن منصفًا في كلامه عن «آدم سميث». كانت عادة «شومبيتر» في كتبه أن يذكر اسم «آدم سميث» ناقصًا، فيذكر اسمه الأول بحرفه الأول فقط «آ. سميث» على غير عادة غيره من الاقتصاديين، وهي عادة كانت فيما يبدو تضايق الاقتصاديين البريطانيين الذين يعتزون بانتساب «آدم سميث» إليهم. ولكن «روبنز» ضايقه أيضًا أن يجد «شومبيتر» يقلل بشدة من أهمية «سميث» ويعتبر أن الهالة التي يحيطها به مؤرخو علم الاقتصاد (وبخاصة البريطانيون) مبالغ فيها جدًّا. قال «روبنز» إن «شومبيتر» قد ذكر في معرض نقده لأفكار «آدم سميث» إنه لا يجد من الغريب ألا يكون إنتاجه الفكري مبهرًا، إذا أخذنا في الاعتبار نمط حياته الشخصية. إذ ما الذي يمكن أن نتوقعه من رجل لم تكن له علاقة تذكر بأي امرأة غير أمه؟ نفى «روبنز» بشدة في محاضرته (وكتابه)

---

(١) William Baumol

أن يكون هذا صحيحًا، وقال إن هناك من المعلومات ما يؤكد أن «آدم سميث» كان له صديقة، وراح يذكر بعض المعلومات عن هذه الصديقة وهذه العلاقة!

قلت لنفسي: ما هي بالضبط أهمية هذا الأمر لطالب يدرس تاريخ الفكر الاقتصادي؟ إن وجود علاقة عاطفية بين «آدم سميث» وامرأة ما أو عدم وجودها، لا يبدو ذا أهمية على الإطلاق في تطور علم الاقتصاد، ولكن يبدو أن الأمر يكتسب أهمية، أكثر فأكثر، كلما اقترب المحاضر من سن الثمانين أو تجاوزها.

٦

الماركسي التائب

عندما قرأت خبر وفاته في باريس، لم أستغرب الخبر؛ فقد كنت أعرف أنه يكبرني بسنوات كثيرة، وكان يبدو لي من المدهش أنه لا زال يكتب بانتظام في جريدة «الأهرام». نُشر الخبر في الصفحة الأولى من «الأهرام»، إلى جانب صورته، مع وصفه بالكاتب والمفكر الكبير، والأستاذ السابق بجامعة «السوربون»، وذكر الخبر أيضًا أنه رأس الجمعية الوطنية للعلوم الاجتماعية بفرنسا.

كانت كل هذه الأوصاف في نظري تعطي انطباعًا عن الرجل، لمَن لا يعرفه، أفضل بكثير من الحقيقة، وقد ظل يعامَل كذلك من كثير من المثقفين الذين لم يعرفوه عن قرب، أو ممن تخدعهم ظواهر الأمور.

لقد سمعت باسمه لأول مرة وأنا لا أزال في مطلع العشرينيات من عمري، أي منذ أكثر من نصف قرن، وتكرر ورود اسمه على سمعي أو فيما قرأت من كتب وصحف طوال هذه الفترة. ثم تعرفت عليه شخصيًّا في أوائل الثمانينيات، ثم تكررت مقابلتي له في الندوات والمؤتمرات، كما تكرر أيضًا اتصاله التلفوني بي، لمجرد التحية أحيانًا، أو للفت نظري لمقال أو كتاب حديث له. وكنت بالفعل أقرأ الكثير مما يكتبه وينشره، وإن كنت نادرًا ما أكمل ما أبدأ في قراءته له، سواء كان كتابًا أو مقالات؛ إذ كنت قد فقدت الثقة فيه كمفكر منذ زمن طويل. وقوَّى هذا الشعور السلبي لديَّ ما لاحظته فيه من صفات شخصية لا تبعث على الإعجاب الشديد. أصبح إذن في نظري خلال العشرين سنة الأخيرة مثالًا جديدًا، يضاف

إلى أمثلة أخرى كثيرة، لأشخاص يحظون بقدر من الشهرة والتبجيل أكبر بكثير مما يستحقون، مما كان يبعث في نفسي دائمًا شعورًا بالأسف على ما تحتويه حياتنا الثقافية من تناقضات وغرائب.

صادفت اسمه لأول مرة عندما شرعت في قراءة كتاب مترجم عن تاريخ الفكر السياسي، لمؤلف ماركسي، وكان صاحبنا هذا هو مترجم الكتاب. لا أنسى شعوري بالإحباط لما بدا لي من صعوبة الأسلوب وعجزي عن فهم ما يريد المؤلف قوله. وحيث إني كنت في نحو العشرين من عمري، أو أكثر قليلًا، ظننت بنفسي الظنون، ولم يخطر ببالي أن العيب قد لا يكون فيَّ أنا بل قد يكون في المترجم أو حتى في المؤلف نفسه. مرت سنوات كثيرة قبل أن أرى الأصل الإنجليزي للكتاب، أثناء إقامتي بإنجلترا، وفوجئت بسهولة أسلوبه وسلاسته، فأدركت أن العيب عيب المترجم وليس عيب المؤلف ولا عيبي أنا.

ولكني قبل أن أكتشف هذا قرأت لهذا الرجل كتابًا آخر، من تأليفه هذه المرة. كان قد صدر بالفرنسية في مطلع الستينيات، وحاز شهرة واسعة، وتكررت الإشارة إليه في الكتب الصادرة عن مصر في عهد عبد الناصر. عندما ظهرت الترجمة الإنجليزية للكتاب قرأته فلم أفهم لماذا حاز الكتاب كل هذه الشهرة. ولم أعرف السبب، هذه المرة أيضًا، إلا بعد سنوات كثيرة عندما بدأت أتبين أن حظوظ الكتب تتوقف على أشياء كثيرة غير جودتها. كان الرجل قد استطاع الهرب من مصر قبل أن يبدأ عبد الناصر في اعتقال الماركسيين، واستقبلت فرنسا كثيرين منهم بالترحاب بسبب اشتداد مشاعر العداوة بين فرنسا ومصر في أعقاب اشتراك فرنسا مع إنجلترا وإسرائيل في الهجوم على مصر في ١٩٥٦، وربما أيضًا بسبب ما كان يقدمه عبد الناصر من مساعدات للثورة الجزائرية ضد الاحتلال الفرنسي. كان لدى كثير من الماركسيين الفرنسيين أيضًا شعور قوي ببغض عبد الناصر لأسباب مختلفة، فقد بدأت معاداة عبد الناصر الصريحة للسوفييت في ١٩٥٩ واعتقاله للشيوعيين، وهاجم بعنف نظام عبد الكريم قاسم في العراق، وقد كان هذا النظام يحظى بتأييد الاتحاد السوفيتي وذا ميل واضح للماركسية.

احتضن الماركسيون الفرنسيون هذا الكاتب المصري كما احتضنوا كثيرين غيره

من الماركسيين، ولا بد أنهم ساعدوهم في الحصول على وظائف يتعيشون منها، من بينها، ولا شك، حصول صاحبنا على وظيفة للتدريس في جامعة «السوربون»، التي ظل اسمها حلية جميلة يتحلى بها اسمه حتى وفاته. ثم تتابعت المواقف والمناسبات التي جعلتني أفقد الثقة فيه أكثر فأكثر. فعندما قام الجيش المصري بعبور قناة السويس في أكتوبر ١٩٧٣، عاد بسرعة من باريس ليعلن فرحته الغامرة بالعبور، وليعلن أيضًا أن دراساته التاريخية أدت به إلى استخلاص أن تقدم مصر كان دائمًا (ومن ثَم سيظل دومًا) مرتبطًا بالدور الذي يلعبه الجيش، وهو موقف استغربت أن يصدر من ماركسي قديم.

كل هذا قد يكون من الممكن الصفح عنه، ولكن الذي يترك أثرًا دائمًا في النفس هو ما قد تكتشفه عندما تتعرف على الرجل وجهًا لوجه، وتتبين فيه صفات شخصية سلبية تمامًا. هذا هو ما اكتشفته في الرجل بعد أن عرَّفني عليه صديق مصري جذبه إليه ادعاؤه فجأة بأنه، رغم ماركسيته، شديد الاحترام للتراث الحضاري للأمة المصرية والعربية، بما في ذلك التراث الإسلامي. كان هذا الموقف في حد ذاته موقفًا غير مألوف من رجل قبطي، لأسباب واضحة لا تتعلق بصحة الموقف أو خطئه، فائدته أو ضرره، بل لأسباب نفسية مفهومة تمامًا في ضوء مركز الأقباط في المجتمع المصري، وميل هذا المركز إلى التدهور في الثلاثين أو الأربعين سنة الأخيرة.

كانت علاقتي به في البداية طيبة، عندما تعرفت عليه أثناء حماسي لفكرة «الاستقلال الحضاري»، وضرورة المحافظة على التراث واحترامه، وعرفت أنه يتخذ موقفًا مماثلًا، وأنه ذو علاقة حميمة بأشخاص كان من بينهم أصدقاء لي أحترمهم ويتخذون هذا الموقف أيضًا. كان هذا في أوائل الثمانينيات ولكني عندما التقيت به المرة بعد المرة مع بعض هؤلاء الأصدقاء أو في ندوة أو أخرى، لاحظت فيه أيضًا صفة لا أحبها، وهي الاستعداد الدائم للكلام، ولالتقاط أي طرف من الموضوع المثار ثم الاسترسال في الحديث عنه دون أن يبدو أنه فكَّر فيه مدة كافية. وجدت من الممكن تشبيهه بالراديو المفتوح الذي ينطلق منه الكلام بلا انقطاع، ولا يمكن إيقاف الكلام إلا بإغلاقه، أو في حالتنا هذه بالانصراف عنه

بعذر أو آخر. كان في شخصيته مزيج لا يبعث على الإعجاب، من الغرور وخداع النفس وحب المال والحرص الشديد عليه، والإلحاح المثير للأعصاب حتى يحصل على ما يريد. وعندما اكتشفت فيه هذه الخصال أكد هذا لي ما كان قد اعتراني من شك في قلة إخلاصه لما يقول، وأن الأمر كله مصطنع، ووراءه أهداف أخرى غير خدمة القضية النبيلة التي يدافع عنها.

ثم اتضحت لي هذه الأهداف الأخرى بالتدريج ولكن بشكل لا يقبل الشك. كان في فترة ما على علاقة وثيقة بجامعة الأمم المتحدة في طوكيو، وأظن أنه قام بالتدريس فيها (لا بد أن كان ذلك بدوره نتيجة إلحاح منه على بعض معارفه من ذوي النفوذ لدى هذه الجامعة) وتسلمت خطابًا منه بدعوتي لترجمة كتاب ذي موضوع يتصل باهتماماتي في ذلك الوقت، وبتكليف من تلك الجامعة. رددت عليه ردًّا إيجابيًّا أبدي فيه استعدادي للقيام بهذه المهمة. فأرسل إليَّ التفاصيل، وإذا بي أفاجَأ بأن العقد الخاص بالقيام بالترجمة سيُجرى توقيعه بين جامعة الأمم المتحدة وبينه هو وليس بينها وبيني، وأن معنى قبولي أن أقوم أنا بالمهمة، أن يقبض هو مكافأتها، على أن يعطيني منها ما قد يتكرم به، وأن تصدر الترجمة أيضًا حاملة اسمه لا اسمي. يبدو أن نشاطه الجم كان يؤدي إلى انشغاله بأعمال كثيرة، ولكنه لا يتورع عن قبول ما لا يستطيع عمله إذا كانت مكافأته مجزية، فيتصرف كالمقاول الذي يكلف غيره بالعمل ويستأثر هو بمعظم الربح. عندما أرسلت له اعتذاري أبدى استغرابًا، وربما كان محقًّا في هذا الاستغراب، إذ سمعت من أحد أصدقائي أنه قبِل أن يقوم بما رفضته. وعندما عبرت لصديقي هذا عن استغرابي أنا، قال إن زوجته التي تجيد الإنجليزية لديها من الوقت ما يسمح لها بالقيام بالمهمة بدلًا منه.

كان يدهشني اتصاله بي بالتلفون بين حين وآخر، بلا مناسبة، وتأكيده المتكرر لضرورة استمرار علاقتنا، وتعبيره عن أسفه لأننا لا نلتقي بما فيه الكفاية رغم اتفاق أفكارنا، أو لدعوتي لحضور صالون فكري ينعقد في بيته كل شهر أو كل أسبوع. وكنت أحاول إنهاء المكالمة في أقصر وقت ممكن، بعد أن فقدت أي ثقة في إخلاصه لما يقوله أو يكتبه، أو فيما يقوله عن إعزازه وتقديره المزعوم لي.

لا بد أن إلحاحه على المسؤولين عن جريدة «الأهرام» المصرية كان هو السبب في أنه أصبح يكتب مقالًا دوريًّا، كل أسبوعين، واستمراره في كتابة هذه المقالات رغم تجاوزه الخامسة والثمانين وأنه لم يكن لديه في الحقيقة شيء يستحق أن يُكتب أو يُنشر. كنت أرى مقاله منشورًا فأقرأ من السطور ما يكفي لمعرفة موضوعه ثم أنصرف عنه. صحيح أنه كتب مرة مقالًا في الثناء على أحد كتبي (لا شك أنه كتاب «ماذا حدث للمصريين؟») واتصل بي تلفونيًّا قبل نشره لينبهني إلى أنه سينشر مقالًا عني بـ«الأهرام». سرني بالطبع أن ينشر هذا الثناء في جريدة واسعة الانتشار، ولكني عندما قرأت المقال لم أجد فيه أي معنى جديد، ولا أي دليل على الألمعية والذكاء، فضلًا عن أني تمنيت بالطبع أن يكون كاتب المقال شخصًا غيره.

٧

ماركسي لا يتوب

ها هو ذا مفكر مصري آخر، بدأ أيضًا ماركسيًّا ولكنه ظل ماركسيًّا ولا يزال كذلك، وقد تجاوز عمره الخامسة والثمانين. يعجبني فيه هذا الثبات على المبدأ، من الناحية الشخصية البحتة، وإن كان لا يعجبني هذا من الناحية الفكرية، فالدنيا قد تغيرت كثيرًا منذ كتب «كارل ماركس» كتبه، ولا يكفي مجرد إعطاء كتابات «ماركس» تفسيرًا جديدًا أو حتى رفض فكرة ماركسية صغيرة هنا أو هناك. أظن أن ما حدث في العالم خلال المائة والخمسين عامًا الماضية يكفي لتعديل شامل للماركسية، بل ولرفض أجزاء مهمة فيها رفضًا كاملًا. ولكن المزاج العقلي لسمير أمين لا يسمح بهذا فيما أظن. المسألة لا تتعلق بخطأ في الفهم، بل تتعلق (كما أميل إلى الاعتقاد دائمًا) بالمزاج العقلي والتركيب النفسي.

قابلت سمير أمين لأول مرة في مدينة أفريقية، لم أكن قد زرتها من قبل ولا أعتقد أنني سأراها مرة أخرى، وهي مدينة دار السلام عاصمة تانزانيا. كانت تانزانيا في ذلك الوقت (١٩٦٩) تعتبر من أفقر دول العالم، إن لم تكن أفقرها على الإطلاق. وقد عقدتُ فيها ندوة لمناقشة موضوع غير مألوف وهو «تدريس علم الاقتصاد في أفريقيا». لا أدري من أين جاءتني الدعوة للاشتراك في هذه الندوة ولكني رحبت بها، فقد كانت فرص رؤية دولة أفريقية نادرة في ذلك الوقت، كما أنه كانت لديَّ بعض الأفكار التي لا بأس بها عما يجب أن يكون عليه تدريس الاقتصاد في أفريقيا.

كان سمير أمين وقتها اسمًا معروفًا لاقتصاديي العالم الثالث، خاصة بين اليساريين منهم، لما نشره من كتب تنطوي على بعض التطوير والإضافات للأفكار الماركسية. وقد كان هذا شيئًا مهمًّا في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، بعد قيام «خروشتشوف»، الزعيم السوفيتي، بتوجيه نقد عنيف للستالينية، وقبل أن تبدأ مظاهر الضعف في الظهور على أحوال الاتحاد السوفيتي الاقتصادية والسياسية، ثم بداية انحسار مركزه في العالم. كان من المهم جدًّا في ذلك الوقت أن يحدد الشخص اليساري موقفه من الفكر الماركسي، وهو ما فعله سمير أمين بنشاط وكفاءة ملحوظين، فضلًا عن نشره كتابًا في أوائل الستينيات، يتضمن نقدًا شديدًا للسياسة الناصرية، من وجهة النظر الماركسية، وظهوره باسم مستعار في فرنسا التي لجأ إليها سمير أمين هاربًا من مصر عندما بدأ عبد الناصر في اعتقال الماركسيين في ١٩٥٩.

كان سمير أمين عندما جاء إلى تانزانيا في ١٩٦٩ يشغل منصبًا مهمًّا في داكار (عاصمة السنغال) حيث كان يرأس مركزًا لبحوث التنمية والتخطيط في أفريقيا، فكان بلا شك مؤهَّلًا للحديث عما يجب أن يكون عليه تدريس علم الاقتصاد في أفريقيا. وقد وجدته بالفعل متكلمًا فصيحًا ومؤثرًا، ذا أفكار كثيرة نيرة، ويعبر عنها بثقة كاملة بالنفس. وجدته أيضًا، خارج جلسات الندوة، شخصًا ودودًا مرحًا ومحبًّا للحياة. ظهر مرة وهو يرتدي قميصًا مزركشًا ذا ألوان صارخة، مما تجده في الأسواق الأفريقية أكثر مما تراه في بلد عربي، واستبقني قبل أن يصدر مني أي تعليق على القميص، بأنه يعرف جيدًا ما سوف يطلق عليه من أوصاف لو سار به في شوارع مصر، ولكنه لحسن الحظ ليس في مصر الآن.

لم أكن في ذلك الوقت قد قرأت أي شيء من كتابات سمير أمين، ولكني منذ أن تعرفت عليه حرصت على قراءة أي شيء تقع عليه يدي مما يكتب. لقد ظل منذ ذلك الوقت وحتى الآن غزير الإنتاج، ولكنه لا يكتب عادة بالعربية. لاحظت أنه لا يشعر بالارتياح تمامًا في التعبير عن نفسه إلا بالفرنسية. ومن ثَم كان معظم ما قرأت له مترجمًا إلى الإنجليزية أو العربية، وكثيرًا ما وجدت الترجمة العربية لأعماله ركيكة أو غير دقيقة، فقد كان يقوم بها غيره دائمًا،

وربما لم يلاحظ هو ما يعتريها من ركاكة أحيانًا، أو بُعد عن الدقة، أو لم تكن لديه وسيلة لتجنبها.

كنت أحرص على قراءة كتاباته لتوقعي دائمًا أن أجد فيها شيئًا به بعض الجدة، وإن كنت أشعر بأنه ملتزم أكثر من اللازم بالقيود الماركسية وأتمنى لو خرج عنها بدرجة أكبر. لا زالت المشكلة الطبقية مشكلة حقيقية في كل مجتمع في العالم، ولا زال هناك الكثير مما يمكن قوله عما يوجد بين مصالح الطبقات الاجتماعية من تضاد، ولكن الأمر الآن لم يعد أبيض وأسود مثلما كان في وقت «ماركس». لقد تعقدت الحياة الاجتماعية كثيرًا، وتغيرت صور الاستغلال والقهر، فأصبح المستهلك أكثر خضوعًا للقهر من العامل في المصنع، واتسع نطاق العولمة اتساعًا مدهشًا منذ «ماركس»، وتقدمت بشدة وسائل الاتصال ونقل المعلومات والأفكار، فاشتدت قدرة المتحكمين في الإعلام على غسل عقول الناس، وتغيرت بالتالي طبيعة الطبقة الخاضعة للاستغلال، بل من المشكوك فيه أن من المفيد تسميتها بـ«الطبقة» أصلًا. وانضمت شرائح واسعة من العمال إلى شرائح المستفيدين من النظام، بل وإلى ممارسي القهر والاستغلال؛ إذ لم يعد النموذج المثالي «للعامل»، هو ذلك العامل اليدوي البسيط الواقف وراء الآلة، بل تحول في كثير من الأحيان إلى موظف ذي ياقة بيضاء وقد يصل إلى المصنع في سيارة صغيرة. لم تعد أهم صور الانقسام في المجتمع هي انقسامه بين طبقة تبيع قوة عملها لأنها لا تجد سبيلًا آخر لكسب الرزق، وطبقة تعيش على استثمار رأس المال، بل تعددت صور الخاضعين للقهر فشملت كثيرين ممن يملكون أسهمًا وسندات، وتعددت صور ممارسي القهر فشملت مَن يمارس القهر باستخدام «قوة عملهم»، إلخ. والاستغلال الاقتصادي لم يعد بالضرورة أهم صور القهر، فهناك أيضًا القهر الثقافي، كقهر الهوية وقهر اللغة القومية. ولم يعد الفقر أفظع صور الاغتراب، بل أصبح الإفراط في الاستهلاك صورة مهمة لهذا الاغتراب، إلخ.

حكى لنا أبي مرة القصة الطريفة الآتية، والتي أعتقد الآن أنها قد تنطبق بدرجة أو أخرى على سمير أمين: ذهب طفل صغير إلى المدرسة لأول مرة فسمع المدرس وهو يشرح للتلاميذ حرف الألف وكيفية كتابته ونطقه. وأعجب الطفل بهذا الحرف

وشكله، وظل مدة طويلة يفكر فيه. ثم انتقل المدرس إلى الحرف التالي: الباء. ولكن الطفل ظل يفكر في حرف الألف ولم يستمع إلى ما يقوله المدرس عن حرف الباء، ولا عن أي حرف آخر. استمر حرف الألف يسيطر على ذهن الطفل فمنعه من التفكير في أي شيء آخر. عندما أدرك المدرس عجز الطفل عن استيعاب الحروف الأخرى، طرده من المدرسة، فسار الطفل في الغابة، وهو لا يزال يفكر في «الألف»، ورأى شجرة فإذا به يرى فيها حرف الألف، وإن كان قد لاحظ اختلافًا طفيفًا بينها وبين شكل الألف، في أعلى الشجرة. ثم رأى نهرًا فرأى فيه أيضًا حرف الألف، وإن كان ممدودًا أفقيًا بدلًا من امتداده رأسيًا. وهكذا أخذ يفسر كل ما يراه بحرف الألف حتى ذاع صيته وصار من أكبر مفكري عصره.

خطر لي أن بهذا بعض الشبه بحالة سمير أمين: لا يريد أن يتخلى عن هذا الحرف الوحيد لمجرد أنه استولى على إعجابه وتقديره في أحد الأيام، فلم يستطع أن يرى في العالم الواسع إلا صورًا مختلفة لحرف الألف. إن سمير أمين يكاد يذكر الماركسية، بطريقة أو بأخرى، في كل فقرة يكتبها، صراحة أو ضمنًا. الماركسية في دمه وعظامه، وحتى إذا بدا وكأنه على استعداد أحيانًا لانتقاد فكرة أو أخرى من الأفكار الماركسية، فهو بلا شك ابن الماركسية المخلص الذي يمكنه أن يعاتب أمه عتابًا رقيقًا ولكنه لا يمكنه أبدًا أن يخونها أو أن يتمرد عليها. وقد دفعه هذا الموقف النفسي ليس فقط إلى التقليل من شأن عوامل أخرى لا تلقي الماركسية لها بالًا، ولكن أيضًا إلى المبالغة في التفاؤل، شأن معظم الماركسيين، وكأن الثورة الاشتراكية دائمًا على الأبواب، لا تنتظر إلا دفعة بسيطة لتصبح واقعًا.

* * *

ثم ظهر لسمير أمين كتاب باللغة العربية بعنوان «مذكراتي» (ترجمة سعد طويل، دار الساقي، ٢٠٠٦)، وكان لا بد أن أسرع باقتنائه وقراءته، أملًا في أن أعرف أكثر عن ظروف نشأته، فربما وجدت فيها تفسيرًا لهذه الظاهرة التي أثارت دهشتي وإعجابي، أي ظاهرة سمير أمين نفسه. ولم يخب ظني.

سمير أمين ابن لطبيبين: أب مصري قبطي وأم فرنسية. قضى طفولته في بورسعيد وتلقى تعليمه كله بالفرنسية، في مصر أولًا ثم في فرنسا. هذه نشأة

تكوِّن تربة ممتازة بلا شك لنمو رجل عالمي النزعة، لا ينحصر فكره في نهضة دولة بعينها بل يتجه إلى إصلاح العالم ككل. يروي سمير أمين أنه كان يسير مرة مع أمه في أحد الأحياء الشعبية فرأيا طفلًا فقيرًا يبحث في صندوق القمامة عن شيء يأكله، فلما سأل سمير أمين أمه لماذا يفعل الطفل ذلك، قالت الأم: «لأن المجتمع سيئ ويفرض ذلك على الفقراء»، فكانت إجابة سمير أمين: «سوف أغيِّر هذا المجتمع». وردَّت أمه: «هذا واجب». يحكي أيضًا أنه بعد مرور أربعين عامًا على هذه الواقعة، قابل الكاتب الماركسي الشهير «أندريه جوندار فرانك» والدته فسألها: «متى أصبح سمير أمين شيوعيًّا؟»، فأجابته برواية هذه القصة وأضافت: «كما ترى، منذ سن السادسة!».

* * *

من الممكن أيضًا أن تلقي هذه النشأة بعض الضوء على الاتجاه الذي اتخذته أفكار سمير أمين الاشتراكية، وأقصد على الأخص ميله الدائم إلى النظرة العالمية في تحليل الواقع، وفي التنبؤ بالمستقبل على السواء. فرسالته للدكتوراه عن «التراكم الرأسمالي على مستوى العالم» لا تتعلق باقتصاديات دولة بعينها، وأهم مساهمات سمير أمين الفكرية تلك التي تتعلق بالعلاقة بين المركز والأطراف (التي تسمى أحيانًا بالعالم الثالث) بما خضعت له من استغلال من دول المركز (وهي الدول الصناعية المتقدمة). ونشاط سمير أمين السياسي طوال حياته منتشر في بلاد مختلفة من بلاد العالم الثالث. هو مصري ولكنه عمل لسنوات كثيرة في خدمة قضية التنمية والتخطيط في أفريقيا السوداء. وهو لا يعتبر نشاطه في خدمة الأفارقة مستقلًّا عما يفعله أقرانه لخدمة قضايا مماثلة في آسيا أو أمريكا اللاتينية.

ولكن ظروف نشأة سمير أمين قد تلقي أيضًا بعض الضوء على موقفه الحاد من قضية «الخصوصية الثقافية» أو «الهوية» أو «الأصالة»، التي يعلق عليها بعض الكُتاب اليساريين (وغير اليساريين) أهمية كبيرة، سواء كوسيلة لتعبئة الناس للمقاومة والنهضة، أو كهدف أساسي من أهداف هذه النهضة. فسمير أمين يعبر بصراحة في كثير من كتاباته عن نفور شديد من الحديث عن الخصوصية الثقافية. إنه يرى في

إلغاء الاستغلال الاقتصادي نهاية المطاف وغاية المنى، ويؤمن إيمانًا قويًّا بوحدة الحضارة الإنسانية التي لا بد أن تصب فيها في النهاية مختلف الخصوصيات الثقافية. ولكني أشعر بعد التعرف عليه شخصيًّا، وبعد معرفتي بظروف نشأته، أن وراء هذه المواقف شيئًا غير مجرد الاستماع إلى صوت العقل، ومقارنة الحجج بحجج أخرى.

على أي حال، لقد فرضت ظروف الحياة على سمير أمين أن يعيش «رجلًا عالميًّا» بصرف النظر عن أفكاره. ففي أواخر الخمسينيات، نشطت السلطات المصرية في تعقب الشيوعيين وإيداعهم السجون، ولم ينجُ سمير أمين من خمس سنوات من السجن إلا بأعجوبة؛ إذ تصادف، كما يروي هو في كتابه:

> أن ضابط الشرطة المكلف (بالقبض عليه)، واسمه طه ربيع، كانت له ابنة أنقذتها أمي من الموت، وكان يشعر بأن عليه رد الجميل. فوضع أمر الاعتقال في درج مكتبه وأغلقه بالمفتاح. وقال لي إن لديه عملًا طوال النهار وإنه سيعود لمكتبه في المساء لفحص البريد. وفهمت المعنى المقصود.

وبناء على هذه المعلومات نظم والد سمير أمين مع قبطان إحدى سفن البضائع أن يأخذ ابنه معه، وكانت النتيجة أن قضى سمير أمين أكثر من عشرين عامًا لا يستطيع فيها أن يطأ بقدمه أرض مصر.

٨

رجل يعرف قدر نفسه

يخطر لي كلما تذكرته أنه ربما كان يفهم الناس والحياة أكثر منا جميعًا، إذ ما سر نجاحه الهائل في تحقيق ما يصبو إليه، واستمرار تألقه على مر العصور، مهما تغيرت العهود، واستمرار رضا الحكام عنه، الواحد بعد الآخر، مع اختلاف ميولهم وسياساتهم؟

كل هذا صحيح، ولكني أقول لنفسي أيضًا إن المرء قد يحتاج إلى أكثر من الفهم لتحقيق كل هذا النجاح. هناك فيما يبدو خصلة أخرى ضرورية، كانت تتوفر فيه أيضًا، وهي اللامبالاة برأي الناس فيه. لم يكن من الممكن أن يستمر في تغيير جلده ولونه مع اختلاف العهود السياسية، والتعاون مع كل هؤلاء الحكام المختلفين، لو كان يعلق أي أهمية على رأي الناس في هذا التقلب والتلوُّن.

كانت هذه اللامبالاة بما قد يظن الناس به، تبدو على ملامح وجهه. فملامحه كانت تبدو لي قاسية تنم عن قلب من صخر. قد يضحك ويسخر ويجامل، ولكن ضحكه كان يبدو وكأنه لا ينبع من شيء أبعد من حنجرته. والسخرية لا تقترن بأي تعاطف، وعبارات المجاملة لا يقصد بها تكوين صداقة أو استدرار الحب، فلا الصداقة ولا الحب يعنيانه في الحقيقة، وإنما يقصد بها تحقيق مصلحة مباشرة، ولا يهمه ما إذا كنت تدرك أو لا تدرك ما يريد تحقيقه.

عرفته منذ سنوات طويلة بسبب صداقته لبعض أصدقائي، ثم تكررت مقابلتي له على فترات متباعدة، حتى بعد أن فهمته وعرفت طريقة تفكيره ونظرته للناس

والحياة، فلاحظت عليه شيئًا لم ألاحظه بهذا الوضوح في أي شخص آخر عرفته، وهو زيادة ملامحه قسوة في كل مرة عنها في المرة السابقة، وكأن تتابع المواقف التي اتخذها قد اضطرته إلى أن يزداد صلابة وقسوة، وانعكس هذا في ملامح وجهه. كانت آخر مرة رأيته فيها وجهًا لوجه في طائرة في طريقها من شرم الشيخ إلى القاهرة. كنت عائدًا بعد إلقاء محاضرة على بعض موظفي الشركة البريطانية للبترول، فحجزت لي الشركة مكانًا في الدرجة الأولى (مما يندر أن أحصل عليه) ودخل هو الدرجة الأولى بصحبة رجل أعمال شهير، ورآني جالسًا أحاول تجنب التقاء عيني بعينيه، ومتظاهرًا بأني لم أره، بسبب تصرف قديم له معي لا يمكنني أن أنساه، وسوف أروي قصته بعد قليل. ولكنه لم يدع هذا يصرفه عن المجيء إليَّ لتحيتي. فاجأني بقوله: «أنا أعرف أنك لا تحبني. ولكني أريد أن أخبرك أن زوجتي تحب أن تقرأ لك. وقد طلبتْ مني أن أحضر لها كتبك». لم أدرِ بماذا أجيبه، فقد كان هذا هو فعلًا شعوري نحوه، ولم يدهشني أنه كان يعرف ذلك، وإن كان قد أدهشني إصراره على السير إليَّ رغم ذلك لتحيتي.

لم أره منذ هذه المقابلة، ولكن اسمه وصورته لم ينقطع نشرهما في الصحف، ولا انقطع عن الظهور على شاشة التلفزيون معلقًا على مختلف الأحداث. وكنت أفسر هذا بإصراره على التواجد المستمر في الحياة السياسية والثقافية في مصر، سواء كان لديه ما يقوله أو لم يكن، إدراكًا منه لحقيقة لا شك فيها وهي أن ذيوع الصيت، أيًّا كان سببه، يزيد من الطلب عليه، مما يجلب له مزيدًا من الشهرة والمال، ويزيد من فرصة حصوله على السلطة أيضًا. ظننت لفترة قصيرة أن قيام ثورة ٢٥ يناير سوف يضع حدًّا لانتشاره على هذا النحو، ولهذا النجاح الذي استمر من عهد عبد الناصر إلى نهاية عهد مبارك، ولكن ثبت خطئي؛ إذ لم يفُت في عضده ما كان بينه وبين نظام مبارك من علاقات وثيقة، ولم يكن صعبًا عليه أن يجد الكلام المناسب عن الثورة مما يمكن نشره وإذاعته، دون أن يتعارض لا مع شعارات الثورة الجديدة، ولا مع تاريخه العتيد في خدمة النظام الذي أسقطته الثورة.

* * *

ما هو ذلك الحادث المدهش الذي جرى بيني وبينه ولم أستطع نسيانه؟ كان هذا

في أوائل الثمانينيات، عندما كنت أدرس في الجامعة الأمريكية، وكان هو يشغل منصبًا كبيرًا في هيئة ذات علاقة وثيقة بجهاز المخابرات. كان له ولد وبنت. درَّست أحد المقررات للولد الأكبر وكان ذكيًّا ومجتهدًا وحصل مني على درجة طيبة. ولكن البنت بدت لي مختلفة عنه. كانت تجلس دائمًا في الصف الأخير ولا تكاد تكتب شيئًا مما أقول، بينما كان أخوها يجلس دائمًا في الصف الأول ولا يحب أن تفوته كلمة مما أقول دون أن يدونها. تكوَّن لديَّ شعور أولي بأن البنت ليست على نفس الدرجة من الاهتمام بالعلم مثلما كان أخوها، ولكن لم أكن أعرف عنها أي شيء أكثر من ذلك. ثم جاء موعد أول امتحان، بعد نحو خمسة أسابيع من بداية التدريس، وحملت كراسات الإجابة معي إلى البيت، عازمًا على بدء التصحيح في اليوم التالي، فإذا بي أُفاجَأ بمجرد دخولي البيت بمكالمة تلفونية. عندما رفعت سماعة التلفون سمعت المتكلم يصف نفسه بأنه من تلك الهيئة الخطيرة، وطلب مني الانتظار لحظة ثم جاءتني خلالها قطعة من الموسيقى، ثم جاء صاحبنا هذا الذي أتكلم عنه على الخط وإن لم أستطع أن أخمن أي سبب للمكالمة. بدأ الكلام بالتعبير عن المودة والأشواق، ثم الكلام في موضوعات عامة لا يمكن أن يكون الحديث فيها هو الدافع للمكالمة.

ثم جاءت المفاجأة الكبرى، بدأ فجأة يتكلم بالعربية الفصحى وكأنه يقرأ من شيء مكتوب أمامه، وقد كان بالفعل يقرأ، ولكن الكلام الذي يقرأه أشبه بتقرير كتبه مخبر سري يدوِّن فيه ما يعرفه عن حياتي بأدق تفاصيلها. وجدته مثلًا يقرأ: «إنه (أي أنا) كانت لديه خادمة، وسافرت معه ومع زوجته إلى بيروت وماتت هناك». فعلًا، هذا حادث حقيقي. ولكن ما أهميته لكي يُكتب في تقرير سري عني؟ لحسن الحظ أن الواقعة لم تتضمن شيئًا يشينني، فقد ذكر التقرير، طبقًا لما قرأه عليَّ أنني عندما عدت من لبنان دفعت لزوج الخادمة مبلغًا من المال يساوي مرتبها كاملًا لمدة عام تالٍ لعودتي. ما فعلته مشرِّف إذن وليس فيه ما يدعو إلى الخجل، ولكن ما الدافع إلى كتابته في تقرير مباحثي؟ عندما فكرت في الأمر بعد انتهاء المكالمة رجحت الآتي: كان هناك رجل قروي الملامح كثيرًا ما أراه في شارعنا راكبًا دراجة، كما رأيته أكثر من مرة خارجًا أو داخلًا قسم الشرطة بالمعادي. ورجحت وقتها أنه يشتغل في خدمة المباحث. مثل هذا الرجل لا بد أنه يقف بين الحين والآخر لتبادل

الحديث مع خدم المنازل (أو البستاني في حالتي) فيسألهم عما يعرفونه عن هذا الرجل أو ذاك ممن يريدون جمع معلومات عنهم. لا بد أن البستاني الطيب قد ذكر له قصة الخادمة التي ماتت في بيروت وكيف عاملت زوجها بعد وفاتها، وربما ذكر هذه الواقعة له من باب التدليل على أن «الدكتور رجل طيب، بدليل...».

كان هذا هو كل ما قرأه عليَّ الرجل في مكالمته، وقد وقع عليَّ هذا كالصاعقة، وعندما انتهت المكالمة واستعدت ما حدث في ذهني لم أصدق أن مثل هذا يمكن أن يحدث، إنه يريد بلا شك أن يخبرني، بصريح العبارة، أن أمامه تقارير مخابراتية تحتوي كل شيء عني (أو هكذا يريدني أن أعتقد). لقد ذكر لي واقعة بسيطة لا غبار عليها ولكن لا شك أنه يعرف أيضًا كل أخطائي، وما ارتكبت من حماقات لا أريد أن يعرفها أحد. وها هو الآن يقول لي ما معناه أنه يعرف هذه أيضًا. أليس من الأجدر إذن إرضاؤه وعمل كل ما يطلبه مني ولو تعلق برفع درجة ابنته في الامتحان؟

ختم المكالمة بنغمة مختلفة تمامًا. فقد سألني عما إذا كنت أرغب في التدريس في أحد المعاهد (التي تدفع مكافآت لا بأس بها للمحاضرين فيها)، وأن من السهل جدًّا عليه أن يرتب ذلك.

لم ألقِ بالًا بالطبع لهذا العرض الكريم؛ إذ كنت لا زلت في حالة ذهول بسبب ما كان يقرأه عليَّ منذ لحظة. وانتهت المكالمة على ذلك. ولكني نقلتها حرفيًّا إلى أخي حسين، فأحدثت المكالمة نفس الأثر على حسين مما دفعه إلى توبيخه في أول فرصة يقابله فيها: «ما هذا الذي فعلته مع أخي جلال؟».

دافع عن نفسه بالقول بأنه لم يكن لديه أي غرض مما قد يخطر ببالنا، وأن المكالمة كانت لغرض ودي بحت، مع بعض المداعبة، واستغرب أني اعتبرت كلامه عن التدريس في ذلك المعهد نوعًا من أنواع الرشوة بالذهب، التي تضاف إلى سيف المعزِّ.

ظللت فترة طويلة لا أستطيع أن أراه أو أتذكره، دون أن تعود إلى ذهني ذكرى هذه المكالمة. وها هو الآن يعرف بالطبع نوع شعوري نحوه، ولكن ما حدث، ومعرفته بشعوري، لم يتركا أي أثر على سلوكه نحوي؛ فها هو يقابلني بعد ذلك

بنفس العبارات ونفس الترحيب، من نوع ما ذكرته منذ قليل عن طريقة مقابلته لي في الطائرة.

بعد بضع سنوات حكيت القصة لصديق لي، وهو أديب مرموق يعرف هذا الرجل جيدًا ويلتقي به بين الحين والآخر في ندوة أو حفلة عشاء. قال لي الصديق الأديب إنه كان معه منذ أيام قليلة في حفلة عشاء، فإذا به يذهب إلى الأديب لمحادثته. وإذ لاحظ من الأديب بعض الجفاء قال له بمنتهى الصراحة: «أنا أعرف أني أرتكب أحيانًا أعمالًا سيئة، ولكنك لا تعرف حلاوة السلطة؛ فإذا جربتها وعرفتها فهمت لماذا أتصرف على هذا النحو».

سألت نفسي عما إذا كان هذا هو بالضبط سر قوة الرجل واستمرار نجاحه من عهد إلى عهد. إنه يعرف جيدًا قدر نفسه، ويقبلها كما هي، ولا يجد أي غضاضة فيما يعرفه عنها.

٩

طظ يا عباس

كان اسم طه حسين طوال سنوات صباي وشبابي، يتردد باستمرار في الصحف والمجلات مقترنًا دائمًا بالاحترام وباعثًا على الرهبة، كما كان اسمه يتردد كثيرًا أيضًا في بيتنا، لكثرة ما كان يرويه أبي عنه من أخبار ونوادر.

كان بلا شك أكبر أديب عربي حتى توفي في سنة ١٩٧٣ وهو في الرابعة والثمانين، وبعد أيام قليلة من حرب أكتوبر، فنعاه توفيق الحكيم بقوله إنه لم يمت إلا بعد أن اطمأنت نفسه بعبور المصريين قناة السويس، لاسترداد سيناء المحتلة.

لم يشغل طه حسين منصبًا سياسيًّا إلا لأقل من سنتين عندما اختاره مصطفى النحاس وزيرًا للمعارف في ١٩٥٠، ولكنه أصبح بسرعة أشهر وزير، بتوسيعه نطاق مجانية التعليم حتى نهاية الدراسة الثانوية، وبجملته البليغة في تبرير ذلك «العلم كالماء والهواء» التي استخدمها بعده كل مُدافع عن مجانية التعليم.

كان بلا شك يتمتع بقدر من الفصاحة في الكتابة والحديث بالعربية الفصحى، يفوق ما كان لأي كاتب آخر من جيله، كما كان أكثرهم جرأة في تحدي الآراء المألوفة في الأدب، بل وبعض الآراء الدينية السائدة. ضمن له ذلك الشهرة ولكتبه الذيوع والانتشار، فتردد وصفه بأنه «عميد الأدب العربي»، مثلما شاع وصف أم كلثوم بـ«كوكب الشرق». كان أيضًا أقرب إلى نبض الجماهير من غيره من كُتاب جيله مما قربه بشدة من حزب الوفد؛ أكثر الأحزاب المصرية شعبية. وأثار طه حسين نفور القصر الملكي منه، خاصة بعد أن نشر كتاب «المعذبون في الأرض»،

في منتصف الأربعينيات، عندما اشتد ساعد الاتجاهات اليسارية والاشتراكية في مصر، فاعتبره القصر من مؤيدي «الأفكار الهدَّامة»، وحرم من تولي الوظائف العامة مدة طويلة، حتى اضطر الملك إلى تكليف الوفد بتشكيل الحكومة في ١٩٥٠.

كان فضلًا عن ذلك، وبلا شك، شخصية قوية للغاية، حاسمًا في التعبير عن آرائه وفي اتخاذ القرارات، وذا صوت عميق مؤثر في النفس، ولا يمكن أن تخطئه الأذن، إذا سمع في أحاديثه في الإذاعة، ويجبر المستمع على الإنصات إليه. كان قادرًا بسبب كل هذه الصفات، حتى وهو بعيد عن المناصب الكبيرة، على التأثير في أصحاب السلطة، فيحصل منهم على القرارات التي يرغب فيها، والتي كان كثيرًا ما يطلبها لمساعدة مثقف تعرض للظلم من الحكومة بسبب آرائه السياسية أو مواقفه المعارضة للسلطة. سمعت أمثلة كثيرة لهذا من مثقفين معروفين (كعبد العظيم أنيس ومحمود العالم ومحمد عودة)، لم يكونوا يتفقون في الرأي مع طه حسين في أمور مهمة، بل وكتب بعضهم كتبًا أو مقالات في نقد أفكاره، ولكنه تدخل لدى الحكومة لرفع الظلم عنهم، عندما اقتنع بعدالة مطالبهم، وظفر بما أراد بسبب ما يتمتع به اسمه من رهبة لدى الجميع.

* * *

كانت علاقة أبي، أحمد أمين، بطه حسين ذات أهمية كبيرة في حياة أبي، وظلت كذلك حتى بعد أن وقع بينهما الخصام، وأصاب علاقتهما البرود، الذي استمر حتى وفاة أبي في ١٩٥٤. كانا شخصيتين مختلفتين جدًّا في المزاج، كما كانا في أسلوب الكتابة. كان طه حسين يهتم، كما هو معروف، بجمال الأسلوب أكثر مما يهتم بغزارة المعنى، وكانت طريقة أبي في الكتابة عكس ذلك بالضبط. أذكر أن أبي ذكر لنا مرة، دون أن يخفي سروره، أن بعض تلاميذه قالوا له إنهم عندما يريدون تلخيص محاضرات أو كتابات طه حسين، يجدون أن الصفحة الكاملة يمكن تلخيصها في جملة أو جملتين، بينما يجدون استحالة ذلك مع كتاباته هو، وذكروا تشبيهًا لما يكتبه طه حسين بـ«غزل البنات»، من حيث سهولة ضغطه واختصاره. ومع ذلك فقد ظل الرجلان، أبي وطه حسين، يعرف كل منهما للآخر فضله على الأدب والتعليم والحياة الاجتماعية في مصر بوجه عام. كتب أبي فصلًا مؤثرًا عن

طه حسين في كتاب سيرته الذاتية «حياتي»، كما كتب طه حسين عن أبي مقالًا مؤثرًا في رثائه.

عندما دخل أبي المستشفى لإجراء عملية خطيرة في عينيه، استلزمت رقاده شهرًا دونِ حراك، وهو مغمض العينين، زاره طه حسين، رغم أن علاقتهما كانت قد فقدت كثيرًا من قوتها السابقة. وقد وصف أخي حسين في فصل له عن طه حسين (في كتابه: «شخصيات عرفتها»، دار العين للنشر، ٢٠٠٧)، المنظر الذي جمع الرجلَين في حجرة أبي بالمستشفى، رجل مغمض العينين والآخر ضرير، وصفًا مؤثرًا فكتب:

> يدخل طه حسين حجرة المستشفى يقوده سكرتيره فريد شحاتة من ذراعه. وإذ يسمع أبي، وهو معصوب العينين، صوته، يمد يده في لهفة في اتجاه الصوت. فأمسك أنا بيد والدي، ويمسك فريد شحاتة بيد طه حسين، حتى تلتقي اليدان ويتصافحان.

* * *

رغم طول هذه العلاقة بين أبي وطه حسين، فإني لم أقابل طه حسين وجهًا لوجه، في حياتي إلا مرة واحدة. وقد حدث فيها ما يستحق أن يُروى. كان هذا اللقاء قبل وفاة طه حسين بشهور قليلة، في مجمع اللغة العربية، الذي كان يرأسه طه حسين، ولم أدخله إلا بالصدفة. كان أحد أساتذتي في كلية الحقوق، الدكتور عبد الحكيم الرفاعي، عضوًا بالمجمع، وكان المجمع يعمل على إقرار مصطلحات عربية صحيحة في علم الاقتصاد، ويلجأ في ذلك إلى معونة الدكتور الرفاعي بوصفه اقتصاديًّا وعضوًا بالمجمع. استعان الدكتور الرفاعي بي، إذ طلب مني أن أختار مجموعة من المصطلحات الإنجليزية، في موضوعات اقتصادية حديثة نسبيًّا، وأن أقوم باختيار مقابل عربي ملائم لها ثم أقوم بتعريفها، وأن أعرض ذلك في جلسة من جلسات المجمع، على أن تقتصر فترة وجودي في المجمع على فترة عرض المصطلحات الاقتصادية ومناقشتها وإقرارها، ثم أنصرف بعد ذلك مباشرة ليبقى في الجلسة أعضاء المجمع دون إزعاج ممن يسمون مجرد «خبراء» مثلي.

شاهدت طه حسين وهو يدخل القاعة بصحبة سكرتيره، فإذا بالقاعة التي كان يسودها الضجيج والأحاديث الجانبية بين الأعضاء، الواقف منهم والجالس، يحل بها صمت كامل بدخول هذا الرجل الضرير، ولكن يشع منه بريق نفسي يخطف الأبصار. أخذني أحد الحاضرين من يدي ليقدمني إلى طه حسين لمصافحته، وذكر له بالطبع أني ابن الأستاذ أحمد أمين، فرحب بي بلطف.

كان في الحجرة نحو عشرين شخصًا، تسلموا كلهم في يوم سابق على الجلسة نسخة مما أعددته من مصطلحات وتعريفات، وبدأت أتلو عليهم مصطلحًا بعد آخر حتى وصلت إلى مصطلح «الانكماش»، كمقابل للمصطلح الإنجليزي «*deflation*» وقرأت تعريفي له بأنه انخفاض مستوى الإنفاق والدخل والأسعار، إلخ، فإذا بأحد الأعضاء يهبُّ واقفًا معترضًا بشدة على استخدام هذه الكلمة (الانكماش) لوصف حالة كهذه، وقال إن القواميس تقول: «كمش الحصان أي أسرع في سيره»، وهو عكس المعنى الذي أقوله، والذي يتضمن ركودًا وتباطؤًا في الحركة. عرفت ـ فيما بعد ـ أن هذا المعترض رجل مهم هو الأستاذ عباس حسن، صاحب الكتاب الشهير في النحو «النحو الوافي»، وكان يعتبر من أقدر اللغويين العرب الأحياء، إن لم يكن أقدرهم على الإطلاق. نظر طه حسين في اتجاه الرجل وقال بصوته الفخم: «جبتها منين دي يا عباس؟». فإذا بعباس حسن، وكان لا يزال واقفًا، يجيب بحماس، وقد رفع بيده كتابًا ضخمًا، بأن هذا هو ما يقوله «لسان العرب»، أو «مختار الصِّحاح» (لا أذكر أيهما بالضبط). توجه طه حسين بوجهه إلى ناحيتي وسألني: «هل درجتم، أنتم معشر الاقتصاديين، على استخدام هذا المصطلح، أي الانكماش، بهذا المعنى؟» فأجبته بالإيجاب، فإذا بطه حسين يفاجئ الجميع بقوله لعباس حسن: «طظ يا عباس!». ثم قال ما معناه إنه إذا كان العمل قد سار على ذلك، واستقر استخدام الاقتصاديين للفظ بهذا المعنى فلا ضرر من ذلك، ويجب على المجمع أن يقره. كان هذا كافيًا لأن يلتزم عباس حسن الصمت، وأن أستمر أنا في قراءة بقية المصطلحات، ولم يزعجني بعد ذلك شخص آخر.

* * *

عندما غادرت الجلسة لم أكن واثقًا تمامًا مَنْ مِن الرجلين كان على صواب.

ولكن خطر لي أن خلافًا كهذا لا بد أنه يتكرر كثيرًا في جلسات المجمع: المتمسكون بما تقوله القواميس القديمة ويرفضون مخالفتها، يختلفون مع الذين يفضلون مسايرة العصر، والاعتراف بأن اللغة كائن حي لا بد أن يُسمح له بالتغير مع تغير الأحوال، وأن السماح باستعمال اللفظ الجديد السائد قد يكون أكثر نفعًا من الإصرار على التمسك باللفظ القديم المهجور. وكان رأي طه حسين في اللغة، مثل آرائه الأخرى، يعارض الجمود وينتصر للجديد. خطر لي أيضًا أن انتصار طه حسين على عباس حسن في هذه الواقعة، لا بد أن يكون مجرد مثال صغير لما يحدث باستمرار في جلسات المجمع، وأن سبب انتصاره المؤكد يرجع أساسًا إلى قوة شخصيته وشهرته، بينما كان رجل مثل عباس حسن، مهما كانت غزارة علمه وتبحره في اللغة، ربما بأكثر من تبحر طه حسين وعلمه باللغة، أضعف شخصية ولا يكاد يعرفه إلا اللغويون. قلت لنفسي أيضًا إن الحل الصحيح هو بالطبع محاولة التوفيق بين ما يقول به القديم وبين حاجات العصر الجديد، وإن مسايرة العصر ليست بالضرورة هي الحل الأمثل في جميع الحالات، ولكن الانتصار في هذا الأمر أيضًا، مثله في غيره من الأمور، ليس من نصيب الرأي الأصوب بل الشخص الأقوى.

١٠

الشاعر والعالم

عندما قرأت بعض أشعار الشاعر الهندي الشهير «رابندرانات طاغور» لأول مرة، كنت في الخامسة عشرة من عمري، وكان ذلك بالصدفة المحضة؛ إذ أعارني صديق لي في المدرسة كُتيبًا صغيرًا جدًّا اسمه «البستاني»[١] يحتوي على بعض أشعاره، وقال لي إنه أعجبه. وجدت المقطوعات الشعرية جذابة وتذوقتها بسهولة، رغم حداثة عهدي بتعلم الإنجليزية، بل وقمت بترجمة بعض ما أعجبني منها بوجه خاص إلى العربية.

كان ذلك في أواخر الأربعينيات من القرن العشرين، وكان اسم «طاغور» حينئذ اسمًا مألوفًا لدى المثقفين المصريين، بعكس الحال الآن. وهو أمر قد يبدو غريبًا في ظل عصر يعرف بعصر العولمة ويسهل فيه انتقال المعلومات والأفكار من بلد لآخر. من الممكن طبعًا تفسير ذلك بأن «طاغور» لم يكن قد مضى على وفاته حينئذ أكثر من تسع سنوات، ولكني أظن أن السبب الأهم هو أن العولمة التي يتصف بها عصرنا الحالي هي عولمة في أشياء معينة دون أخرى. ففي أربعينيات القرن الماضي كانت الأخبار التي تسترعي انتباهنا عن الهند مثلًا، وتتردد في الصحف والمجلات، هي أخبار رجل مثل «غاندي» وتقشفه ومقاومته السلبية للإنجليز، أو أخبار «نهرو» وخطاباته التي أرسلها لابنته من السجن ولخص فيها تاريخ العالم، وكذلك أخبار «طاغور». أما الآن فالذي تردده وسائل الإعلام هو

---

(١) *The Gardner*

إنجازات الهند الاقتصادية وارتفاع معدلات النمو الاقتصادي فيها، مما لم يكن من المؤكد أن يثير كل هذا الإعجاب لدى «غاندي» أو «نهرو» أو «طاغور» لو كانوا قد سمعوا به.

لا أظن أنه كان من السهل أن أنشر ترجماتي لقصائد «طاغور» في مجلة أخرى غير مجلة «الثقافة» الأسبوعية، التي كان والدي صاحب امتياز إصدارها ورئيس تحريرها. عندما أقرأ هذه الترجمات الآن أجدها لا بأس بها على الإطلاق؛ إذ لا تحتاج إلى أكثر من تعديلات طفيفة، واستبدال كلمة أكثر دقة بأخرى. كذلك فإني عندما أعيد قراءتها الآن أجدها مؤثرة مثلما وجدتها منذ أكثر من ستين عامًا.

ها هي إحدى هذه المقطوعات الشعرية، التي نشرتُ ترجمتي لها في سنة ١٩٥١ . وإعادة نشر هذه المقطوعة الآن، بعد مرور كل هذه الفترة على ترجمتي لها، ربما كانت أكثر ملاءمة مما كان حينئذ، إذ إن القصيدة تتخيل قارئًا لـ«طاغور» يقرأ شعره بعد كتابته بمائة عام، وقد نُشرت الطبعة الإنجليزية من كتاب «البستاني»، الذي يحتوي على هذه القصيدة، منذ ما يقرب من مائة عام (١٩١٣). يقول «طاغور»:

من أنت أيها القارئ،
الذي يقرأ شعري بعد مائة عام؟
لا أملك أن أبعث لك بزهرة واحدة من زهور الربيع،
ولا بشعاع ذهبي ضئيل، من خلف السحاب.
افتح أبواب بيتك وتأمل ما وراءها،
واجمع من حديقتك المليئة بالزهور،
ذكريات عطرة لزهور يرجع عهدها لمائة عام مضت.
وفي بهجة قلبك وفرحته،
ربما شعرت بالبهجة التي خفق بها قلب،
في صباح يوم من أيام الربيع،
تبعث لك صوتها الفَرِح عبر مائة عام.

إن ألف عام تفصل بين «طاغور»، وبين شاعري العربي المفضل المتنبي، وبين

الاثنين شيء مهم مشترك. لقد قال الشاعر الأمريكي «إزرا باوند» عن «طاغور» إنه «حوَّل بغنائه شعب البنجال إلى أمة واحدة»[1] قاصدًا أنه أثار في قومه مشاعر مشتركة، وجعلهم أكثر وعيًا بما يوحد بينهم كأمة. ألا يمكن أن يقال شيء مشابه عن المتنبي والأمة العربية؟

* * *

مرت سنوات كثيرة قبل أن أعود إلى قراءة «طاغور» من جديد. فعندما أقامت السفارة الهندية بالقاهرة في سنة ٢٠١١ عدة احتفالات بمناسبة مرور ١٥٠ عامًا على مولده، أتيحت لي فرصة أخرى لقراءة المزيد عنه. وعندما طالعت الكتاب التذكاري الذي نشرَته الحكومة الهندية بهذه المناسبة، عرفت لأول مرة بعض الأشياء البالغة الطرافة عن «طاغور». فقرأت مثلًا أنه عندما هنأه صديق إنجليزي بحصوله في سنة ١٩١٣ على جائزة «نوبل» في الأدب (وكانت أول مرة تُمنح فيها هذه الجائزة لشخص آسيوي في أي فرع من فروع المعرفة)، رد عليه «طاغور» شاكيًا من أنه من كثرة ما يحاط به فوزه بالجائزة من احتفالات وتهليل، يشعر وكأن حالته كحالة كلب قام البعض بربط ذيله بعلبة فارغة من الصفيح، فإذا به أينما جرى يُحدث قدرًا لا يُطاق من الضجيج! قرأت أيضًا أنه في إحدى زياراته لإنجلترا بعد حصوله على جائزة «نوبل» احتفل به الكثيرون من الأدباء والمثقفين، ولكن رجلًا مهمًّا واحدًا أبدى تجاهلًا مدهشًا له وصدر عنه قول يدل على قلة تقديره لما يكتب من أدب وشعر. كان هذا الرجل المهم هو الفيلسوف البريطاني «برتراند راسل» الذي كان يحظى بشهرة واسعة في العالم كله. وقد ذكر كاتب المقال أن شعور «طاغور» نحو «راسل» كان مماثلًا لشعور «راسل» نحوه. كنت ولا أزال أحمل تقديرًا فائقًا لكتابات كلا الرجلين، ومع هذا لم يكن من الصعب أن أفهم هذا الشعور السلبي الذي كان يحمله كل منهما للآخر. كان لكل منهما مزاجه ونوع نظرته للحياة المختلفة تمامًا عن نظرة الآخر ومزاجه. ويبدو أحيانًا أننا لا يمكن أن نستغني عن هذا النوع من النظر إلى الحياة أو ذاك.

---

(١) «He sang Bengal into a nation.»

ظل «برتراند راسل» طوال حياته يعتقد أن العقل الإنساني، إذا تخلص من الخزعبلات ومن التحيزات والأهواء، ومن الاعتقاد في الغيبيات، قادر على حل جميع المشكلات الإنسانية، وعلى تحقيق السعادة على الأرض، فيتجنب الحروب ويعم السلام، ويقضي على الاستغلال، فتعم المودة، وينتهي صراع الطبقات، إلخ. كان «برتراند راسل» أيضًا شديد التفاؤل بما يمكن أن يحققه التعليم الجيد والتربية الصحيحة في غرس كل ما نتمنى أن يكون من صفات في أولادنا وبناتنا، فينشأ هؤلاء خيرين وخالين من العُقد، وقادرين على تحقيق الجنة المنشودة. باختصار، لم يكن هناك، فيما يبدو، شيء مرغوب فيه في الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والعلاقات الدولية، لا يمكن تحقيقه في نظر «برتراند راسل» لو التزمنا بقواعد التفكير العقلاني والعلم.

لم يكن لـ«طاغور» مثل هذه الثقة بالمرة بالقدرة على التحكم في مصير الإنسان. هناك قوى خارجة عن إرادة الإنسان، فلا يستطيع السيطرة عليها إلا في حدود. ومن المفيد للإنسان أن يدرك أن قدرته على تحقيق ما يتمناه محدودة، بل وعليه أن يتعلم كيف يقبل ما لا يستطيع تغييره بنفس راضية. نعم، العالم والعلاقات الإنسانية مليئة بالأشياء الجميلة، ومعظم الناس خيرون، ولكن القبح والشر ليسا فقط موجودَين، بل هما جزء مهم من طبيعة الإنسان والحياة، ولا جدوى من تصور أن لدينا القدرة على القضاء عليهما. العلم والمعرفة والعقلانية أمور مطلوبة، ولكننا يجب أن نسلِّم بأن لكل منها حدوده، ومن الحماقة أن نبالغ في قدرتنا على تغيير العالم عن طريق العلم. الإنسان جزء من الطبيعة، وليست مهمة الإنسان السيطرة على الطبيعة وإخضاعها لأغراضه، بل يجب أن يتعلم أن يتعايش معها وألا يفرط في استغلالها لصالحه.

كان «برتراند راسل» يكره هذا الاستسلام «الشرقي»، ولكن «طاغور» بدوره كان يكره غرور الحضارة الغربية. لا عجب أن عبَّر كل منهما عن يأسه من إصلاح الآخر. وقد قرأت لهذا وذاك، ولمست أوجه القوة لدى كل منهما، وظللت أعتقد أن من الممكن أن يكون لكل منهما مكان إلى جانب الآخر في عقلي. ولكني قرأت منذ فترة وجيزة كتابًا عن سيرة «برتراند راسل» جعل نظرتي إليه تهتز بشدة.

كتب «ر. مانك»[1] مؤلف الكتاب أكثر من ألف صفحة عن «راسل»، في جزأين، حتى يتمكن من التغطية المفصلة لحياة الرجل الذي عاش ٩٨ عامًا، وظل نشيطًا ومؤثرًا إلى آخر يوم في حياته. ولكن الكتاب يحتوي أيضًا على أسرار ظلت مجهولة حتى نشر الكاتب محتويات الخطابات العديدة المتبادَلة بين «راسل» وزوجاته الأربع وأبنائه وأصدقائه، مما يرسم صورة مذهلة للرجل، ويبين ما اقترن به إيمانه الذي لا يتزعزع بالعقلانية وبقدرة الإنسان على تغيير العالم، من شطط وإعجاب بالنفس وقسوة حتى في معاملة أقرب الناس إليه. كما كشف الكتاب عن فشل «راسل» فشلًا ذريعًا في محاولاته لتشكيل شخصية أولاده، غير معترف بالنوازع والميول الطبيعية أو الموروثة التي لا يمكن التحكم فيها، فكانت النتائج، ليست فقط مخيبة لآماله، بل وأيضًا مأساوية لبعض من أقرب الناس إليه، إن لم تكن مأساوية له أيضًا.

قلت لنفسي: هل كان «طاغور» إذن على صواب في هذا أيضًا، كما بدا لي دائمًا؟

---

(١) R. Monk

الباب الرابع

في الحياة الحديثة

١

المشروب الحلال

في سنة ١٩٤٧، قرر أبي أن يبيع البيت الذي كنا نسكنه في مصر الجديدة، وأن ننتقل إلى السكن في الدقي حيث كان أبي قد اشترى فيلًّا أنيقة بالقرب من حديقة الأورمان والجامعة. كان ثلاثة من إخوتي قد دخلوا كلية الهندسة بجامعة القاهرة، وكان أبي قد بلغ سن المعاش في العام السابق ولكنه استمر يدرِّس في نفس الجامعة كأستاذ غير متفرغ. وجد أبي إذن من المناسب أن نسكن بالقرب من الجامعة، ولم يكن من الصعب أن ينتقل الولدان الصغيران إلى مدرستين قريبتين: أنا إلى مدرسة الأورمان النموذجية، التي كنت أستطيع الوصول إليها مشيًا، وحسين إلى المدرسة السعيدية التي تحتاج إلى مسيرة أطول قليلًا.

لم يخطر ببالي حينئذ، بالطبع، أن مصر كانت بدورها تدخل عصرًا جديدًا، بل إني لم أكتشف هذا إلا بعد مرور سنوات كثيرة، ثم احتجت إلى مدة أطول لكي أكتشف أن ذلك الوقت الذي انتقلنا فيه من مصر الجديدة إلى الدقي، كان في الحقيقة بداية دخول مصر ما يمكن أن يسمى «العصر الأمريكي»، والذي ما زلنا نعيش فيه حتى الآن، أي بعد مرور أكثر من ستين عامًا. كانت سني عندما انتقلنا إلى الدقي اثني عشر عامًا، ولا زلت أذكر بعض التغيرات التي طرأت على حياتنا مع هذا الانتقال. تغيرات صغيرة حقًّا ولكنها تبدو لي الآن متفقة تمامًا مع بداية العصر الأمريكي.

لم تكن لدينا في بيتنا بمصر الجديدة ثلاجة كهربائية، بل صندوق خشبي يخرج

منه صنبور صغير، ويفتح الصندوق من أعلى لوضع لوح من الثلج فوق بعض المواسير المتصلة بمصدر الماء، فيمكننا بذلك الحصول على ماء بارد. ولكن الحصول على الثلج نفسه لم يكن أمرًا سهلًا، إذ كان يستلزم إرسال خادم أو خادمة لشرائه، وقد يذوب نصفه في الطريق. كان لا بد إذن من الاعتماد على أوانٍ فخارية (قُلل وإبريق) توضع في صينية بالشرفة ليبرد ماؤها في الليل ونشرب منها في النهار. اختفت هذه القُلل تمامًا بانتقالنا إلى بيت الدقي، وأصبح لدينا ثلاجة أمريكية كبيرة، تمتلئ بزجاجات الماء، وأشياء كثيرة أخرى أصبح وجودها في الثلاجة يغني عن الاعتماد على الخادمة الصغيرة التي كانت قبل قدوم الثلاجة لا تتوقف عن الذهاب والإياب لشراء ما نحتاجه من السوق.

كانت هذه الظاهرة إذن (ظاهرة الخادمة الصغيرة) من الأشياء التي بدأت في الاختفاء مع قدوم العصر الأمريكي. فبعد سنوات قليلة، قامت ثورة يوليو ١٩٥٢، وصدر بعد قيامها بأقل من شهرين قانون الإصلاح الزراعي الذي خلق فرصًا جديدة للعمالة الزراعية، مما قلل من حاجة الأسر الفقيرة لإرسال بناتها للخدمة المنزلية في المدن. قال البعض وقتها (وبحق فيما أظن) إن الإصلاح الزراعي كان من بين الإجراءات التي تشجعها السياسة الأمريكية في الدول الخارجة حديثًا من النفوذ البريطاني أو الفرنسي، كوسيلة من وسائل مواجهة الخطر الشيوعي من ناحية، ولدعم نمو طبقة وسطى أكثر استعدادًا للانجذاب نحو النموذج الأمريكي في الحياة. ولكن أشياء «أمريكية» أخرى كثيرة بدأت تحدث في مصر في ذلك الوقت.

لم يكن من الممكن أن نفطن في ذلك الوقت إلى أن الذي بدأ يتسلل إلينا من أمريكا، إذا دخل الجسم يصعب التخلص منه، وإذا تمكن من الجسم انتشر إلى باقي الأجزاء. كان الشيء نفسه يحدث في العالم كله. لم يكن الأمر قاصرًا على مجرد دخول سلعة جديدة جذابة بعد أخرى، بل كانت هذه السلع الجديدة تحمل في طياتها نمطًا جديدًا من الحياة، بل وتؤدي إلى إعادة النظر في الغرض من الحياة أصلًا.

ساعد على تأخر إدراكنا لطبيعة ما يحدث، أن هذا التسلل الأمريكي لم يستمر في البداية أكثر من عشر سنوات، ثم بدأ انغلاقنا عن العالم في ظل النظام الناصري

لما يقرب من عشرين عامًا، فلما انفتحت مصر من جديد على العالم في منتصف السبعينيات، كان النمط الأمريكي في الحياة قد نما واستفحل، وانتشر في مختلف بقاع العالم المتخلفة والمتقدمة على السواء، فأصبح من المتعذر مقاومته، خاصة وأنه أتى إلينا في أعقاب هزيمة عسكرية فادحة، أفقدتنا ثقتنا بأنفسنا، وجعلتنا على استعداد لقبول أي شيء في سبيل استعادة أراضينا المحتلة.

* * *

كانت البداية بالنسبة لي بداية تافهة جدًّا؛ إذ لم أكن قد تجاوزت الثالثة عشرة من عمري عندما عاد زوج أختي من أمريكا، وكان قد ذهب في بعثة لدراسة الدكتوراه في الطب البيطري، ولم يمكث بها أكثر من عامين عاد بعدهما بالدكتوراه، وهو يحمل لي هدية هي كرافتة لم أكن قد رأيت مثيلًا لها من قبل. كانت زاهية ومتعددة الألوان بدرجة غير مألوفة، أي تعريفًا لا بأس به بما سوف يأتي إلينا من أمريكا من الآن فصاعدًا. سمعت بعد قليل عن افتتاح سينما جديدة في شارع سليمان باشا (طلعت حرب الآن) اسمها «مترو»، وكانت مختلفة تمامًا عما عهدناه من قبل، ليس فقط في مقاعدها، التي كانت وثيرة بدرجة لم نعتدها في دور السينما الأخرى، ولكن أيضًا في استخدامها لأجهزة تكييف الهواء، والملابس زاهية الألوان التي يرتديها العاملون فيها. رأينا في هذه السينما أفلام «هوليوود» الخلابة، وانبهر المراهقون منا بجمال أجسام الممثلات كما في فيلم «السابحات الفاتنات». في نفس الوقت ظهر محلان جديدان في شارع فؤاد (٢٦ يوليو الآن) ويحملان اسمًا واحدًا هو «الأمريكين» وقد تميزا، عدا الزي الذي يرتديه العاملون فيهما، بالمأكولات السريعة وبأصناف مبهرة، من الحلوى والأيس كريم، كانت جديدة تمامًا علينا، تجذبنا صورها الملونة المعلقة على الحوائط من قبل أن نذوقها. كان لبعض هذه المأكولات أسماء غير مألوفة لنا كأسماء بعض الممثلات الأمريكيات، أو اسم «الخنازير الثلاثة الصغيرة» (وينطق بالفرنسية، ولكن سرعان ما تعلمنا النطق به على الرغم من جهلنا بما عدا ذلك من الفرنسية)، ويطلق على ثلاث من الكرات الصغيرة من الأيس كريم، تعلوها كمية من الكريمة التي تتدفق من ماكينة بديعة بتحريك يدها المعدنية، ثم بعض المربى والمكسرات.

في الوقت نفسه تقريبًا ظهرت في كل مكان إعلانات عن شيء جديد لم نر مثله من قبل. كنا حتى ذلك الوقت نظن أن الطريقة الوحيدة لإرواء الظمأ هي أن نشرب كمية من الماء، فإذا جاء ضيف وأردنا تقديم مشروب له، قدمنا له ماءً باردًا، أو إذا أردنا المبالغة في إكرامه قمنا بأنفسنا بتحضير عصير الليمون، أو في أحوال نادرة، نرسل خادمًا لشراء مشروب غازي شفاف كالماء، كانت تبيعه شركة صاحبها رجل يوناني اسمه «سباتس»، وتأتي في زجاجات لا يختلف شكلها عن أي زجاجة عادية. بدأ الآن الإعلان عن مشروب ذي لون داكن، ويباع في زجاجات لها شكل غير مألوف، إذ لها قوام أقرب إلى قوام المرأة. كان من الواضح أن المقصود من الشراب الجديد أن يكون أكثر من مجرد مشروب غازي وسُكري كبديل للماء، بل قال البعض إنه يحتوي على شيء يساعد على إدمانه. كل هذه الصفات: المظهر الجديد، وجاذبية الزجاجة، وحلاوة الطعم مع سهولة التعود عليه إلى درجة تقرب من الإدمان، مصحوبًا بدعاية مستمرة، ضمن للمشروب الجديد انتشارًا واسعًا لم يهدده إلا ظهور منافس له يحمل نفس الصفات، مع تغيير فقط في شكل الزجاجة وزيادة كمية السكَّر في المشروب الجديد. سرعان ما انتشر المشروبان الأمريكيان، «الكوكاكولا» و«البيبسي كولا»، خاصة بين صغار السن، وانسحبت زجاجة «السباتس» بالتدريج حتى اختفت تمامًا.

لم يعجب شركة «الكوكاكولا» أن يظهر لها هذا المنافس الجديد، ولكن سرعان ما ظهرت فتوى، نشرتها إحدى الصحف، مضمونها أن مشروب «البيبسي كولا» تدخل في صنعه مادة مستخرجة من لحم الخنزير، وحيث إن أكل لحم الخنزير حرام، فقد قيل إن شرب «البيبسي كولا» حرام أيضًا. كان هذا كافيًا لكي يصرف ملايين من المصريين عن تناول المشروب، تجنبًا للشبهات، مهما كان الدليل ضعيفًا، والتحول إلى المشروب المنافس. كان الأمر خطيرًا في نظر «البيبسي كولا» ولكن سرعان ما ظهرت فتوى صغيرة أخرى وظهرت حملة إعلانية جديدة لـ«البيبسي كولا» تصف المشروب بأنه «المشروب الحلال»، واضطرت «الكوكاكولا» إلى أن تدشن حملات دعائية أخرى تصف نفسها بأنها «هي الأصل».

* * *

في نفس الوقت فوجئنا بظاهرة جديدة في الصحافة المصرية كان لها بعض الشبه بظهور هذين المشروبين الجديدين. كان المصريون، في ذلك الوقت، يقرأون كل يوم صحيفة عريقة يرجع تاريخها إلى ما يقرب من سبعين عامًا، هي صحيفة «الأهرام» التي أنشأها صحفي لبناني مغامر، وحققت لنفسها ما يشبه الاحتكار بين قراء الصحف في مصر، إذ لا يصدَّق خبر إلا إذا نشرته «الأهرام»، ولا يمكن أن يكون شخص قد توفي حقًّا إذا لم تنشر «الأهرام» نعيه. كانت «الأهرام» أيضًا صحيفة وقورًا تعتمد على المصادر الموثوق بها لما تنشره من أخبار، وعلى أسماء بعض الكُتاب الكبار فيما تنشره من مقالات، كما كانت أخبارها تتعلق بالسياسيين والأدباء لا بالفنانين والفنانات، ومن ثَم كانت الصور المنشورة بها قليلة جدًّا، وعناوين ما تنشر من أخبار تكتب بخط صغير لا تستخدم فيه الألوان، وتعبر عن مضمون الخبر دون تعمد الإثارة.

اكتشف رجلان ذكيان أنه ليس من الضروري أن يستمر حال الصحافة على هذا النحو؛ فالإثارة مطلوبة دائمًا، وأخبار الفنانين والفنانات ناهيك عن فضائحهم، أكثر جاذبية من أخبار السياسيين، والصور والألوان مرغوبة أيضًا، ومن ثَم لا بد أن تكون من عوامل انتشار الجريدة وزيادة أرباحها. كان هذان الرجلان شقيقَين توأمين قاما بإنشاء دار صحفية جديدة اسمها «أخبار اليوم»، وأقاما لها بناء جديدًا متعدد الطوابق، كان فخم المعمار بمقاييس ذلك الوقت. أذكر كيف كانت الأعداد الأولى من «أخبار اليوم» تنشر الخبر الأساسي باللون الأحمر والخط العريض، وإلى جواره صورة كبيرة لفنانة شهيرة، مثل تحية كاريوكا، وتحتها عنوان عريض يتضمن خبرًا مثيرًا عنها، كخبر القبض عليها مثلًا، ثم يتضح من القراءة أن الخبر المثير ليس وصفًا لما حدث في الواقع بل لما حدث في فيلم جديد لها.

لم يكن من قبيل الصدفة بالطبع أن هذين الأخوين الشقيقين كانا قد عادا لتوهما من الولايات المتحدة، حيث شاهدا ما لاتساع السوق من مزايا، وما يجلبه من أرباح، ومن ثَم ضرورة الاعتماد على مخاطبة أكثر الميول والنوازع الإنسانية انتشارًا دون أن يكون بالضرورة أرفعها شأنًا. كما اكتشفا أن هذه الميول والنوازع

الأكثر انتشارًا، تخضع للمؤثرات العابرة التي قد لا تستمر طويلًا، ولكنها كافية لتحقيق الأثر المطلوب، وهو بيع أعداد كبيرة من الجريدة.

كانت ظروف الحرب العالمية الثانية التي كانت قد انتهت منذ وقت قصير، قد ساهمت في زيادة حجم الطبقة الوسطى المصرية بما سببته الحرب من زيادة الإنفاق على مستلزمات الحرب. وأدى التضخم إلى زيادة القوة الشرائية لدى شرائح جديدة من المصريين، كما أدى في نفس الوقت إلى زيادة متاعب الصحف والمجلات المصرية قليلة الانتشار والتي وجدت من الصعب مواجهة ارتفاع أسعار الورق ونفقات الطباعة. من بين هذه المجلات تعثرت مجلتان أدبيتان شهيرتان، «الرسالة» و«الثقافة»، وحارت كل منهما فيما يمكن أن تصنع لمجرد البقاء على قيد الحياة، وسرعان ما أغلقت المجلتان أبوابهما بصعود مجلات وصحف جديدة تسير في ركاب «أخبار اليوم».

* * *

أذكر أنه في أواخر الأربعينيات حكى لنا أبي أن مؤسسة «فرانكلين» الأمريكية، والتي كانت قد بدأت نشاطها حديثًا في مصر، اتصلت به وعرضت عليه الفكرة الآتية: أن يختار أبي عشرة أسماء لكُتاب مصريين معروفين، ويطلب إلى كل منهم أن يكتب فصلًا بعنوان «علمتني الحياة»، يشرح فيه تجربته في الحياة وما خرج به منها من دروس، وتفعل مؤسسة «فرانكلين» نفس الشيء مع عشرة من الكُتاب الأمريكيين، ويترجم ما يكتبه الأمريكيون إلى العربية، وتنشر الفصول كلها في كتاب مشترك يصدر في مصر. وقد طلبوا من أبي، بالإضافة إلى كتابة فصل خاص به، أن يقوم بمهمة «المحرر العام» للكتاب الذي يصدر حاملًا هذا الاسم: «علمتني الحياة».

كان هذا العمل جديدًا من نوعه على أبي، وعلى الأخص أن يأتي العرض من مؤسسة أمريكية لا عهد له بها. ولا بد أن أبي كان قد سمع عن شكوك ساورت كثيرين من المصريين (خاصة من اليساريين المتعاطفين مع الاشتراكية والاتحاد السوفيتي)، عما يمكن أن يكون وراء زيادة النشاط الأمريكي في مصر من أغراض خفية. قرر أبي أن يستشير رجلًا كان يعتبره جيله من الكُتاب أستاذًا لهم جميعًا، وتطلق عليه

الصحف المصرية دائمًا وصف «أستاذ الجيل»، وهو أحمد لطفي السيد، وكان وقتها رئيسًا للمجمع اللغوي الذي كان أبي عضوًا فيه. استراح أبي لنصيحة لطفي السيد، الذي رأى أن يقبل أبي القيام بهذه المهمة قائلًا: «إني أقبل التعاون مع الشيطان إذا كان في هذا نشر العلم». وقد قام أبي بالعمل بالفعل، وصدر الكتاب من دار الهلال بهذا العنوان «علمتني الحياة».

كان النشاط الثقافي الأمريكي في مصر قد بدأ على قدم وساق. فصدرت نسخة عربية من مجلة أمريكية شهيرة هي «ريدرز ديجست» بعنوان «المختار من ريدرز ديجست»، وكانت تروج لمبدأ الحرية الاقتصادية ولمحاسن نمط الحياة الأمريكي. كما مولت مؤسسة «فرانكلين» ترجمة لكتب تحمل نفس الرسالة، ومنها كتاب «آثرت الحرية» الذي كتبه كاتب روسي هرب من الاتحاد السوفيتي واستوطن في الولايات المتحدة، وشرح فيه مزايا الحياة في ظل الحرية بالمقارنة بالاستبداد الشيوعي.

* * *

كان كل هذا يحدث في مصر، في وقت كانت فيه القضية السياسية التي تشغلنا أكثر من أي شيء آخر هي قضية الجلاء: أن يخرج الإنجليز من مصر وينتهي تحكم السفارة الإنجليزية في مسار السياسة المصرية، وفي اختيار الحكومات. ولا أذكر أننا لاحظنا في تلك الفترة أي أثر للسياسة الأمريكية في تقلبات السياسة المصرية، وتغيير الحكومات. ومع هذا فلا بد أن تكون بداية النشاط الثقافي الأمريكي قد صاحبها أيضًا نشاط سياسي يجري في الخفاء. كان الأمريكيون والإنجليز حلفاء، فمهما كانت الخطة الأمريكية في العمل على إجلاء الإنجليز من مصر وتحويل مصر إلى منطقة من مناطق النفوذ الأمريكي بدلًا من خضوعها للنفوذ البريطاني، لم يكن من الممكن أن يجري تنفيذ هذه الخطة على مرأى من الجميع. كانت الأشهر الستة التي فصلت بين حريق القاهرة في يناير ١٩٥٢ وقيام ثورة يوليو، فترة غريبة من حيث التطورات السياسية في مصر، إذ بدا وكأنه ليس لمصر حاكم فعلي، لا الملك ولا الإنجليز ولا حزب الأغلبية (الوفد) ولا أي من الأحزاب الأخرى. كان الملك يقيل حكومة بعد أخرى لغير سبب واضح، ويتعاقب رؤساء

الوزراء على فترات قصيرة للغاية، ويعلنون عن برامج للإصلاح لا تنفذ، بينما تنشط صحف المعارضة في التنديد بالملك من باب خفي، والتعبير عن سخط عام على كل شيء.

ربما كان هذا المناخ غير المألوف في السياسة المصرية ناتجًا عن أن مصر كانت تمر في الحقيقة بفترة تنتقل فيها السلطة الحقيقية في مصر: من الإنجليز إلى الأمريكيين، ولكن لم يكن من المنتظر أن يخطر مثل هذا التفسير حينئذ على بال كثيرين. إن انتقال السلطة الحقيقية من قوة عظمى إلى قوة عظمى أخرى لا يحدث كل يوم، ولا كانت أهداف السياسة الأمريكية ووسائلها قد اتضحت في ذلك الوقت كما اتضحت فيما بعد. أضف إلى ذلك أن فرحنا الغامر بقيام انقلاب ٢٣ يوليو ١٩٥٢ (الذي سمي فيما بعد بالثورة)، وبطرد الملك بعد ثلاثة أيام، كان كفيلًا بأن ينسينا كل شيء آخر، وأن يمنع أذهاننا من التطرق إلى أي تفسير خبيث لما يحدث، مما يمكن أن يقلل من بهجتنا بما حدث ومن تفاؤلنا العظيم بالمستقبل.

في السنوات القليلة التالية لحركة الضباط في ٢٣ يوليو ١٩٥٢، حدثت أشياء كثيرة كان من الممكن أن تدفعنا إلى الشك في أن الولايات المتحدة قد تكون وراء هذه الحركة: من ذلك النصيحة التي قدمها السفير الأمريكي للملك فاروق بالتنازل عن العرش عندما اتصل به الملك ليسأله رأيه قبل أن يوقع على وثيقة التنازل، ثم اتفاق الحكومتين المصرية والأمريكية على برنامج المعونة الأمريكية المعروف باسم «النقطة الرابعة»، بل والسهولة التي تمت بها موافقة الإنجليز على اتفاقية الجلاء في ١٩٥٤ بعد عناد طويل قبل ثورة ١٩٥٢، إلخ. ولكننا لم نكن نرغب في تصديق أي شيء يطعن في نوايا الضباط الذين خلصونا من حكم فاسد ووعدونا بأجمل الأشياء. لقد أصبنا بخيبة أمل شديدة بوقوع الخلاف بين محمد نجيب وعبد الناصر في مارس ١٩٥٤، الذي عُزل بمقتضاه محمد نجيب من رئاسة الجمهورية، وبدأت تخامرنا بعض الشكوك في سلامة نية عبد الناصر إلى درجة الشك في أن محاولة اغتياله التي جرت في ميدان المنشية بالإسكندرية في ذلك العام كانت مسرحية مرتبة لكسب بعض الشعبية له، ولتبرير ضرب جماعة الإخوان المسلمين. ولكن هذه الشكوك كلها سرعان ما تبددت بإعلان عبد الناصر تبنيه

لسياسة الحياد الإيجابي، ثم على الأخص بعد تأميمه لقناة السويس في ١٩٥٦، وهما القراران اللذان حظيا بشعبية هائلة.

أذكر أني في وقت ما خلال هذه الفترة (بين توقيع اتفاقية الجلاء في ١٩٥٤ وتأميم قناة السويس في ١٩٥٦)، عبرت لصديق أردني عن خاطر مر بذهني، وكان يكبرني في السن، وينتمي إلى حزب البعث الذي كان قد بدأ يكوِّن له فرعًا في مصر. وهذا الخاطر هو أن حركة الضباط المصريين قد تكون من البداية تنفيذًا لمخطط أمريكي. رفض هذا الصديق هذه الفكرة رفضًا باتًّا وسخر منها. ثم نسيت أنا هذه الفكرة بسبب ما اتخذه عبد الناصر من خطوات رائعة بعد ذلك، واتباعه لسياسات بدت مناقضة تمامًا للأهداف الأمريكية، فضلًا عن هجومه الصريح على الولايات المتحدة منذ أواخر ١٩٦٣. ولكني عندما أستعرض الآن في ذهني أحداث هذه الحقبة بأسرها، أميل إلى الاعتقاد بأني عندما عبرت عن شكوكي لصديقي الأردني لم أكن بعيدًا عن الصواب.

٢

جهاز الفيديو الصغير

أثناء الهجوم العراقي على الكويت في أغسطس ١٩٩٠، لفت نظري كثرة تردد الإشارة إلى جهاز الفيديو في مناسبات مختلفة. ففي الأيام الأولى تضمنت الأنباء إشارات متناثرة إلى أن الجنود العراقيين كانوا يستولون على أجهزة الفيديو التي يجدونها فيما يقتحمونه من بيوت. ثم دلت التقارير الواردة من الكويت والعراق، والتي تصف أحوال الهاربين من الكويت، على أن الشيء الذي يتكرر ظهوره في أمتعتهم هو جهاز الفيديو، وأنهم كانوا أحيانًا يخبئونه في داخل أحشية السيارات لمنع وقوعه في أيدي الجنود العراقيين، وأن الجنود العراقيين الواقفين على الحدود كان أول ما يسألون عنه هؤلاء المتلهفين على عبور الحدود هو ما إذا كان هؤلاء الهاربون يحملون جهازًا للفيديو. فإذا عبروا الحدود كانوا كلما مروا بمدينة أو قرية عراقية استوقفهم الناس، يعرضون عليهم شراء أجهزة الفيديو منهم مقابل تقديم ما يحتاجونه من غذاء أو ماء.

ويبدو أن هذه الإشارات المتعددة إلى جهاز الفيديو أخذت تتراكم في عقلي الباطن حتى كنت كلما استسلمت للنوم، أحلم أحلامًا تدور كلها حول جهاز الفيديو. ولكن حلمًا واحدًا مزعجًا كان يتكرر أكثر من غيره ويجعل نومي مضطربًا للغاية، واستمر يلازمني نحو أسبوع. ثم انقطع عني الحلم تمامًا، وشعرت بعد ذلك براحة ما بعدها راحة، ليس فقط لذهاب هذا الكابوس الفظيع، ولكن لأني عندما استرجعت أحداث الحلم بتأنٍّ، تبينت أنه كان يتضمن تفسيرًا شاملًا لنكبة الكويت

من أولها لآخرها، ولم تعد تعذبني بعد ذلك محاولة البحث عن تفسير للهجوم العراقي، أو قدوم الجيش الأمريكي، أو تصرف هذه الحكومة العربية أو الأوروبية أو تلك. واتضح لي أن السبب الحقيقي لنكبة الكويت ليس هو الرئيس صدام، ولا الرئيس بوش، ولا سلوك الأسرة المالكة الكويتية، ولا شيء من هذا القبيل على الإطلاق، بل إن السبب الحقيقي ليس إلا جهاز الفيديو، كما سيتضح عندما أروي ما رأيته في الحلم.

* * *

ظهر في الولايات المتحدة وباء خطير سرعان ما انتشر انتشار الطاعون، يتمثل في لوثة عقلية تصاحبها بعض الأعراض الهستيرية والهياج، وبعض الميول العدوانية، وفقدان المريض للقدرة على السيطرة على نفسه. كانت أعراض المرض في مراحله الأولى هينة جدًّا، ولا يترتب عليها أي إيذاء للغير، ولا تستلفت النظر كثيرًا، وهي الانخفاض في القدرة على التركيز، وفقدان القدرة على القيام بأبسط العمليات العقلية، كعمليات الجمع البسيطة وتكوين الجمل المفيدة أو كتابة أبسط أنواع الخطابات. كان المصاب بهذا المرض مثلًا، إذا أراد أن يرسل إلى أبيه أو أمه خطابًا يصف فيه رحلة قام بها، لجأ بدلًا من كتابة خطاب بالطريقة المألوفة، إلى شراء كارت مطبوع عليه ثلاث أو أربع عبارات مثل: كانت رحلة جميلة، كانت رحلة جميلة جدًّا، كانت رحلة فاشلة، فيؤشر على إحدى العبارات التي يعتبرها أقرب العبارات إلى الصحة، ثم يوقع باسمه ويرسل الخطاب.

ولكن المرض بدأ يتحول في مرحلة لاحقة إلى الميل إلى الانغلاق التام على النفس، وعدم الرغبة في تبادل الحديث مع أي إنسان، وفقدان القدرة على الضحك بل وعلى مجرد الابتسام، وإتيان بعض الأعمال الانفرادية غير المألوفة تمامًا. من ذلك مثلًا أن المصاب بهذا المرض إذا أراد أن يستمع إلى برنامج كنشرة الأخبار أو بعض المقطوعات الموسيقية، فبدلًا من أن يتصرف التصرف الطبيعي كأن يجلس بجوار المذياع أو أمام التلفزيون ويضغط على الزر المناسب، يقوم بارتداء بدلة غريبة زاهية اللون، ويسرع بالخروج من المنزل وعلى أذنيه سماعتان صغيرتان تتصلان بجهاز راديو صغير، وبمجرد خروجه من المنزل يشرع في الجري حول

منزله عشرات وأحيانًا مئات المرات، لا ينظر يمينًا أو يسارًا، ولا يبادل أحدًا التحية إذا حياه، ولا يتوقف عن الجري مهما حدث له، حتى لو قابل في طريقه صديقًا قديمًا لم يره منذ سنوات. وما إن ينتهي البرنامج الإذاعي حتى يعود إلى بيته. وفي مرحلة ثالثة كان المريض يُظهر استعدادًا مخيفًا للاعتداء على الغير دون أي مبرر، بالضرب، أو حتى إطلاق الرصاص، أو بخطف الأطفال الصغار، ثم تعقب ذلك حالة اكتئاب شديدة تنتهي في أحوال كثيرة بالانتحار.

* * *

بدأ الأمر محدودًا وبدرجة لم تلفت نظر أحد، قبيل الحرب العالمية الثانية أو في أعقابها مباشرة، ثم انتشر انتشار النار في الهشيم، حتى إن البعض الآن يعتقد أن ثلاثة أرباع أصحاب المناصب العليا في الدولة، بمن في ذلك موظفو البيت الأبيض، قد أصيبوا بصورة أو بأخرى من هذا المرض. بل يقال إن ما لا يقل عن نصف موظفي وزارة الصحة الأمريكية قد أصابتهم هذه اللوثة، ومن ثَم أصبحوا عاجزين عن القيام بواجبهم في مكافحته أو علاجه.

على الرغم من هذا الانتشار الواسع للمرض، فإن المبالغ المخصصة للبحوث التي تحاول اكتشاف أسبابه كانت أقل من ١٪ من المبالغ المخصصة لأمراض أخرى أقل خطورة منه بكثير كالسرطان. وقد كان هذا أمرًا غريبًا للغاية. فهذا المرض ليس فقط أكثر انتشارًا من السرطان. ولكنه كان بعكس السرطان، ينتقل بالعدوى، ويشل القدرات العقلية للمريض، وهو أكثر انتشارًا بين صغار السن منه بين المسنين. الأدهى من ذلك أن المصاب بهذه اللوثة، بعكس المريض بالسرطان، كان بسبب طبيعة المرض نفسه، لا يعرف ولا يصدق أنه مريض، مهما كانت المحاولات المبذولة لإقناعه، ومن ثَم تجد من المصابين مَن لا يتورع عن تولي مسؤوليات على أكبر قدر من الخطورة، كمسؤولية وضع السياسات الخارجية والاقتصادية وسياسات الأمن القومي، إلخ.

* * *

في أوائل الستينيات ألقى أستاذ أمريكي لعلم النفس، وهو من أصل صيني، محاضرة تتضمن نتائج بحثه عن أسباب هذا المرض، كان وقعها على الحاضرين

كوقع الصاعقة؛ فقد ذهب إلى أن هناك علاقة شبه مؤكدة بين هذا المرض وجهاز الفيديو. صحيح أن الحالات الأولى للمرض أقدم من اختراع الفيديو نفسه، ولكنه أكد أن الفيديو يعمل على تكاثر بعض الخلايا في المخ وضمور خلايا أخرى بحيث إن أي استعداد طبيعي لدى الفرد للإصابة بهذا المرض تتضاعف قوته بالتعرض الطويل لجهاز الفيديو. وقد دعم الأستاذ نتائجه المعملية بتحليل إحصائي أظهر وجود علاقة ارتباط قوية بين شدة المرض وعدد ساعات التعرض للجهاز، وانتشار المرض بدرجة أكبر في الولايات المتحدة الأكثر استخدامًا للفيديو، وانتشاره الأكبر بين صغار السن الأكثر تعرضًا للجهاز، إلخ.

غني عن البيان أن أصحاب الشركات المنتجة لجهاز الفيديو وأشرطته أصابهم ذعر عظيم عندما اطلعوا على نص المحاضرة، ومن ثَم شرعوا على الفور في شن حملة جبارة أنفقوا عليها مئات الملايين من الجنيهات، لمنع وسائل الإعلام من الإشارة إليها، ونجحوا بالفعل في ذلك. كان الدافع إلى ذلك هو بالطبع ما كانوا يحققون من أرباح خيالية من بيع الجهاز والأشرطة.

ولكن لم يكن هذا هو السبب الوحيد. ذلك أن عددًا كبيرًا من منتجي الفيديو، كانوا هم أنفسهم من المصابين بالمرض، ومن ثَم لم يكن لديهم أي استعداد لتصديق ما جاء بالمحاضرة. كان هؤلاء ينفقون الجزء الأكبر من أرباحهم على شراء أجهزة الفيديو التي يقومون هم بإنتاجها، سواء لأنفسهم أو لأولادهم وأصدقائهم، حتى قيل إن لدى كل منهم، من فرط ثرائهم، جهازًا للفيديو في كل ركن من أركان كل حجرة، من حجرات كل بيت يملكونه بمختلف أنحاء المعمورة، من الولايات المتحدة إلى إسبانيا إلى جنيف إلى جزر هاييتي، بما في ذلك جهاز واحد على الأقل في دورة المياه وآخر في السيارة، إلخ. لجأ هؤلاء المنتجون إلى فكرة جهنمية وهي تمويل دعاية واسعة تضخم بشدة من خطورة أشياء أقل أهمية بكثير، فأشاعوا أن هناك أضرارًا محققة تنتج عن استهلاك القهوة والشاي واللبن والسكر واللحم والدجاج والسمك والبيض، إلخ. بحيث انشغل الناس انشغالًا عظيمًا بالبحث عن شيء يأكلونه دون أن تترتب عليه الوفاة، وانصرفوا بذلك انصرافًا تامًّا عن التفكير في أعراض اللوثة العقلية أو أسبابها.

كان من المهم جدًّا على أي حال ألا يطلق على المرض أي اسم على الإطلاق، على أمل أن عدم وجود اسم له سوف يساعد على تجاهل المرض شيئًا فشيئًا، ويجعل من الصعب التفكير فيه مستقلًّا عن غيره، حتى يتم نسيانه تمامًا. وهذا هو بالضبط ما حدث؛ فالكتب والمجلات قد تشير من حين لآخر إلى ما تعاني منه «حفنة صغيرة» من الأمريكيين من «كسل عقلي»، وحفنة أخرى من «اتجاه عدواني»، ولكنها لا تشير إلى وجود مرض بهذا الصدد، ناهيك عن وباء، بينما امتلأت الصحف ووسائل الإعلام بالحديث عن مضار التدخين والكولسترول وتناول الأطعمة الدسمة.

لم يكن غريبًا أن ينتشر المرض بسرعة في أوروبا الغربية، ففضلًا عن العلاقات التجارية الوثيقة بينها وبين الولايات المتحدة، وسهولة استيراد الفيديو منها بل وإنتاجه محليًّا بتصريح من الولايات المتحدة، فإن تركيبة المخ الأوروبي، أي نسبة بعض أنواع الخلايا إلى بعضها الآخر، كانت شبيهة بتركيبة المخ الأمريكي، ومن ثَم تجعله على استعداد كبير للإصابة بالمرض كما بيَّن الأستاذ ذو الأصل الصيني.

كان حال اليابان مختلفًا بعض الشيء؛ فعلى الرغم من كثرة منتجي الفيديو في اليابان وتحقيقهم لأرباح خيالية من إنتاجه، فإن اليابانيين لم يكونوا، هم أنفسهم، شديدي التعلق بالجهاز. كانوا في الأساس ينتجونه لغيرهم، كما كان معظمهم على وعي تام بخطورته، ولم تدمن مشاهدته إلا نسبة صغيرة منهم. على أي حال كانت غالبيتهم مشغولة بإنتاج الجهاز لدرجة لم تكن تترك لهم وقت فراغ للتفرج عليه. لم يكن أحد يدري بالضبط ما الذي كان يفعله الياباني عند عودته إلى البيت وبعد انتهائه من إنتاج الفيديو، ولا يزال هذا الأمر لغزًا يحير الناس حتى هذه اللحظة.

* * *

أما الجانب المأساوي حقيقة في قصة انتشار الفيديو فكان ذلك المتعلق بالعالم الثالث. لا أحد يزعم أن حالة هذه البلاد كانت سعيدة قبل أن يدخلها الفيديو، ولكن من المؤكد أن حل مشكلاتها لم يكن عن طريق استيراد الفيديو أو إنتاجه.

ربما كان من المقبول إلى حد ما القول بأن المشاهدة المستمرة للفيديو تكفل لك نسيان مشاكل الجهل والفقر والمرض، ولكن أن تزعم أن شراء الفيديو كفيل بالقضاء على هذه المشاكل وليس مجرد نسيانها، فهذه هي الأكذوبة الكبرى. ومع ذلك فهكذا صُوِّر الأمر لدول العالم الثالث: قيل لها إن السعادة الحقيقية هي في الجلوس أمام شاشة الفيديو، ورُوِّج لهذه الأكذوبة بمختلف وسائل الخداع وغسيل المخ، بما في ذلك بالطبع استخدام الجنس، الذي ثبتت فعاليته مع أشد الناس رزانة ورباطة جأش، وبما في ذلك أيضًا سلاح آخر لا يقل عن الجنس فعالية، وهو إثارة الإحساس بالدونية وخوف المرء من فقدان احترام الناس إذا بقي هو وحده دون الناس جميعًا بدون جهاز فيديو. وهكذا لم يمضِ وقت طويل حتى أصبح الهدف الأول لكل وزير أو رئيس للوزراء في العالم الثالث، أن يحصل لكل ابن من أبنائه، بمجرد تخرجه من الجامعة، على وظيفة تضمن له الحصول على فيديو في أسرع وقت ممكن، وحبذا لو كانت هذه الوظيفة في أحد مكاتب تصدير واستيراد جهاز الفيديو نفسه.

* * *

ساعد على انتشار هذا الغرام بالجهاز، ما أخذ يتدفق من المطابع من كُتب ومقالات، وما تكرر عقده من مؤتمرات، في كافة عواصم العالم، تشرح العلاقة بين الفيديو والنهضة، بل وما ذهب إليه الكثيرون من اعتبار كلمة الفيديو مرادفة تمامًا لكلمة النهضة. وكرس المشتغلون بالعلوم الاجتماعية بكافة فروعها جهدهم لدراسة موضوعات، انصبت عليها معظم رسائل الدكتوراه، مثل: التعليم والفيديو، صحة الطفل والفيديو، المرأة والفيديو، بل وصل اهتمام أحد الباحثين بهذا الأمر إلى حد أن أنفق من عمره سبع سنوات كاملة في البحث في أثر وجود فيديو في دورة المياه على سلوك الطفل، مع تطبيق ذلك بوجه خاص على شعوب أفريقيا جنوبي الصحراء.

كذلك وصل الأمر بهيئة الأمم المتحدة إلى حد أن اعتبرت من مهامها التي لا تقل خطورة عن مهمة حفظ السلام في العالم، مهمة نشر استخدام الفيديو في الدول الأقل حظًّا والأكثر حرمانًا منه. فأنشئت منظمة بعد أخرى لهذا الغرض،

تتبع هيئة الأمم مباشرة: منظمة لتقديم القروض الميسرة لشراء الفيديو، وأخرى لحل مشكلات ميزان المدفوعات الناشئة عن الاقتراض لشراء الفيديو، وثالثة للعمل على إزالة الحواجز الجمركية القائمة في وجه الجهاز، ورابعة لتدريب بلاد العالم على طريقة تشغيله، بالنظر إلى أن تركيبة خلايا المخ، لدى الجزء الأكبر من شعوب العالم الثالث، تتعارض مع الطريقة المثلى لاستخدام الجهاز. وعلى كل حال فقد دأبت هيئة الأمم المتحدة، بغرض نشر المعرفة بين الجميع، على نشر جداول سنوية وشهرية تتضمن مقارنة الدول بعضها ببعض في عدد أجهزة الفيديو المستخدمة لكل ألف من السكان. كما اهتمت بالأمر المنظمة السويدية التي تمنح جائزة «نوبل» كل عام، فمنحت الجائزة في إحدى السنوات لاقتصادي هولندي قامت شهرته على تأليف كتاب في التنمية بدأه بتعريف التنمية التعريف المألوف وهو زيادة عدد ساعات التعرض لجهاز الفيديو، ولكنه أثبت بعد ذلك باستخدام أساليب رياضية متقدمة للغاية، أن العامل الأساسي في تنمية العالم الثالث هو عدد المشتغلين بالتدريب على استخدام الجهاز.

* * *

منطقة واحدة من مناطق العالم الثالث بدت عصية أكثر من غيرها على استخدام هذا الجهاز. وزاد خطورة المشكلة أن هذه المنطقة كانت تحتوي على آبار يمكن أن تنتج كميات هائلة من البترول اللازم لإنتاج جهاز الفيديو نفسه. ها هي ذي منطقة صحراوية جرداء لا يسكنها إلا بعض البدو، لا يعرفون الفيديو ولم يسمعوا عنه، يقضون أمسياتهم بدلًا من ذلك في الجلوس في حلقة حول نار يشعلونها للتدفئة أو الإضاءة، ويعشقون المناظرة ومقارعة الحجة بالحجة، ويعتبرون الفصاحة في الكلام والحكمة في القول زينة الرجال وحلية النساء. ولا يجلب في نظرهم العار مثل ما تجلبه البلاهة والعجز عن الإفصاح عما يدور في النفس. لهذا السبب كان تعلمهم مشاهدة الفيديو والاستمتاع به أمرًا بالغ الصعوبة، لم يصادف منتجو الجهاز مثله في أي منطقة أخرى من مناطق العالم. لهذا ركز منتجو الجهاز جهودهم على تدريب زعماء البدو وأصحاب النفوذ منهم، مهما كلفهم ذلك على استخدامه والاستمتاع به، فلما تم لهم ذلك تركوهم

وشأنهم، وأصبح هؤلاء المشايخ يقضون ساعات يومهم في مشاهدة الفيديو حتى الساعات الأولى من الصباح، ثم النوم حتى الظهيرة، ثم شرب الشاي استعدادًا لفيديو المساء. وعلى الرغم من أن الاستمتاع الحقيقي بالفيديو قد اقتصر على هؤلاء الكبار وأصحاب النفوذ، إذ إنهم هم الذين تعرضوا للتدريب الطويل، فإن بقية البدو سرعان ما ساروا سيرتهم، لمجرد التقليد وحبًّا في الظهور بمظهر المشايخ والزعماء.

ترتب على ذلك أن أصبح الجميع ينامون حتى الظهيرة، ومن ثَم احتاج منتجو الفيديو إلى استجلاب أشخاص من الخارج للقيام بمهمة استخراج البترول وضخه. ولم يكن هذا سهلًا، إذ ليس من السهل أن تغري أحدًا بالقدوم إلى هذه البلاد التي تبلغ فيها الحرارة في معظم شهور السنة حرارة جهنم الحمراء، مهما جلب إليها من أجهزة التكييف والتبريد. لم يكن هناك إلا حل واحد: هو، مرة أخرى، ذلك الجهاز السحري الذي يحل كل المشاكل. فقد أعلن في الجرائد أن مَن يأتي إلى الصحراء للعمل، ويصبر على ذلك عامًا بأكمله، يمكنه العودة إلى بلده بعد ذلك ومعه جهاز للفيديو وثلاثة أشرطة. وقد نجح الإعلان وتدفق إلى الصحراء مئات الآلاف من البشر من مختلف البلدان الآسيوية والأفريقية.

* * *

انتشر الفيديو في العالم بأسره فيما عدا منطقة واحدة: هي منطقة الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية، التي ذهبت إلى حد إصدار قانون يمنع منعًا باتًّا إنتاج أي كمية من جهاز الفيديو، في أي صورة من الصور، أو استيراده. كان منطق هذه البلاد غريبًا حقًّا. إن حكام هذه البلاد لم يقولوا إن الفيديو يسبب لوثة أو وباءً عقليًّا، بل إنهم لم يتكلموا عن هذا الوباء أصلًا. كل ما قالوه واحتجوا عليه هو أنه في الولايات المتحدة، يوجد أشخاص يمتلكون عشرة أجهزة للفيديو أو أكثر وكثيرون لا يملكون أكثر من جهاز فيديو واحد. وأعلنوا أن هدفهم ليس هو مقاومة الفيديو بل على العكس أن يصلوا خلال عشرين أو ثلاثين عامًا إلى أن ينتجوا كمية من الفيديو تكفي لأن يكون لكل شخص ما لا يقل عن خمسين جهازًا، على أن توزع الأجهزة بالمساواة التامة. وقالوا إن هذا يستلزم أن يمتنعوا الآن، ليس فقط

عن استيراد الفيديو، بل وعن إنتاجه أيضًا، وأن يركزوا بدلًا من ذلك على صناعة الآلات المنتجة للآلات المنتجة للفيديو.

كان هذا المنطق، وإن كان مقنعًا من الناحية الحسابية المحضة، فاسدًا تمامًا من كل النواحي الأخرى؛ فهو يتجاهل تمامًا موضوع العلاقة بين جهاز الفيديو والمرض العقلي. فإذا كانت هذه العلاقة صحيحة فإن الهدف الذي أعلنته هذه الحكومة يصبح تافهًا للغاية، بل وغير جدير على الإطلاق بالسعي من أجله؛ ذلك أنه إذا كان التعرض للجهاز هو سبب المرض العقلي فإن الشخص الذي لا يملك إلا جهازًا واحدًا هو بلا شك أسعد حظًّا من الذي يملك عشرة. فما هو وجه الحماس إذن لإعطاء كل شخص خمسين جهازًا ولو كان ذلك بمراعاة مبدأ المساواة المطلقة؟

على الرغم من سخافة هذا المنطق فقد سبب صداعًا شديدًا لمنتجي الفيديو في الولايات المتحدة، إذ إنه كان سببًا مستمرًّا لإثارة الشغب بين العمال المنتجين للفيديو داخل الولايات المتحدة نفسها، الذين لا يكفون عن المطالبة بالحصول على عدد أكبر من الأجهزة. كانت الوسيلة التي اتبعها منتجو الفيديو الأمريكيون هي إجبار حكومات هذه الدول على الدخول في سباق للتسليح لا بد أن ينتهي، آجلًا أو عاجلًا، بالتسليم. وفي نفس الوقت كان منتجو الفيديو يُهربون من وقت لآخر جهازًا للفيديو في ببعض حقائب المسافرين إلى الاتحاد السوفيتي وأوروبا الشرقية، مما نجح في إيقاع كثير من الشباب في براثنه. انتهى الأمر فجأة بأن أعلن حكام أوروبا الشرقية أنه قد تبين لهم للأسف استحالة الوصول إلى هدف إنتاج خمسين جهازًا للفيديو للشخص الواحد في المستقبل المنظور، ومن ثَم فإنهم قد عقدوا صفقة هائلة مع الولايات المتحدة تتضمن استيراد البلايين من أجهزة الفيديو مع شرائطها استجابة لرغبة الشباب في تحقيق حياة أفضل.

* * *

في سنة ١٩٦٨ حدث حادث خطير أطار النوم من عيون منتجي الفيديو الأمريكيين والأوروبيين معًا. فقد نجح بعض الأطباء الأمريكيين في أن يهرِّبوا إلى فرنسا نسخة من المحاضرة التي أثبت فيها الأستاذ الأمريكي ذو الأصل الصيني

العلاقة بين جهاز الفيديو والوباء العقلي. حصل على نص المحاضرة بعض طلبة جامعة باريس فجن جنونهم. أعلنوا الإضراب العام، وأشعلوا الحرائق في شوارع باريس وأقاموا المتاريس، وسرعان ما انتشر الإضراب من جامعة إلى أخرى، ليس فقط في فرنسا بل وفي بقية دول أوروبا الغربية. بل امتد إلى بعض الجامعات الأمريكية نفسها، حيث شعر الشباب هناك بالخزي عندما علموا أن المحاضرة كانت معروفة لدى الشركات الأمريكية منذ البداية وتكتموا أمرها.

بدأ هؤلاء الطلبة الثوار يعيدون النظر في طريقة حياتهم بأكملها، على ضوء ما جاء بالمحاضرة، فاكتشفوا أشياء ليس من السهل تصديقها. اكتشفوا مثلًا أن كثيرًا من آبائهم كانوا يعلمون بمضمون المحاضرة وآثروا الصمت خوفًا مما وصلهم من تهديدات بفصلهم من أعمالهم لو أخبروا أحدًا بمحتواها. بل واكتشفوا أن المقررات التي كانت تُدرس لهم في المدارس والجامعات كانت توضع كلمة بكلمة في شركات إنتاج الفيديو، وترد إلى وزارات التعليم جاهزة وبصفة دورية عامًا بعد عام، وأن هذه المقررات كانت تحتوي على دعاية مستترة للفيديو لم يكونوا قد لاحظوها من قبل.

المهم أن جزءًا كبيرًا من الطلاب أعلنوا عن نيتهم في الامتناع عن التوظف بعد أن يتخرجوا من الجامعة، سواء في القطاع الخاص أو العام، حتى لا تستخدم الوظيفة في تهديدهم بالكف عن الدعاية ضد الفيديو. كما طالبوا بتشكيل لجنة من الطلبة تراجع المقررات الدراسية بنفسها كل عام وتشطب منها كل إشارة واضحة أو مستترة للجهاز. لم يكن من السهل على منتجي الفيديو التعامل مع هذه الحركة، ولكنهم مع ذلك لم يعدموا وسيلة، خاصة وأنهم تسلحوا بالصبر، وقرروا أن الاستعجال في معالجة هذه الأمور خطأ، وأن الزمن، إذا أحسن المرء التصرف، كفيل بعلاج الأمر. فبعد سنوات قليلة من بداية حركات الشباب المناهض للفيديو انتشر في العالم الغربي ما يمكن تسميته بـ«التضخم العظيم»، قياسًا على ما حدث في الثلاثينيات من «كساد عظيم». فارتفعت الأسعار ارتفاعًا شديدًا ومفاجئًا، واستمر الارتفاع يتزايد سنة بعد أخرى. لم يكن أحد يتصور أن يكون هذا التضخم فعَّالًا لهذه الدرجة في القضاء على حركة

الشباب الغاضب، فقد وجد هذا الشباب نفسه فجأة مطالَبًا بالعمل ساعات طويلة لمجرد كسب القوت أو دفع إيجار السكن، ولم يعد آباؤهم بسبب التضخم في مركز يسمح لهم بتلبية طلبات أولادهم المتمردين الرافضين للتوظف. لقد بدا الأمر مثيرًا للشفقة إذ كنت ترى هؤلاء الشباب الذين لم يكن لهم في نهاية الستينيات ومطلع السبعينيات إلا الكلام عن مساوئ الفيديو والتطلع إلى عالم خالٍ منه، وقد تحولوا تدريجيًّا منذ منتصف السبعينيات إلى موظفين محترمين لا يجدون هم أنفسهم أي غضاضة في اقتناء جهاز أو جهازين منه. وعندما فكر أحد مقدمي البرامج التلفزيونية منذ بضع سنوات في أن يقدم برنامجًا يصور ما حدث من تطورات لقادة الشباب، بعد انقضاء عشرين عامًا على حركتهم، كان منظر هؤلاء القادة القدامى، عندما ظهروا على شاشة التلفزيون، مثيرًا للضحك والرثاء حقًّا: ففضلًا عما أصابهم من سمنة مفرطة في كافة أجزاء الجسم، كان معظم حديثهم عن آخر الأفلام التي شاهدوها عن طريق الفيديو. ولا يعرف أحد حتى الآن ما إذا كان هذا التضخم العظيم قد حدث من تلقاء نفسه بسبب تفاعل القوى الاقتصادية العمياء، أم بتدبير متعمد من أصحاب شركات الفيديو بهدف القضاء على حركة الشباب.

* * *

كان من الطبيعي أن تتسرب بضع نسخ من المحاضرة إلى بعض دول العالم الثالث، ولكن رد الفعل، كما لا بد أن نتوقع، كان مختلفًا إلى حد كبير عنه في أوروبا.

لقد تحرك الشباب في العالم الثالث أيضًا ضد الفيديو، ولكن الدافع كان مختلفًا بعض الشيء. كان هناك الكثيرون من شباب العالم الثالث الذين يتلهفون على اقتناء جهاز الفيديو دون أن تكون لديهم القدرة على شرائه، ومن ثَم فإن العداء الذي أبداه كثيرون منهم ضد الفيديو لم يكن في كثير من الأحيان إلا تعبيرًا عن غيرتهم ممن استطاعوا شراءه، أو تبريرًا يقدمونه لأنفسهم لعجزهم عن الشراء.

كانت طريقة التعامل مع هؤلاء بسيطة وواضحة كالشمس: إذ يكفي أن تعطي جهازًا من أجهزة الفيديو أو جهازين للشخص الساخط بسبب حرمانه منه فإذا به

يتحول إلى صديق أليف. ولكن بالنظر إلى أن هذا الحل، على سهولته ووضوحه، كان حلًّا مكلفًا للغاية، إذا تعلق الأمر بالألوف ناهيك عن الملايين الساخطين، فإن منتجي الفيديو لجأوا إلى فكرة أخرى جهنمية ولكنها بالغة الفعالية. لقد عقدوا صفقة مع بعض الأشخاص الساخطين ممن يتسمون بذكاء أعلى بقليل من المتوسط، وكثير من الفصاحة والجاذبية الشخصية، مؤداها أن يعطوا لكل منهم جهازًا للفيديو كل شهر في مقابل أن يلقوا أحاديث يومية في التلفزيون تدور كلها حول الأضرار الشنيعة التي تعود على المرء من استخدام الفيديو أثناء حياته، والمنافع المؤكدة التي تعود عليه من استخدامه بعد الموت، وأن هناك علاقة عكسية بين الاستمتاع بالفيديو قبل الموت وبعده؛ فكلما زاد الاستمتاع به قبل الموت قل الاستمتاع به بعد الموت، والعكس بالعكس. كانت الحيلة إذن مدارها توفير النفقات؛ إذ لم يعد من الضروري توزيع أجهزة الفيديو في صورة رشوة، فضلًا عما كانت تؤدي إليه من امتصاص غضب العاجزين عن شراء الجهاز. وعلى الرغم من الانخفاض الواضح في مستوى هذه الأحاديث، وعلى الرغم مما ظل يتردد من إشاعات لا نهاية لها من أن أصحاب هذه الأحاديث يقضون كل مساء، هم أنفسهم، في مشاهدة أفلام الفيديو، على الرغم من ذلك فإن هذه الأحاديث حققت نجاحًا منقطع النظير، وطالب الناس بإذاعتها مرتين في اليوم بدلًا من مرة واحدة، بل بلغ الأمر أن بعض حائزي الفيديو سجلوا هذه الأحاديث على شرائط وباعوها لغيرهم ممن يمتلكون الجهاز.

* * *

على أن بعض المعترضين على الفيديو في العالم الثالث لم يكن سبب اعتراضهم مجرد عجزهم عن شرائه، بل كان يدفعهم إلى ذلك شعور نبيل للغاية بالاعتزاز بالنفس والكرامة الشخصية، جعلهم يمتعضون أشد الامتعاض كلما رأوا المنظر المهين لأبناء عشيرتهم جالسين فاغري الأفواه أمام هذا الجهاز. بعض هؤلاء آثر الابتعاد والنجاة بنفسه دون احتجاج أو إحداث أي ضجيج، ولكن بعضهم لم يستطع الصمت. وإذ لم يكن من المجدي مع هؤلاء إغراؤهم بجهاز أو جهازين، فقد اتبعت معهم أساليب أكثر وحشية. من هؤلاء واحد من

مشايخ البدو الكبار كان يعبر من حين لآخر عن حنينه للأيام الخوالي التي كان يتجمع فيها البدو حول جذوة نار، يتبادلون الحديث ويتلون الأشعار، ثم حدث في أحد الأيام في منتصف السبعينيات أن جن جنونه عندما طُلب منه أن يفرش عباءته على الأرض ليوضع عليها جهاز الفيديو، إذ رفض بعنف، واعتبر الطلب امتهانًا شديدًا لكرامته، وقام وترك المجلس غاضبًا، فإذا بأحد أقربائه من الشباب يطعنه في اليوم التالي بخنجر مسموم قضى به نحبه. قيل وقتها إن هذا الشاب كان مختل العقل وإن الحادثة لا علاقة لها البتة بحادثة العباءة. ولكن بعض العارفين تحدثوا هامسين بأن الشاب القاتل كان على علاقة جنسية شاذة بشاب أمريكي ثري يمتلك أبوه أحد مصانع الفيديو في شيكاغو.

* * *

كل هذا كان مقدورًا عليه، ثم حدث شيء رهيب قلب الدنيا كلها رأسًا على عقب؛ إذ توصلت شركة يابانية، وشركة أخرى ألمانية، في نفس الوقت بالضبط، ولكن دون أن تكون هناك أدنى علاقة بينهما، إلى اختراع جهاز لم تعرف الإنسانية مثله من قبل، نعم هو جهاز للفيديو، ولكنه كان فريدًا من نوعه بحيث كانت أجهزة الفيديو السابقة عليه، إذا رؤيت بجواره، تبدو مضحكة للغاية. كان شيئًا لا يزيد حجمه على الكف، خفيفًا كالريشة، على أحد جانبيه شاشة صغيرة كشاشة التلفزيون، وعلى الجانب الآخر عدد كبير جدًّا من الأزرار الصغيرة. أما الشريط الذي يوضع فيه فهو عبارة عن ورقة أصغر قليلًا من ورقة الكوتشينة، ويمكن أن يحتوي على ما لا يقل عن عشرين ساعة من الأفلام الملونة والناطقة. أما هذا العدد اللانهائي من الأزرار، فبعضها يقدم لك ترجمة مطبوعة على الصورة للكلام المصاحب للفيلم، بخمس عشرة لغة مختلفة تختار منها ما تشاء، وبعضها يقوم بمهمة الكاميرا، فتستطيع أن تستخدم نفس الجهاز في التصوير وتسجيل الصوت، وبعضها يسمح لك بنقل الصورة إلى مساحة أكبر، على الحائط مثلًا أو على شاشة كبيرة معلقة، كل هذا بالإضافة بالطبع إلى جميع الوظائف التقليدية التي كان يقوم بها جهاز الفيديو القديم، كتسجيل الأفلام في غيابك في أي ساعة تشاء، إلخ.

نزل هذا الخبر على أصحاب شركات الفيديو الأمريكية كالصاعقة. فإنتاج هذا

الجهاز من شركة يابانية أو ألمانية لا يعني إلا شيئًا واحدًا: الإفلاس التام وخراب بيوت كل مَن له علاقة مباشرة أو غير مباشرة بإنتاج الفيديو أو الأشرطة في الولايات المتحدة. كان واضحًا كالشمس أن هذا الأمر يجب وقفه فورًا ودون تأخير. فكر المنتجون الأمريكيون في تمويل حملة إعلان هائلة تحاول إقناع الناس بوجود علاقة بين الفيديو الصغير ومرض الإيدز، ولكنهم استبعدوا أن تنجح مثل هذه الحملة فضلًا عن تكاليفها الباهظة. لم تكن هناك إلا وسيلة واحدة: إرسال حملة عسكرية لاحتلال آبار البترول التي يعتمد عليها المنتجون اليابانيون والألمان اعتمادًا تامًّا، ومن ثَم إجبار هؤلاء على التوقف عن إنتاج الفيديو الصغير. كان ترتيب ذلك من الناحية العسكرية سهلًا للغاية، وإنما كانت المشكلة في آثاره السياسية والاجتماعية. فقد قُدر أن عدد القتلى والمشردين لن يقل عن مليون ونصف مليون من البشر، معظمهم من الكويتيين والمصريين والهنود، بالإضافة إلى النساء من فقراء الفلبين وسريلانكا وبنجلاديش، فضلًا عن الإذلال الشديد الذي سوف يتعرض له شيوخ البدو وما سوف يشعرون به من مرارة، عندما يتكشف لهم الأمر بما ينطوي عليه من خيانة ونكران للجميل. ولكن الأمر لم يكن يحتمل التأخير، وسوف يُنظر في تعويض الخسائر فيما بعد. بل إن بعض مؤيدي الحملة العسكرية ذهبوا إلى القول بأن الآلام التي سوف تصيب أثرياء الكويتيين هي آلام محدودة ومؤقتة؛ إذ لن يزيد الأمر عن أنهم سوف يضطرون إلى مشاهدة الفيديو في لندن أو جنيف أو سان فرانسيسكو بدلًا من مشاهدته في الكويت، وأن مشاهدة الفيديو داخل الوطن لا تختلف كثيرًا عن مشاهدته خارج الوطن.

* * *

كان المنظر الناتج عن الغزو واحتلال آبار البترول مذهلًا في بشاعته وغرابته. رجال ونساء وأطفال يجرون بأقصى سرعة في الصحراء تحت شمس أغسطس الحارقة، وعلى ظهر كل منهم جهاز ثقيل للفيديو يزيد الحركة صعوبة، ويزيد بسببه توغل الأقدام في الرمال. أما أصحاب السيارات فقد شقوا مقاعد سياراتهم بسرعة جنونية أخرجوا ما فيها من قش ووضعوا في كل منها جهازًا للفيديو، ثم أعادوا حياكة المقاعد حتى تبدو طبيعية، ثم جلسوا عليها رغم ما كان يجلبه

لهم الجلوس على هذه الأجهزة الصلبة من ألم. بل لقد عمدت بعض السيدات إلى خلع ملابسهن الداخلية وغطت بها أجهزة الفيديو حتى ينخدع بها الجنود الغزاة فلا يخمنوا وجود مثل هذه الأجهزة تحتها. كان الجنود الغزاة يبحثون في المقام الأول عن أجهزة الفيديو والشرائط، وكثيرًا ما نسوا الاستيلاء على زجاجات الماء، حتى في مثل هذه الحرارة العالية، من أجل نقل أجهزة الفيديو التي استولوا عليها إلى مكان أمين.

طوال طريق الهرب كان جهاز الفيديو هو أداة التبادل في المعاملات، والموضوع الوحيد للحديث، والسبب الوحيد المثير للنزاع. على أن أكبر الحوادث إثارة للأسى كان ذلك الحادث الذي وقع لسيدة مصرية في نحو الخامسة والأربعين من عمرها، حاصلة على الدكتوراه في علم الاجتماع من جامعة لندن، كانت في الكويت أثناء الغزو. عندما هرع زوجها وأولادها إلى السيارة للهرب، رفضت رفضًا باتًّا أن تعود معهم إلى مصر، وقالت لهم إنها أنفقت نصف عمرها بالضبط في الكويت تجمع أجهزة الفيديو، ولا يمكن لها أن تحملها كلها معها، كما أنه لا يمكن أن تتركها في الكويت وتعود إلى مصر، إذ إن هذا يجعل حياتها كلها تبدو كنكتة شيطانية قذرة. قالت إنها باقية في شقتها إلى جانب أجهزة الفيديو، وإنها على استعداد لدفع حياتها دفاعًا عنها. وكان هذا هو ما حدث.

* * *

بعد عشر سنوات بالضبط من غزو الكويت توصل منتجو الفيديو الأمريكيون إلى سر إنتاج جهاز الفيديو الصغير فأنتجوه، وامتلأ العالم كله بالدعاية له مما يذكر بالحملة التي أُطلقت في منتصف الأربعينيات لترويج مشروب «الكوكاكولا». ولم تمضِ بضع سنوات أخرى حتى انتشر الجهاز الجديد بنفس درجة انتشار «الكوكاكولا»، فأصبحتَ تجده في يد العامل الأوروبي والأمريكي والروسي، كما تجده في يد الفلاح المصري البسيط وهو راكب حماره، وفي أيدي الرعاة في شرق أفريقيا. وأصبح هو محور الحياة وقرة العين، هو الغاية والوسيلة، هو مؤشر التنمية ومقياس النجاح، تقوم من أجله الحروب، وتقتل المرأة من أجله زوجها أو حماتها. وأصبح من المناظر المألوفة في كل مكان منظر الناس وهم

يحملونه أثناء سيرهم في الطريق، وقد مد به كل منهم يده اليمنى لتحسن رؤيته، بينما يراقب بالعين اليسرى بقية الطريق، ولا يبادل بعضهم البعض الحديث، وإنما تسمع من حين لآخر قهقهة من اليمين، يتلوها صياح تشجيع لأحد لاعبي الكرة من اليسار.

* * *

أثناء ذلك نشرت بعض الصحف أن السفير الإسرائيلي في الرياض تقدم بطلب مقابلة أحد الوزراء، ليس بوصفه وزيرًا في دولة عربية ثرية، ولكن باعتبار دولته هي حامية التراث العربي والثقافة العربية، وأن الموضوع باختصار أن شركة إسرائيلية عكفت منذ ما يزيد على خمسة عشر عامًا على حصر التراث العربي بأكمله، من شعر ونثر وفلسفة وحكمة وتاريخ، إلخ، وفي مقدمته بالطبع علوم القرآن الكريم والحديث، وأنها توصلت إلى طريقة لفرز هذه الأعمال والتمييز بين ما يصلح منها وما لا يصلح للتسجيل على شرائط الفيديو الصغير، مع إدخال تعديلات طفيفة للغاية على بعض هذه الأعمال المأثورة بما لا يؤثر على محتواها أو ينقص من رهبتها الدينية والتاريخية، بل فقط لجعلها ملائمة للتسجيل على هذه الأشرطة. فتختصر مثلًا المعلقات المطولة، وتوضع فواصل موسيقية ملائمة بين الأحاديث النبوية، وتستخدم الصورة لإضفاء بعض الجاذبية عليها. وشرح له بلهجة معتذرة أنه من أجل أن يصبح المشروع اقتصاديًّا، قد يكون من الضروري إدخال بعض الإعلانات القليلة جدًّا في كل شريط، ولكن هذا يهون في سبيل النفع المحقق من نشر هذه الأعمال بين أوساط المتعلمين وغير المتعلمين، بينما هي الآن في متناول حفنة ضئيلة من المثقفين، كما أن من الممكن أن نحاول أن نقنع أصحاب الإعلانات بتجنب الصور الجنسية الفاضحة.

* * *

كان من الطبيعي أن يصاحب انتشار الفيديو الصغير، انتشار الوباء العقلي الذي كان قائمًا في ظل الفيديو القديم، بل وأن يكون انتشار الوباء الآن بمعدل أكبر، حتى إنه لم يعد هناك أي دولة من الدول، إلا عدد يُعد على الأصابع، ممن

لم يصابوا به. وقد يندهش البعض أنه على الرغم من ذلك لم يطلق على الوباء أي اسم، ولكن الحقيقة أن هذا يجب ألا يُدهش أحدًا، فنحن نطلق اسمًا على شيء لتمييزه عن غيره، فإذا انعدم التمييز، مع إصابة الجميع بالمرض، فلا يصبح هناك وجه لإطلاق الأسماء. ربما كانت المحاولة الوحيدة التي بذلت في هذا الصدد، هي تلك التي قام بها الرئيس الأمريكي «بوش»، وهو يشرح أغراض الحملة الحربية على الكويت، إذ قال إنه يقوم بهذه الحملة دفاعًا عن «النمط الأمريكي في الحياة»[1].

---

(١) سبق نشر هذا الفصل في جريدة «الأهالي»، في أعقاب مجيء القوات الأمريكية للكويت في سنة ١٩٩١.

٣

حدث في «لوس أنجلوس»

كلما استعدت في ذهني ما حدث لي عند وصولي إلى أمريكا لأول مرة، أجده مدهشًا بل ومضحكًا.

لم تكن هي بالضبط أول مرة تطأ فيها قدمي الولايات المتحدة، ولكني أعتبرها تقريبًا كذلك؛ إذ كانت زيارتي الأولى (قبل ذلك بثلاثة شهور) قصيرة جدًّا، لا تتجاوز أربعة أيام، ولمدينة إقليمية صغيرة في وسط القارة الأمريكية الشاسعة، ولم أكد أرى خلالها شيئًا، إذ قضيتها كلها تقريبًا في مؤتمر داخل حوائط أربعة.

أما في هذه المرة، فقد كانت زيارة لمدينة «لوس أنجلوس» الضخمة، في ولاية كاليفورنيا الشهيرة بثرائها وريادتها، إذ قيل إن ما يحدث في أمريكا لا بد أن يبدأ حدوثه في كاليفورنيا. وجئت بقصد قضاء سنة دراسية كاملة أدرِّس فيها في جامعة «لوس أنجلوس»، وأشترك في تأليف كتاب مع بعض أساتذتها.

كانت شقيقة زوجتي، المتزوجة من أمريكي، تقيم في «لوس أنجلوس»، في نفس المدينة التي سأقوم بالتدريس فيها، أو هكذا ظننت. كان هذا أول خطأ فادح ارتكبته في تلك البلاد: أن أظن أن النزول في البداية في منزل شقيقة زوجتي يعد أفضل ما يمكن عمله حتى أنهي ترتيبات بداية العمل والعثور على سكن. نعم، الجامعة التي سأعمل بها والبيت الذي تقيم به شقيقة زوجتي، يقعان في «لوس أنجلوس»، ولكن المسافة التي تفصل بينهما تعادل المسافة بين القاهرة والإسكندرية. والأفظع من ذلك أنه ليس هناك أي وسيلة مواصلات عامة يمكن أن تنقلك من هذا المكان

إلى ذاك: لا قطار ولا أتوبيس ولا طائرة. لا بد أن تقطع المسافة بسيارتك الخاصة، فإذا لم تكن تملك سيارة، فعليك أن تستأجرها وتقودها بنفسك، إذ إن التاكسي لا بد أن يكلفك نسبة كبيرة من مرتبك الشهري.

ذهبت إذن لاستئجار سيارة وكانت سيارة جديدة بديعة، ولكني لم أقم بقيادة مثلها من قبل، ناهيك عن قيادة سيارة في طرق أمريكا السريعة التي تنبهك طوال سيرك فيها، لا إلى حدود السرعة القصوى بل إلى حدودها الدنيا. فحياتك معرضة للخطر إذا التزمت الحذر وسرت سيرًا بطيئًا؛ إذ إن كل قائدي السيارات الأخرى لا يتصورون أن يسير أحد بسرعة أقل من سرعتهم.

زاد الطين بلة ما تمتلئ به هذه الطرق السريعة من علامات وإشارات وتنبيهات لم أعهد مثلها قط، لا في مصر ولا في أي مدينة أوروبية؛ فأنت باستمرار معرض للخطأ الفادح إذا التزمت الحارة اليمنى بدلًا من الوسطى أو اليسرى، إذ قد تجد نفسك مضطرًّا بعد قليل للخروج من الطريق السريع، وفي مكان لم ترد قط أن تجد نفسك فيه. وإذا التزمت الحارة اليسرى فقد تجد نفسك تتجه جنوبًا بدلًا من الاتجاه إلى الشمال كما كنت تريد. الحارة الوسطى قد تكون هي الأنسب، ولكن هذه الحارة سرعان ما تتفرع إلى ثلاث حارات أو خمس، وعليك أن تتنبه جيدًا لكي تختار الحارة الملائمة لذلك الحي من المدينة الذي تريد الوصول إليه، من بين عدد كبير من الأحياء التي لم يخبرك أحد بأسمائها من قبل.

وجدت نفسي إذن، بمجرد دخولي إلى هذا الطريق السريع، في غابة من اليفط والإشارات والتحذيرات التي تشير إلى مختلف الاتجاهات، والتي عليك قراءتها والاختيار من بينها بكل دقة، وإلا حدث ما لا تحمد عقباه. كانت النتيجة أن ارتكبت خلال هذه الرحلة المرهقة عددًا من الأخطاء من بينها الاتجاه جنوبًا، لفترة ما، بدلًا من الاتجاه شمالًا، مما لم أكتشفه إلا بعد أن رأيت تغيرًا ملحوظًا في الطبيعة المحيطة بي، وهو ما رجحت أنه لا يمكن أن يوجد في مدينة «لوس أنجلوس»، ومنها إثارة غضب سائقين آخرين بسبب سيري بسرعة أقل من المسموح به، والنزول في الحي الذي تقع فيه الجامعة ولكن في جزء لا تستطيع الخروج منه إلى غيره إلا بشق الأنفس، إلخ.

* * *

خطر لي خاطر مهم عندما أتيحت لي فرصة التفكير فيما حدث لي، وهو ما يمكن

تلخيصه في العبارة الآتية: «المعرفة ليست عملية إضافة معلومات جديدة، بل هي في الواقع عملية استبعاد بعض المعلومات من الكمية الضخمة من المعلومات المطروحة عليك». ذلك أني وجدت أن السبب الأساسي فيما ارتكبت من أخطاء، ليس قلة التوجيهات والإشارات بل كثرتها، وأنني لم أكن قد اكتشفت بعد أي اللافتات يجب أن أقرأه، وأيها يجب إهماله. إن الحرص على قراءة المكتوب على كل اليفط التي تقابلها في الطريق (لمجرد أني لم أصادف مثلها من قبل) هو الذي أدى إلى تضليلي وتشتيت ذهني، ومن ثَم إلى ارتكاب هذه الأخطاء.

أعجبتني الفكرة، واقتنعت بوجاهتها، وقلت لنفسي، إنها لا بد أن تنطبق حتى على الحيوانات. فالكلب مثلًا أو القط، لا بد أن يمر بحواسه عدد لا نهاية له من الإشارات والمؤثرات، وأن نجاحه في المحافظة على حياته وحماية نفسه وأولاده من الأخطار، يتطلب عملية اختيار أو استبعاد من بين هذه الكمية اللانهائية من المؤثرات، فلا يستجيب إلا للمفيد منها ويتجاهل غيرها.

* * *

مرت بضع سنوات على هذه الواقعة، ثم حدث أثناء حديث بيني وبين أولادي (وكانت أعمارهم حينئذ تتراوح فيما أذكر بين ١٢ و١٧ عامًا) أن قلت لهم ما معناه أن المعرفة هي عملية استبعاد لمعلومات وليست إضافة لها. قلتها بمرح وأنا أتوقع بعض الاستغراب منهم. فإذا بي أقابَل، ليس فقط باستغراب، بل بالرفض والهجوم الشديد؛ إذ رفضوا كلهم رفضًا باتًّا، أن يكون هذا وصفًا ملائمًا للمعرفة، وانضمت إليهم زوجتي التي لم تصدق أنني أعني حقًّا ما أقول.

لكي أدافع عن نفسي، ذكرت لهم تجربتي في الطرق السريعة بـ«لوس أنجلوس»، فلم يكفِ هذا بالطبع لإقناعهم، إذ إن كل ما نقرأه أو نسمعه مما له علاقة بهذا الموضوع، يفترض أن اكتساب المعرفة ينطوي على إضافة إلى ما لدينا من معلومات، أو إضافة ما نستخلصه من هذه المعلومات. ثم حدث بالصدفة أن وقعت يدي على كتاب جذبني عنوانه هو: «سيكولوجيا الوعي» لكاتب اسمه «روبرت أورنشتاين»[١] فأخذت أتصفحه، ووجدته في أحد فصوله يقتطف من كتاب لكاتب إنجليزي شهير

(١) Robert Ornstein, *The Psychology of Consciousness*

أحبه وأتعاطف مع مواقفه وهو «ألدوس هكسلي». وكم كان فرحي إذ وجدت «هكسلي» يقول:

عندما أفكر في تجاربي الخاصة، أجد نفسي متفقًا في الرأي مع فيلسوف جامعة «كامبردج» المرموق، الدكتور «س. د. برود»[١] في قوله إننا نحسن صنعًا لو أعطينا اهتمامًا أكبر مما أعطينا حتى الآن، لنوع التفكير الذي طرحه الفيلسوف «هنري برجسون» في مناقشته للعلاقة بين الذاكرة والإدراك الحسي، وهو أن وظيفة المخ والجهاز العصبي والحواس هي في الأساس «استبعادية» (*eliminative*) وليست في الإضافة (*productive*). إن كل شخص له القدرة في كل لحظة على تذكر كل ما مر به من تجارب وأحداث، وعلى إدراك كل ما يحدث في أي مكان في العالم، ولكن وظيفة المخ هي أن يقوم بحمايتنا من أن نغرق ونضيع تمامًا، وسط هذه الكمية الهائلة من المعارف التي لا فائدة منها ولا تعنينا في شيء، وذلك بأن يستبعد من أذهاننا الجزء الأكبر مما نتعرض له من مدركات وذكريات في أي لحظة من اللحظات، تاركًا فقط ذلك الجزء الصغير والمختار بعناية، والذي يمكن أن يكون ذا فائدة عملية لنا. كل شخص منا، طبقًا لهذه النظرية، يحمل ما يمكن أن يكون ذهنًا ضخمًا (*Mind at Large*) ولكن مهمتنا الأولى، بصفتنا جزءًا من المملكة الحيوانية، هو أن نحافظ على بقائنا على قيد الحياة، مهما كانت تكلفة ذلك. ومن أجل أن نجعل استمرار وجودنا البيولوجي ممكنًا، يجب أن يمر ذلك الذهن الضخم من خلال صمام المخ والجهاز العصبي، فلا يسمح بالخروج من هذا الممر إلا لجزء ضئيل للغاية، يمثل ذلك النوع من الوعي الذي يساعدنا على البقاء على سطح هذا الكوكب بالذات.

* * *

قلت لنفسي بانتصار: إن ابني الذي يكمل هذا العام ٤٥ سنة من عمره، سوف يأتي لزيارتنا بعد أيام قليلة من بيروت، وسأنتهز أول فرصة بعد استراحة قصيرة أسمح له بها، لأقرأ له هذه الفقرة التي تعلن بوضوح أني كنت على صواب.

---

(١) C.D. Broad

٤

أمريكا في ٢٠١١

أتيح لي في صيف ٢٠١١ أن أرى الولايات المتحدة مرة أخرى؛ حيث قمت بزيارة ابني الذي يقيم بمدينة جميلة من مدنها («سياتيل») في أقصى الشمال الغربي، والتي تطل على المحيط الهادي.

كنت قد رأيت الولايات المتحدة لأول مرة قبل ذلك بثلث قرن (١٩٧٨)، وأذهلني حينئذ اختلافها الشديد، والذي لم أكن أتوقعه، عن أوروبا. كنت أظن أن أمريكا، باعتبارها امتدادًا للحضارة الأوروبية، لن تختلف عن أوروبا إلا من حيث الكم: مستوى الدخل أعلى، وأنواع السلع أكثر، والسيارات أكبر، والطرق أوسع، إلخ، فإذا بي أجد الولايات المتحدة وكأنها أنشأت حضارة مختلفة تمامًا، وأن ضمَّ نمطَي الحياة، الأمريكي والأوروبي، تحت مسمى واحد (الحضارة الغربية)، لا يعبر عن الحقيقة بدقة، وقد نكتشف بعد مرور زمن كافٍ، أنهما في الحقيقة حضارتان.

رأيت في أمريكا في ذلك الوقت ما أذهلني، مثلما أذهل كثيرين غيري من العرب عندما رأوها لأول مرة، بل وأذهل كثيرين من الأوروبيين أيضًا. قلت لنفسي: «فلتنظر الآن ما فعل ثلث قرن آخر بالأمريكيين»، وقد كبرت أنا أيضًا بمقدار ثلث قرن، ولا بد أن تكون نظرتي الآن إلى أمريكا والأمريكيين مختلفة عما كانت.

* * *

حدثت الصدمة الأولى بمجرد وصولي إلى مطار «سياتيل». كنت قد حصلت

في القاهرة على تأشيرة دخول الولايات المتحدة دون مشقة، على الرغم من غرابة بعض الأسئلة التي كان عليَّ الإجابة عليها في استمارة طلب التأشيرة، ولا أعرف إجابتها، مثل تاريخ ميلاد الأم، وسؤال آخر عما إذا كنت قد قمت بعمل إرهابي في أي يوم من الأيام، إلخ. ضربت الصفح عن مثل هذا وتوقعت أني، بعد أن حصلت على التأشيرة، لن يحدث ما يضايقني من المسؤولين عن الهجرة والجوازات لدى وصولي.

بمجرد وصولي إلى مكتب الجوازات بالمطار رأيت ما ذكَّرني فجأة بما كنت قد استغربته جدًّا عند وصولي أول مرة منذ ٣٣ عامًا. ليس للأمريكي شكل واحد، ولا لون واحد، ولا أصل واحد، فما أن ترى أحدهم حتى تنشأ لديك رغبة في أن تسأله: «من أي بلد أتيت؟». كلهم بالطبع أمريكيون، ولكنهم وُضعوا لفترة ما، تطول أو تقصر، هم أو آباؤهم أو أجدادهم، في تلك البوتقة الشهيرة التي صهرتهم فجعلتهم أمريكيين، وإن اختلفت أشكالهم وألوانهم.

ولكن موظف الجوازات، وإن كان قد قابلني بأدب تام، أحالني إلى آخر، وأحالني هذا الآخر إلى آخر، مرة بزعم أن بصمات أصابعي غير واضحة، ومرة بزعم أنها لا تطابق بصمات أصابعي القديمة التي أخذوها مني في مرة سابقة. وقد اضطرت ابنتي، التي كانت في صحبتي، إلى أن تقف في انتظاري مدة طويلة وهي قلقة من أن يشكُّوا في كوني «إرهابيًّا».

عندما انتهيت من هذا، وسمحوا لي بالمرور إلى صالة الجمرك، تعرضت لصدمة أخرى؛ إذ أراد مفتش الجمرك أن يتحقق من أني لا أحمل من الدولارات أكثر مما ذكرت في استمارة الجمارك. ما الذي يخافونه بالضبط؟ غسيل الأموال؟ ربما. ولكن هل يبدو عليَّ ما يجعل هذا الشك في محله، لدرجة أن يفحص المفتش حافظة نقودي بدقة بالغة، ويحاول أن يدخل أصبعه في ثنايا بطانة المحفظة، خوفًا من أن أكون قد أخفيت بضعة دولارات لم أعلن عنها؟

سألت الرجل بعد أن انتهى من عمله، عن سبب هذا الإصرار على مثل هذا التفتيش، مع أنه لا يمكن أن يكون في مظهري أو سني أو وظيفتي المسجلة في الاستمارة، ما يمكن أن يبعث على هذا الشك. أبدى الرجل دهشة حقيقية من هذا

السؤال؛ إذ كيف أستغرب أن يطبق الرجل القانون على أي شخص؟ وكيف يمكن أن أتوقع أن بعض الناس يمكن استثناؤهم من تطبيق القانون لأي سبب؟

تذكرت على الفور ما كنت قد اكتشفته لأول مرة منذ ثلث قرن، واستغربته وقتها استغرابًا شديدًا: الصرامة والغلظة اللتين يعامل بهما رجال الشرطة أو الموظفون العموميون المواطنين الأمريكيين جميعًا، مما لم أقابل مثله قط في أوروبا، وقد فسرت ذلك وقتها بحاجة السلطة في أمريكا إلى استخدام درجة عالية من الغلظة مع مهاجرين يأتون من شتى أنحاء الأرض، ومن مختلف الطبقات ومستويات التعليم، لا يجمعهم إلا الرغبة في تحقيق حياة مادية أفضل في أمريكا مما كانوا يلاقونه في بلادهم الأصلية.

لم ينجح تذكري لهذا التفسير في التخفيف مما شعرت به إزاء هذه المعاملة، ولكن الذي أنساني متاعبي فجأة، رؤية ابني وهو واقف في انتظاري، وقد اعتراه بدوره ما كان قد اعترى ابنتي من قلق لطول اختفائي وراء أبواب مغلقة.

لا بد أن يكون لهذا علاقة بظهور ما يسمى بـ«ظاهرة الإرهاب» خلال العشرين عامًا الماضية. كل الدول الآن تأخذ حذرها، ولكن لا بد أن الولايات المتحدة تأخذ الحذر أكثر من غيرها، بعد ما حدث في ١١ سبتمبر ٢٠٠١، بفرض أن هذه الحادثة كانت حادثًا إرهابيًّا في الحقيقة وليس شيئًا آخر.

لم أحاول أن أذكر لابني كل ما مررت به بالضبط من مضايقات؛ إذ توقعت أن يشعر بشيء يشبه الشعور بالذنب (غير المبرر طبعًا) إزاء ما حدث لي. وابني على أي حال سعيد تمامًا بحياته في أمريكا، وقد اختار أن يبقى ويعمل فيها بطيب خاطر، ولا يبدو أنه غير رأيه في هذا الأمر. ولم أكن بحاجة إلى أكثر من ساعات قليلة في «سياتيل» لأتذكر ما يحققه ابني من مزايا كثيرة من وراء إقامته بالولايات المتحدة.

* * *

الحياة في أمريكا منضبطة كالساعة؛ كل شخص يعرف حقوقه بالضبط، وواجباته بالضبط، ولا تساهل في إجبار الشخص على القيام بواجبه، ومن ثَم فهو لا يتساهل أيضًا في اقتضاء حقوقه. كنت قد لاحظت هذه الظاهرة أثناء إقامتي عدة سنوات بإنجلترا، والإنجليز مشهورون بالانضباط أكثر من الفرنسيين أو الإيطاليين وبقية

الشعوب الأوروبية المطلة على البحر المتوسط، ولكني وجدت الأمريكيين قد فاقوا الإنجليز في هذا بكثير.

رأيت في هذه الزيارة منظرًا أثار إعجابي لما ينطوي عليه من انضباط من ناحية، وللمفارقة الصارخة بينه وبين ما يمكن أن يراه المرء في مصر. اصطحبنا ابني في يوم مشمس إلى شاطئ صغير على بحيرة «واشنطن» في «سياتيل». كان الجو يسمح بالاستحمام فرأينا بعض الشبان وكثيرًا من الأطفال يتمتعون بالنزول إلى الماء والعوم. رأيت يافطة كبيرة كُتبت عليها القواعد المنظمة للاستحمام في هذا الشاطئ: ما يجوز عمله وما لا يجوز، والمسافة التي لا يسمح بتجاوزها، والتحذير من أن أي تجاوز لهذه المسافة يحرم الشخص من أي معونة من جانب السلطة التي تدير الشاطئ، إذا حدث وصادف أي خطر. ولكن مَن هو الشخص المكلف بمراقبة تطبيق هذه التعليمات؟ فتاة جميلة لا تتجاوز العشرين من العمر، تجلس على كرسي مرتفع يسمح لها برؤية السابحين، وبيدها بوق يسمح لصوتها بأن يصل إليهم. لاحظت أن الفتاة تقوم بواجبها بمنتهى الانضباط، فلا تكف عن تحريك وجهها يمينًا ويسارًا، وترسل تحذيراتها من خلال البوق لهذا الصبي أو ذاك. لا تضحك أو تتحدث مع أحد مما يمكن أن يصرف انتباهها إلى غير ما هي مكلفة به. تذكرت منظر امرأة مصرية كنت قد رأيتها في مطار القاهرة، وكانت مكلفة بإذاعة البيانات المتعلقة بقيام الطائرات أو وصولها. وقارنت بين طريقة أداء الفتاة الأمريكية والمرأة المصرية لواجبها. منتهى الانضباط في حالة، والتساهل الشديد أو التهاون في الحالة الأخرى، التركيز والانصراف الكامل لأداء الواجب في حالة، وتشتت الانتباه واختلاط الهزل بالجد في الحالة الأخرى.

لهذا الانضباط التام جاذبية شديدة، فضلًا عما يقترن به من كفاءة، ولكن لا بد أن له أيضًا علاقة بما أشرت إليه من قبل من غلظة وشدة في تطبيق القواعد. ربما كان هذا الانضباط نتيجة مباشرة لما يعرفه الجميع من أنه لن يحدث أي تهاون مع مَن لا يقوم بواجبه. ولكنه قد يكون حصيلة عوامل أخرى كثيرة تاريخية واقتصادية. قد يفتقد المرء بعض التساهل في تطبيق القواعد، ويتوق إلى بعض المرونة بل وبعض التهاون في تطبيق القانون. فللفوضى أيضًا لذتها ومزاياها. وأظن أن اشتياق المصري

الغائب للعودة لبلده قد يكون من أسبابه الشوق إلى بعض الفوضى، ولكن المصري، شأنه شأن غيره، لا بد أن يكتشف، عاجلًا أو آجلًا، أن الانضباط هو الأنفع في النهاية.

ما هو الهدف النهائي من كل هذا الانضباط؟ إنه هدف بسيط للغاية، يدور كل شيء في أمريكا حوله، ويجري الاعتراف به في كل لحظة، ويذكر به كل أمريكي وكل زائر لدى اتخاذه أي خطوة ـ إذا استقل طائرة، أو اشترى سلعة، أو شرع في القيام بنزهة، أو ودع صديقًا، أو احتفل بأي مناسبة من المناسبات: «تمتع بالحياة!». بل إن الإقامة بضعة أيام في مدينة أمريكية كبيرة مثل نيويورك أو سان فرانسسكو أو لوس أنجلوس، تعطيك شعورًا بأنك تسير وسط مهرجان كبير، لا ينتهي فيه عرض السلع والخدمات الجذابة، مع الإلحاح المستمر في إظهار كل منها وكأنها ضرورية للحياة، وفي نفس الوقت قادرة على جلب منتهى المتعة، أو حتى السعادة لمن يشتريها. المجتمع الاستهلاكي ليس بالطبع ظاهرة جديدة في أمريكا، إذ إن عمره الآن يزيد على الخمسين عامًا، ولكن حدث خلال هذه الخمسين عامًا ما حوَّله إلى شيء يشبه الهستيريا. فالناس رائحون وغادون في كل اتجاه من أجل اقتناء هذه السلعة الجديدة، أو تجربة ذلك المطعم الجديد، أو رؤية هذا العرض التمثيلي أو الغنائي الذي لم يسبق له مثيل، إلخ. ولم تعد قلة ما لديك من مال عائقًا يمنع من الاستمتاع بهذا كله، فالدفع يمكن تأجيله، وأي ثمن يمكن تقسيطه، ويوجد من كل سلعة أو خدمة الصنف الذي يتناسب مع دخلك.

وسط هستيريا الاقتناء هذه، لاحظت أن نسبة عالية جدًّا من حديث الناس يدور حول جانب أو آخر من جوانب الاستهلاك. فالحصول على أي تخفيض في سعر سلعة أو خدمة ما، يعتبر نجاحًا مهمًّا يستحق بذل الجهد من أجله. وعملية الشراء تصبح أكثر فأكثر فنًّا من الفنون البالغة التعقيد، إذ كيف يمكن المقارنة بين مئات الأصناف المعروضة للحصول على أفضل صفقة؟ وكيف تقارن الشروط المختلفة للتقسيط التي تعرض عليك؟ وكيف تتخذ القرار بما إذا كان تخفيض سعر الوجبة في أحد المطاعم، أثناء تلك الفترة المسماة بـ«الساعة السعيدة»[1] لا يقترن به

---

(١) Happy hour

تخفيض في مستوى الوجبة أو حجمها؟ أصبح اتخاذ قرارات الاستهلاك إذن هو الشاغل الأعظم للناس، إذ إن الاختيارات المعروضة عليهم تزداد عددًا وتعقيدًا يومًا بعد يوم.

* * *

كان حفيدي الذي أتى معي في زيارة لأمريكا، والذي يبلغ من العمر ستة عشر عامًا، يبدو فرحًا عند عودته من جولته الصباحية في بعض محلات الملابس، وقال لي إنه حصل على صفقة ممتازة في شراء بنطلون جديد. أراني البنطلون بفخر، وهو من النوع المعروف بـ«البلوجينز» ولكنه من ماركة معينة يتباهى الشباب الآن في العالم كله باقتنائها. لم أستطع أن أتبين ميزة واضحة لهذه الماركة عن غيرها، ولكن الأمر كان واضحًا تمامًا في نظره، وعجزي عن إدراك هذا التميز لا بد أنه يعود إلى تقدمي في السن. قال إنه عثر على هذا البنطلون بين أكوام معروضة في محل ملابس شهير، ولكن بتخفيض كبير في السعر، والشاطر هو مَن يعثر على ما يبتغيه بالضبط، وعلى مقاسه بالضبط، بين هذه الأكوام من الملابس. سألته عن الثمن الذي دفعه فذكر لي مبلغًا اعتبرته كبيرًا جدًّا، أيًّا كان نوع البنطلون وعظمته. ولكني كتمت شعوري بالطبع، وأشرت بدلًا من ذلك إلى عدة ثقوب واضحة جدًّا في مواضع مختلفة من البنطلون، فقال لي باستغراب: «ولكن هكذا الآن البنطلونات»، أي أن هذه الثقوب متعمدة ولا تقلل من قيمة البنطلون بل تزيدها. وعند هذه النقطة توقفت عن توجيه أي سؤال، واكتفيت بتهنئته عندما قال لي إن سعره الأصلي كان كذا، بينما حصل عليه بكذا. لم أسأله مثلًا عن سر ثقته بأن هذا هو فعلًا السعر الأصلي، أو عن طريقة تحديد ذلك السعر الأصلي ابتداء، إلخ.

* * *

قررنا في يوم آخر أن نذهب لتناول العشاء في مطعم جديد ذاع صيته، وكان لا بد من تجربته (بل أصبحت تجربته ضرورة من ضروريات الحياة)، ولكن كان عليَّ أن أذهب مع ابنتي في طريقنا إلى المطعم، إلى أحد محلات الملابس لكي تستبدل بقطعة ملابس اشترتها بالأمس قطعة أخرى من مقاس آخر، بعد أن اكتشفت ما وقعت فيه من خطأ. لم يكن أمامنا وقت طويل قبل أن نجلس لتناول العشاء في

المطعم الجديد، ولكن حفيدي رأى في الطريق محل ساندويتشات شهيرًا فطلب أن نتوقف عنده.

كانت شهرة المحل ترجع إلى طريقة الشراء أكثر مما ترجع إلى طبيعة الساندويتش الذي تحصل عليه في النهاية، فأنت لا تحتاج للنزول من سيارتك أو للسير على قدميك خطوة واحدة، بل تدخل بسيارتك في ممر إلى أن تصل إلى مكان تسمع فيه من خلال ميكروفون، صوتًا نسائيًّا، دون أن ترى مصدره، يسألك عن نوع الساندويتش الذي تريده. ومن هذا السؤال البسيط يتفرع نحو عشرين سؤالًا أو أكثر، عما ترغب في إضافته إلى الساندويتش: هل تريد مع اللحم أو التونة أو الجبن، قطعة من الخس؟ وبعض الطماطم؟ وبعض المايونيز؟ وخيارًا؟ وصلصة من نوع معين؟ أم صلصة من نوع آخر؟ إلخ. وهكذا تنهال عليك الأسئلة وأنت تجيب على كل منها بنعم أو لا، فتتخيل نفسك كملك أو أمير لا همَّ للناس إلا القيام بخدمتك وإشباع أي رغبة لك. بعد أن تنتهي هذه العملية المعقدة من الأسئلة والأجوبة، تسير بسيارتك بضعة أمتار أخرى لتجد الساندويتش الرائع جاهزًا في انتظارك.

رأيت العملية مضحكة للغاية. فأمر تافه وغير ضروري بالمرة، تحول في هذا المجتمع الاستهلاكي إلى أمر في منتهى الجدية، والعامل أو العاملة التي تقوم بخدمتك لا بد أنها بعد قليل من الوقت قد خيل إليها أنها تقوم بمهمة جليلة للغاية. بل تصوَّرت رجلًا متوسط العمر يذهب إلى مكان عمله في الشركة التي تقدم هذه الخدمة، وهو في كامل هندامه، وقد يحمل حقيبة سوداء من ماركة «السامسونايت» الشهيرة، ليجلس إلى مكتبه، ويحاول الوصول إلى أفضل قرار، من وجهة نظر الشركة، في هذه القضية الخطيرة: هل يضيف بعض شرائح من البصل إلى قائمة الأشياء التي تعرض على المشتري للاختيار من بينها، أم يكتفي بما ذكرته من قبل؟

* * *

عندما يلاحظ أي زائر للولايات المتحدة، المدى الذي بلغته ظاهرة «المجتمع الاستهلاكي»، قد يسأل هذا الزائر نفسه: هل هناك مَن له مصلحة قوية في انشغال الناس بالاستهلاك لهذه الدرجة، في كل ساعة من ساعات النهار والليل، وحتى

لا يكاد أن يوجد موضوع للحديث، أو لشغل صفحات الجرائد، أو شاشات التلفزيون، أو حوائط المباني في الشوارع، بل وفي سيل الخطابات التي يحملها البريد والمكالمات التلفونية، إلخ، إلا تفضيل استهلاك سلعة على أخرى، أو صنف على صنف، أو الإشادة بأهمية هذه السلعة أو الخدمة في طلب السعادة للنفوس والراحة للأجسام، إلخ؟ مصلحة المنتجين والبائعين في ذلك واضحة ومعروفة، ولكن هل هناك مستفيدون غير هؤلاء؟

كل منتج له مصلحة في أن تروج سلعته، وكذلك البائعون، ولكن هل هناك مَن له مصلحة في أن تقوى وتنتشر ما تُسمى «ثقافة المجتمع الاستهلاكي»؛ أي أن يرى الناس في زيادة الاستهلاك الهدف الأسمى أو الوحيد للحياة؟

لقد أدى انتشار ثقافة المجتمع الاستهلاكي، ليس فقط إلى تضخم الأرباح، ولكن أيضًا إلى قلة اهتمام الأمريكيين عمومًا بالسياسة، إلا ما يتعلق بأشياء صغيرة جدًّا، تصب في النهاية في تأثيرها في مستوى الدخل والاستهلاك. لقد أصبح ما يشغل الناس في أمريكا، أثناء الحملات الانتخابية، فروقًا تافهة جدًّا بين حزب وآخر، أو بين مرشح للرئاسة ومرشح آخر، بينما فقد معظمهم أي اهتمام بالسياسة الخارجية، إلا ما يتعلق منها بما يسمى الدفاع عن «النمط الأمريكي في الحياة»، ضد اعتداءات الإرهابيين وأمثالهم. وعندما يتساءل المرء عن المقصود بـ«النمط الأمريكي في الحياة» لا يكاد يجد شيئًا غير «ثقافة المجتمع الاستهلاكي».

من المؤكد أن هذا الانشغال بالاستهلاك يسمح للسياسيين بأن يمرحوا على هواهم في تحديد مواقف أمريكا من العالم، أو في زيادة إنتاج السلاح وتسويقه، بل وفي إشعال حرب هنا أو انقلاب هناك، لتحقيق أهداف تتعلق في النهاية بزيادة الأرباح. ولكن هناك سؤالًا آخر: عندما تتضخم طموحات الناس الاستهلاكية إلى هذا الحد، وتصبح مع مرور الوقت أكثر فأكثر تفاهة، وأبعد ثم أبعد عن تحقيق حاجات الإنسان الأساسية، بل تتجه إلى إشباع مطالب خلقها المنتجون خلقًا، ولم تخطر بأذهان المستهلكين أصلًا لولا الدعاية المستمرة لها، إلى أي حد يجوز الحديث عن «ارتفاع مستوى المعيشة»، أو عن المقارنة بين مستوى الرفاهية في الدول عالية الدخل والدول منخفضة الدخل، والتي تسمى أحيانًا بالنامية أو حتى

المتخلفة؟ إن من المفهوم عقد مقارنة بين شخص يشبع حاجته هو وأسرته إلى استهلاك اللحم أو الفاكهة مثلًا، وآخر لا يستطيع ذلك، واعتبار الأول أكثر رفاهية من الثاني، ولكن إلى أي مدى تجوز المقارنة إذا تعلق الفارق بحجم السيارة، أو بماركة الملابس، أو بعدد زجاجات «الكوكاكولا» المستهلكة خلال العام؟ بل قد يصل الأمر إلى حد الشك في أن كثيرًا جدًّا مما يعتبر «زيادة في الدخل» لا يتضمن أي زيادة في الرفاهية على الإطلاق.

قرأت مؤخرًا في كتاب حديث لاقتصادي أمريكي مرموق رقمًا مذهلًا عن المبلغ الذي ينفقه الأمريكيون على سلع وخدمات تتعلق بالنوم، من سلع تقلل ما يصل إلى الأذن من ضوضاء، إلى حشايا للسرير تجعل النوم أفضل وأسرع، إلى الأدوية والمهدئات المعالجة للأرق، إلخ. هذا الرقم هو ٢٣,٩ بليون دولار في عام ٢٠٠٧، وهو ضعف ما أنفقه الأمريكيون لنفس الغرض قبل ذلك بعشر سنوات. فهل يستطيع أي عاقل أن يزعم أن ما يحصل عليه شخص من النوم في دولة تعتبر فقيرة أو متخلفة، بعد ساعات طويلة من العمل المرهق، ولكن دون حاجة إلى استخدام أي دواء مهدئ أو منوم، أو حتى إلى حشية مريحة، يجلب له رفاهية أقل من الشخص الذي لا يستطيع النوم إلا باستخدام هذه السلع؟

* * *

خطرت بذهني هذه الأفكار والتساؤلات، وأنا أشاهد في الولايات المتحدة أمثلة متتالية للانهماك، في جدية تامة، في إشباع حاجات غير ضرورية، بل في تلبية طلبات لم تكن لتدور في الذهن أصلًا في ظل «حياة طبيعية». كما مر بذهني الخاطر الآتي: إن كثيرًا من مظاهر الحياة الحديثة يبدو وكأنه أقرب إلى الانهماك في لعبة كبيرة، ولكن دون أن يدرك المنهمكون فيها أنها ليست في الحقيقة أكثر من لعبة، ومن ثَم ينشغلون بها في جدية تامة، وكأن الأمر أصبح مسألة حياة أو موت. إن ما ينفق مثلًا من جهد ومال على تنظيم المرور في مدينة كبيرة، يصل إلى مبالغ مذهلة، ولكنك إذا تساءلت عما خرج من أجله أصحاب كل هذه السيارات، تجد في النهاية أن الخروج كان من أجل استهلاك أشياء كان من السهل جدًّا الاستغناء عنها، أو من أجل إنتاج هذه الأشياء نفسها.

شاهدت منذ سنوات كثيرة فيلمًا عن حياة ملك كان يحكم إنجلترا في أواخر العصور الوسطى، وتضمن الفيلم منظرًا يأتي فيه أحد أعوان الملك ليقدم له اختراعًا جديدًا يتمثل في طريقة جديدة لتناول الطعام بالملعقة والشوكة والسكين، بدلًا من استخدام اليد المجردة أو اليدين. قدم هذا الاختراع للملك على أنه طريقة أكثر تحضرًا لتناول الطعام، فلما سأل الملك عن الميزة الحقيقية لهذا الاختراع، قيل له إن استخدامه يمنع اتساخ اليد، فلما قال الملك: «ولكن الملعقة والشوكة والسكين سوف تتسخ بدلًا من اليد؟» قيل له إن من الممكن غسلها، فرد الملك بأن اليد أيضًا يمكن غسلها. هل الحضارة الحديثة إذن بمثابة الانهماك في لعبة كبيرة؟ أو مجرد طريقة معقدة بعض الشيء لملء الفراغ الناتج عن زيادة القدرة الإنتاجية، الناتجة بدورها عن استخدام تكنولوجيا أكثر تقدمًا؟

* * *

كان الاقتصادي الكبير «آرثر لويس» قد كتب في دفاعه عن النمو الاقتصادي (وهو دفاع أصبح يعتبر بمثابة الكلمة الحاسمة في الموضوع، والمقبول من الجميع) أن زيادة السلع والخدمات، التي تمثل جوهر النمو الاقتصادي، لا يتوقف الدفاع عنها على إثبات أنها تجلب السعادة أو تزيدها، إذ إن السعادة أمر معقد يخضع لمؤثرات عديدة ليس حجم السلع والخدمات إلا واحدًا منها. إنما يكمن الدفاع الحقيقي عن النمو الاقتصادي في رأيه، في أنه «يوسع دائرة الاختيار». فالدخل الأكبر يسمح بحرية أكبر، وكلما زادت السلع والخدمات زادت فرص الاختيار المتاحة للإنسان. هذا هو المبرر الأساسي، في نظر «آرثر لويس»، للنمو الاقتصادي. صحيح أن النمو الاقتصادي له أيضًا ميزة زيادة أوقات الفراغ المتاحة للإنسان، إذ يسمح التقدم التكنولوجي (المقترن بالنمو الاقتصادي والمسبب له) بأن يؤدي المرء أعماله في وقت أقصر، فيزيد وقت الفراغ المتاح له، ولكن ما هو وقت الفراغ إلا الوقت الذي تتاح فيه للمرء حرية اختيار ما يريد عمله؟

لم يتطرق «آرثر لويس» إلى السؤال عما إذا كان توسيع دائرة الاختيار له نفس درجة الأهمية في المجالات المختلفة: هل حرية الاختيار بين أن يذهب المرء إلى النوم جائعًا أو غير جائع تساوي حرية الاختيار بين أصناف متعددة من الجبن،

أو بين قضاء إجازة الصيف في داخل البلد أو خارجه؟ لقد افترض «آرثر لويس» أن توسيع دائرة الاختيار يزيد دائمًا من درجة الرفاهية (وهو افتراض قد يكون صحيحًا) ولكنه لم يطرح السؤال عن اختلاف درجة الرفاهية في الأمثلة المختلفة لتوسيع دائرة الاختيار، كما أنه لم يتطرق إلى مناقشة احتمال أن يؤدي توسيع دائرة الاختيار في مجال معين إلى تضييق حرية الاختيار في مجال آخر ربما كان أكثر أهمية.

إن المجتمع الاستهلاكي الحديث يقدم لنا أمثلة كثيرة على هذا: إتاحة حرية أكبر في مجالات قليلة الأهمية (كالاختيار بين سيارة تفتح نوافذها أوتوماتيكيًّا وبين سيارة تفتح نوافذها باليد)، بينما يؤدي توسيع دائرة الاختيار فيها إلى تضييق حرية الاختيار في مجالات أخرى أهم (كالذي أدى إليه شيوع استخدام السيارة، سواء بنوافذ أوتوماتيكية أو غير أوتوماتيكية، إلى اختفاء فرص الوصول إلى هدفك بالسير على قدميك، إذ قد يصبح هذا في ظل شيوع السيارة الخاصة صعبًا أو مستحيلًا لما أدى إليه من زيادة حجم المدن). من هذا القبيل أيضًا ما اقترن به توسيع دائرة الاختيار في استهلاك بعض السلع والخدمات، من القضاء على سلع وخدمات كان يقوم بإنتاجها منتجون صغار لا يستطيعون الآن منافسة المنتجين الكبار القادرين على تطبيق التكنولوجيا الحديثة، وكذلك ما أدى إليه نمو المجتمع التكنولوجي من تقييد بعض الحريات الفردية نتيجة لما أتاحه للدولة من فرص للتجسس على الناس وجمع المعلومات عنهم، إلخ.

ولكن «آرثر لويس» كتب دفاعه هذا عن النمو الاقتصادي منذ أكثر من نصف قرن، وقد تغيرت أمور كثيرة منذ ذلك الوقت، مما سمح لنا بأن نرى المجتمع الحديث في صورة مختلفة، هي الصورة التي أدت بي وبغيري إلى اتخاذ هذا الموقف السلبي من الحضارة الغربية. في كتاب صدر في سنة ١٩٨٥ لأستاذ أمريكي في الإعلام، «نيل بوستمان»، شرح بديع لما وصل إليه الاستهلاك في المجتمع الحديث، إذ أصبح الحصول على المتعة، أو على مجرد التسلية، مسألة حياة أو موت، يبذل الناس من أجلها حياتهم، ويفعلون المستحيل من أجل كسب المزيد من الدخل، ومن أجل إنفاق هذا الدخل على النحو الذي يتصورون أنه الوسيلة الضرورية للحصول على المتعة أو التسلية. واختار الرجل لكتابه اسم

«التسلية حتى الموت»[1] وهو اسم أجده ملائمًا لوصف ما وصل إليه نمط الحياة في المجتمع الحديث، والذي تسير نحوه الشرائح الاجتماعية القادرة في مصر، وفي غير مصر طبعًا، بخطى سريعة للغاية.

أصبحت أيضًا ألاحظ أكثر فأكثر، كيف أن الحضارة الغربية لا تفعل أكثر من التفنن في اكتشاف طرق جديدة لإشباع حاجات قديمة. طلبات الناس تزداد طبعًا مع تطور الحضارة الغربية، ولكن الطلبات شيء مختلف عن «الحاجات». فالحاجات الإنسانية في الحقيقة قليلة وثابتة، والذي يتغير فقط هو وسائل إشباعها. الإنسان يحتاج إلى الغذاء من أجل البقاء على قيد الحياة، والجنس لاستمرار النوع البشري، وإلى الراحة الجسدية وتجنب الألم، وإلى مقاومة المرض والضعف، ويتوق إلى تأجيل الموت. وهو محب للاستطلاع ويحتاج إلى إشباع هذه النزعة، ويحب التواصل مع الآخرين. ولكني لست متأكدًا بالمرة من أن الوسائل الجديدة التي تبتدعها الحضارة الغربية باستمرار لإشباع هذه الحاجات هي دائمًا أفضل من الوسائل الأقدم، كما أن الموضات الجديدة في الثياب ليست بالضرورة أجمل أو أنسب أو تجلب لمرتديها راحة أكبر من الثياب الأقدم. كذلك فإن الإمعان في هذا «التفنن» في ابتداع وسائل جديدة لإشباع حاجات قديمة قد يبلغ من الشطط درجة تقلل من درجة إشباع حاجات أخرى، كالذي نراه في ابتداع أدوية جديدة لتخفيف الألم، فإذا بآثارها (التي تسمى آثارًا جانبية) تخلق مشاكل جديدة، أو كما يؤدي الإفراط في طلب الراحة أو زيادة اللذة المستمدة من الطعام إلى السمنة الزائدة أو إلى الإضرار بالصحة، إلخ.

من الطريف أن تلاحظ أن مواقف معينة، كانت شائعة في الغرب في فترة ما، وظننا أنها جزء من عملية التحضر و«التقدم» والتغير إلى الأفضل، فقلدناها مدفوعين بالرغبة في تحقيق تقدم مماثل لما حققوه، ثم عدل الغرب عنها لأسباب مختلفة لا تمثل بالضرورة تقدمًا أو زيادة في التحضر، بل أحيانًا لمجرد رغبة المنتجين أو البائعين في تحقيق أرباح أكبر. لقد أوقعنا هذا في ورطة، إذ أصبح من المطلوب

---

(١) Neil Postman, *Amusing Ourselves to Death*

منا الآن (إذا أردنا مزيدًا من التقدم والتحضر) أن نعدل عما هجرته الحضارة الغربية، وأن نطبق ما أدخلته من جديد، ولو إلى حين. من ذلك في رأيي تغيُّر موقف الحضارة الغربية من الشذوذ الجنسي، ومن إطلاق حرية الفتيات والفتيان في ممارسة الجنس قبل الزواج، بل وتدخل الدولة بتقديم الدعم المادي للفتيات اللاتي يحملن ويلدن دون زواج، إذا ثبت أن ليس لديها مصدر كافٍ للدخل، والبدء في تعليم صغار السن كل ما يتعلق بالجنس، وتحذيرهم مما قد يتعرضون له من تحرش جنسي حتى من الأقارب، وفيما يعتبر الكشف عنه من أجزاء الجسم مقبولًا أو غير مقبول، وما يعتبر وما لا يعتبر مسموحًا به في معاملة صغار السن للكبار، وفي طريقة تناول الطعام، وما يحظى بالتقدير والاحترام من أنواع الموسيقى والرقص، إلخ.

أذكر مثلًا كيف كنت في سنوات البعثة بإنجلترا، إذا ذهبت للاستماع إلى حفلة موسيقية في صالة الموسيقى الكبيرة بجوار جسر «وترلو»، ألاحظ كيف يمتعض الحاضرون بشدة إزاء أي محاولة للتصفيق في لحظة الصمت التي تفصل حركة في سيمفونية عن الحركة التالية، إذ كان هذا يعتبر تصرفًا «غير متحضر»، وينم عن تخلف وجهل. كما كنت ألاحظ انفجار صوت السعال بين الحاضرين خلال هذا الفاصل القصير، إذ كان كل من يشعر بالرغبة في السعال يكتم الرغبة منتظرًا حتى تنتهي الحركة، ويأتي الفاصل القصير الذي قد لا يستمر أكثر من نصف دقيقة. كنت أفعل مثلهم دون أن يخطر ببالي أن هذا السلوك أو ذاك ينطوي على أي تعسف. هذا هو السلوك «المتحضر»، هكذا كنت أقول لنفسي، وهذا هو الاحترام الواجب للفن. ثم مرت الأيام، وتحول الغرب أكثر فأكثر، من الإعجاب الشديد بالموسيقى الكلاسيكية إلى موسيقى أكثر صخبًا وأكثر اعتمادًا على الإيقاع، ويرحب أثناءها بمشاركة الجمهور مع العازفين والمغنين بمختلف أنواع التعبير عن المشاعر. هل أصبح من حقنا الآن أن نقول إن طريقتنا التقليدية في تشجيع المغني بين مقطع وآخر، بل وحتى أثناء الغناء، ليست أقل تهذيبًا على الإطلاق من سلوكهم، وقد يرحب بها المغني، وقد يحاول بسببها أن يحقق مستوى أعلى من الإجادة، وليست دليلًا على أن أغانينا وموسيقانا هي دائمًا أقل «رقيًّا» من أغانيهم وموسيقاهم؟

بل لقد أصبحت أميل إلى الاعتقاد بأن موقف الحضارة الغربية من الفن بصفة

عامة، الذي ينطوي على تقديس يكاد يقارب ما كان يعامَل به أي شيء يتعلق بالدين قبل قيام هذه الحضارة، هو نفسه من قبيل «ابتداع وسائل جديدة لإشباع حاجات قديمة». فالحضارة الغربية تخلت إلى حد كبير عن الدين، أو هي تتخلى عنه أكثر فأكثر، ولكنها لم تستطع التخلص من الحاجات التي يشبعها الاعتقاد الديني، من تخفيف الخوف من الموت، ومن تخفيف الشعور بالوحدة، ومن زيادة القدرة على مواجهة المجهول والعدم واللامعقول، إلخ. كل هذه الحاجات الإنسانية الطبيعية لجأت الحضارة الغربية إلى «الفن» كوسيلة من وسائل إشباعها، ولسبب ما أعلت من شأن هذه الوسيلة الجديدة، فأسبغت عليها من أشكال التقدير والاحترام ما كانت تسبغه من قبل على الدين، بل وعاملتها بدرجة مماثلة من التقديس.

الحضارة الغربية تهنئ نفسها على ما أحرزته من عقلانية، ولكن أين بالضبط العقلانية في كل هذا؟ مطالب تافهة تقدم على أنها تلبي حاجات مهمة، وإلحاح مستمر على الناس بشراء ما لا يحتاجون إليه أصلًا، واعتبار النظام الاقتصادي «ناجحًا» إذا نجح في هذه المهمة، أي في خداع الناس بإقناعهم بشراء ما لا يحتاجون إليه. وكيف يمكن أن نفترض العقلانية في نظام يتعارض فيه هدف المنتجين مع هدف المستهلكين، إذ تتعارض رغبة المنتجين في تحقيق أكبر قدر من الأرباح مع رغبة المستهلكين في تحقيق أكبر درجة من السعادة أو الإشباع أو الرضا مما حصلوا عليه من سلع وخدمات؟ فالشعور بالسعادة أو الرضا لا بد أن يتناسب تناسبًا طرديًّا مع نسبة الحاجات المشبعة إلى مجموع الحاجات، بينما يسعى المنتجون باستمرار إلى زيادة نسبة الحاجات غير المشبعة إلى مجموع الحاجات، لأن هذا هو الذي يمكنهم من تصريف المزيد من السلع وتحقيق أقصى ربح.

تهنئ الحضارة الغربية نفسها أيضًا على كثرة ما تتيحه من معلومات (فيما يسمى بثورة المعلومات)، إلى جانب كثرة ما تتيحه من سلع وخدمات، ولكن كيف نتصور أن هناك أي أمل في أن يتصرف مستهلكو هذه المعلومات والسلع والخدمات تصرفًا عقلانيًّا أو رشيدًا في وسط هذا الكم من المعلومات والمنتجات؟ كيف يفترض أن للإنسان، أي إنسان، القدرة على التعامل بعقلانية مع كل هذه المعلومات والمنتجات المتاحة وأن يتصرف إزاءها تصرفًا رشيدًا، ويختار من بينها الأفيد والأصلح؟

قد يكون هذا ممكنًا متى استعان الإنسان بجهاز آلي، كالكمبيوتر، يمكنه أن يختزن كل هذا القدر من المعلومات، ويقارن بين صفات كل صنف من هذه الأصناف اللانهائية من السلع والخدمات، ولكن حتى بفرض أن منتجي السلع والمعلومات لديهم مصلحة في أن يتصرف المستهلكون تصرفًا عقلانيًّا، كيف نضمن أن هذا الجهاز الآلي أو الكمبيوتر سوف يعطي المستهلك النصيحة المثلى، أي التي تتفق مع مصلحته، في الوقت الذي يستحيل فيه تصميم برنامج للكمبيوتر يتضمن مشاعر المستهلك وميوله ونوازعه وذكرياته؟

٥

هل الربح كلمة نابية؟

دعيت إلى حفلة شاي للاحتفاء بأديب هندي كبير جاء لزيارة القاهرة، وتطرق الحديث من الكلام عن الهند إلى الكلام عن مصر، ثم عن الهند... وهكذا. كان الأديب الهندي يتكلم بحماس شديد عن النجاح الاقتصادي الذي حققته الهند في العشرين سنة الأخيرة، وقال إن نقطة التحول كانت في مطلع التسعينيات، حينما قررت الهند أن تطلق الحرية الاقتصادية للمستثمرين في الداخل والخارج على السواء، وحرية السوق في تحديد الأسعار دون تدخل من الدولة. قال إن النجاح لم يقتصر على الارتفاع الكبير في معدل نمو الناتج القومي، بل نجحت الهند أيضًا في رفع عدة مئات من الملايين من الهنود من تحت خط الفقر إلى ما فوق هذا الخط، ومن ثَم نمت الطبقة الوسطى في الهند نموًّا سريعًا خلال هذين العقدين، وأصبحت تتمتع بطيبات الحياة، وبالسلع الاستهلاكية التي كان معظم الهنود محرومين منها.

لم يكن هذا الثناء على تجربة الهند جديدًا عليَّ، فالصحف والمجلات الغربية والمؤسسات الدولية دائمة الإشادة بها، وكثيرًا ما تعقد المقارنة بين فشل معظم البلاد العربية في تحقيق التنمية الاقتصادية السريعة، وتخفيف الفقر، وبين نجاح الهند في الأمرين. وقد رأيت أيضًا دليلًا على ذلك في بعض الأفلام الهندية الحديثة التي تصور ما طرأ على حياة الطبقة المتوسطة الهندية من تغيرات مذهلة خلال العقود الأخيرة، ليس فقط من حيث اتساع نطاق هذه الطبقة نتيجة ارتفاع معدل الحراك

الاجتماعي، ولكن أيضًا من حيث تغير نمط حياة هذه الطبقة واعتيادها على بعض أنواع السلوك المعروفة في الغرب ولم تكن مألوفة في الهند.

ولكني منذ بدأت أسمع عن هذا النجاح العظيم الذي تحققه الهند، كان يطوف بذهني من حين لآخر شك فيما إذا كان هذا النجاح يشوبه عيب مهم لا بد أنه يقلق أيضًا الكثيرين من الهنود، وإن لم أصادف أي إشارة إليه فيما قرأت عن الهند في صحف الغرب.

قلت للكاتب الهندي الكبير: «ألا يشعر الهنود بالقلق لِما كان يُقلق رجلًا مثل «غاندي» أو «نهرو» منذ ستين أو سبعين عامًا؟».

كنت أقصد مشكلة «التغريب». كان «غاندي» و«نهرو» (هذان الزعيمان الهنديان العظيمان) يقلقهما بالطبع مشكلة الفقر، وعجز معظم الهنود عن إشباع حاجات مادية أساسية، ولكنهما كانا أيضًا يعرفان جيدًا أن الحاجات الروحية لأي شعب (بما في ذلك حاجته إلى التعبير عن نفسه بطريقته الخاصة، وحماية ثقافته من أي اعتداء من ثقافات أخرى ليست بالضرورة أفضل منها، وإن كانت مدعومة بالسلاح والمال)، ليست أقل أهمية بل قد تفوق في أهميتها أي تقدم مادي. لم يكن «غاندي» أو «نهرو» يرفضان التنمية الاقتصادية، ولكنهما كانا يرفضان أن يكون ثمن هذا التقدم خسارة روحية؛ أي أن يكسب الهندي العالم ويخسر روحه.

لم أجد من اللائق، في جلسة تعارف كهذه، أن أفتح موضوع «تغريب» الهند، وما الذي كان يمكن لرجل مثل «غاندي» أو «نهرو» أن يشعر به إزاء ما يقترن به هذا التقدم الاقتصادي السريع في الهند من خسارة ثقافية، بل اكتفيت بأن قلت للكاتب الهندي، على سبيل المداعبة، أن اقتصاديًّا أمريكيًّا شهيرًا (جون كينيث جالبريت) كتب مرة أنه أثناء عمله سفيرًا لبلاده في الهند، قابل الزعيم الهندي «نهرو»، وكان وقتها رئيسًا للوزراء، وجرى حوار بينهما حول موقف الهند من الحضارة الغربية، وأن «نهرو» قال له أثناء هذا الحوار، قولًا يتراوح بين الجد والمزاح، وهو أن الشيئين الوحيدين اللذين اقتبستهما الهند من الغرب ولم يحدثا أي ضرر هما «اللمبة الكهربائية والدراجة».

كان من الواضح لي أن الكاتب الهندي لا يشارك «نهرو» شكوكه في الحضارة

الغربية، فقد بدا لي وكأنه يقبل كل شيء يمكن أن يقتبسه الهند من الغرب، ولم يبد منه أي تحفظ على انتشار ثقافة الاستهلاك، ولا على تبني الهند لنظام السوق الحرة، بل قال لي إنه يعتبر «نهرو» مسؤولًا عن تعطيل تقدم الهند لمدة عشرين عامًا. ذكر في كلامه أيضًا قصة طريفة عن «نهرو» لم أكن سمعتها من قبل. قال إن «نهرو» تلقى مرة دعوة من الرئيس الأمريكي لزيارة الولايات المتحدة، ورتب له لقاء مع رؤساء بعض الشركات الأمريكية، على أمل أن يشجع هذا اللقاء على مزيد من الاستثمارات الأمريكية في الهند، إذا وضح لهم «نهرو» ما يمكن أن يجنوه من أرباح إذا جاءوا إلى الهند. ولكن فوجئ الجميع بأن «نهرو» التزم الصمت طوال اللقاء، فلم يصدر منه أي كلام ينطوي على تشجيع لقدوم رؤوس الأموال الأمريكية إلى الهند. فوجه إليه أحد المدعوين سؤالًا عن سبب صمته، فإذا بـ«نهرو» يجيب بقوله: «لقد كنت أظن أن كلمة «الربح» من الكلمات النابية التي لا يصح أن تصدر من أحد أثناء تناول الطعام!».

لا أعرف ما إذا كانت هذه القصة حقيقية، وما إذا كان «نهرو» قد قال هذه الجملة بالضبط أم جرى بعض التحريف عليها، ولكني أظن أن المعروف عن شخصية «نهرو» وأفكاره يجعل من المتصور أن تصدر عنه جملة كهذه، ولو على سبيل المزح (مرة أخرى) بين الجد والمزاح.

٦
الألعاب الأولمبية

تصادف أن كنت في رحلة إلى إنجلترا عندما كانت تُجرى الدورة الأولمبية في لندن. لست من عشاق أي نوع من الرياضة، ولكن كيف كان من الممكن أن أتجاهل كل هذا الذي يحدث في لندن في ذلك الوقت؟ آلاف اللاعبين من مختلف أنحاء العالم يتوافدون إلى المدينة، وعشرات الآلاف من السياح يجيئون إلى لندن بسببها، ووسائل الإعلام لا يشغلها إلا فوز هذا وهزيمة ذاك، إلخ. وحتى بصرف النظر عن متابعة المباريات نفسها، كيف يمكن التغاضي عن حفلة الافتتاح وحفلة الختام، اللتين تحاول كل دولة مضيفة للأولمبياد أن تتفوق فيهما على الدول السابقة، فتُظهر أفضل ما عندها من فن وخيال، وتوجه أيضًا خلالهما ما تريد أن تقوله للعالم؟

كنت قد رأيت على شاشة التلفزيون قبل ذلك بأربع سنوات حفلتَي الافتتاح والختام الرائعتين في بكين، فكانتا بمثابة خطاب موجه من الصين إلى العالم أجمع تعلن فيهما عن وجود الصين القوي في العالم، ومدى ما حققته من تقدم تكنولوجي واقتصادي، وقدرتها على تعبئة الأعداد الهائلة من الصينيين للقيام بأعمال تتطلب درجة فائقة من النظام والانضباط، وكأنها تقول للغرب: «انظروا قدرتنا على تعبئة الناس للحرب، إذا فكرتم في مهاجمتنا!».

في هذه المرة شاهدت وسمعت ما يريد البريطانيون أن يقولوه للعالم. ففي حفلة الافتتاح قدم البريطانيون عروضًا تمثل إنجازاتهم عبر التاريخ في مختلف ميادين الحياة، من «شكسبير»، إلى الثورة الصناعية، وحتى فرقة «البيتلز» (الخنافس)

الغنائية. كما تفاخرت فيها بريطانيا بفتح أبوابها للمهاجرين من مختلف الألوان والأجناس، والسماح لهم بالتجَنس بجنسيتها، وها هم المهاجرون الآن يشاركون في المباريات كبريطانيين ويجلبون الفخر لأنفسهم ولوطنهم الجديد. ظلت وسائل الإعلام البريطانية تفاخر بما أصبح عليه المجتمع البريطاني من تنوع في الأجناس والألوان؛ فالصومالي الأسود الذي جاء إلى بريطانيا في طفولته وتجَنس بجنسيتها، فاز بميدالية ذهبية في سباق الجري، والهندية أو الباكستانية السمراء التي جاءت عائلتها إلى بريطانيا قبل أن تولد، أحرزت بدورها ميدالية ذهبية في مسابقة الجري والقفز، إلخ. والجميع يصفقون لهذا ولتلك دون تمييز بين البريطاني الأبيض والأسود والأسمر. كلهم الآن مواطنون يحملون الولاء لبريطانيا.

كان مما يبهج النفس أيضًا هذا الاشتراك الكثيف للنساء في مختلف أنواع المباريات، مما يتطلب شهورًا وسنين من التدريب والصبر، للوصول إلى هذه الدرجة العالية من الإتقان، مقترنًا بدرجة عالية من قوة العزيمة والثقة بالنفس، والتخلص من ذلك الشعور بالانكسار والنقص في مواجهة الرجال. كان ظهور فتاة سعودية محجبة لأول مرة في أي دورة أولمبية، مثيرًا للتقدير والسرور، حتى وإن لم يستمر اشتراكها أكثر من لحظات قليلة، ولكنها كانت بهذا الظهور القصير تعلن للعالم عن عزم المرأة السعودية على الخروج للعالم وإثبات وجودها.

* * *

كان السرور لكل هذا طبيعيًا ومفهومًا. ولكن شيئًا واحدًا لم أستطع تجاهله، ولا بد أن يثير التساؤل عن طبيعة العالم الجديد الذي نسير نحوه شيئًا فشيئًا ولا نلتفت إلى خطورته بالدرجة الواجبة.

الذي أقصده هو وجود نوع من الهستيريا في ردود الفعل من المتفرجين في المباريات، وكثير من المتسابقين بعد انتهائها، وفي طريقة وسائل الإعلام في التعبير عما يحدث خلال المباريات وعن نتائجها. الفائز في مباريات بسيطة، ليست في نهاية الأمر إلا لعبة من الألعاب، يستقبله الناس ووسائل الإعلام استقبال القادة الفاتحين، أو الزعماء العظام، مع أن مهاراته (إذا تكلمنا بصراحة) لا تتجاوز القدرة على الإمساك بمضرب وتوجيه الكرة توجيهًا صحيحًا، أو سرعة الاستجابة

لضربات الخصم، أو للجري مسافات أطول مما يستطيع غيره، إلخ. نعم، المهارة موجودة، وتنطوي على بعض الصفات النفسية الطيبة، ولكن هل يستحق هذا كل هذا الحماس؟

رأيت الصفحات الأولى في أكثر الصحف البريطانية رصانة، تملأها يوميًّا صورة بريطاني أو بريطانية فازا في اليوم السابق بميدالية أو أخرى، وقد علت وجه الفائز أو الفائزة تعبيرات عن مشاعر تتجاوز الفرح وتقترب من الهستيريا. رأيت وجه الفتاة الصينية وهي تبكي بحرقة غير عادية لأنها لم تفز بالميدالية الذهبية بل فازت فقط بالفضية. ورأيت المذيعة البريطانية الشهيرة وهي تخاطب هذا الفائز البريطاني أو ذاك في أعقاب فوزه، فإذا بابتسامة عريضة لا تفارقها، دون أن تسمح لنفسها بأن ترتاح لحظة واحدة من رسم هذه الابتسامة الدائمة على وجهها. والمحافظة على الفرح المستمر تتطلب توجيه أسئلة من نوع معين تستدر من البطل الفائز إجابات معينة، ومن ثَم تستمر الكليشيهات في الكلام والتعبير على شاشة التلفزيون، مثلما هي مستمرة على صفحات الجرائد. وإذ يخجل بعض المحررين من الاسترسال في التعبير عن الحماسة الوطنية، يحاول التخفيف من العبارات المختارة لتبدو طبيعية أكثر، ولكن هناك حدًّا لا يمكن تجاوزه في مثل هذه المحاولة.

لا بد أن يلفت النظر أيضًا، في غمار هذه الدرجة من الحماس، هذا الاجتماع المدهش بين درجة عالية من العولمة، ودرجة عالية من التعصب القومي. كنا نظن أن هذا الاختلاط الهائل بين الأجناس والأديان والقوميات، الذي جلبته قوى العولمة، سوف يقضي شيئًا فشيئًا على التعصب بمختلف أنواعه، ولكننا نرى دلائل على عكس هذا بالضبط. عولمة أكبر تختلط بتعصب قومي أشد. هل العولمة إذن هي فقط في الاقتصاد، وليس لها من هدف إلا السماح للعمل الرخيص بالهجرة إلى بلاد العمل المرتفع الأجر أو فتح أسواق جديدة أمام الصادرات، دون أن يقترن هذا بدرجة أعلى من التفاهم والتسامح؟

ثم قرأت خبرًا مذهلًا عن فتاتين بريطانيتين، إحداهما يفصح لون بشرتها عن أصل غير إنجليزي، ولكن كلًّا منهما فازت بميدالية ذهبية. فماذا حدث؟ هرولت إليهما شركات الإعلان، واتفقت معهما على استخدام اسميهما وصورهما في

الدعاية مقابل مبلغ لكلٍّ منهما، يتراوح بين مليونٍ وثلاثة ملايين جنيه إسترليني في العام الواحد.

هل لهذا علاقة وثيقة بدرجة الهستيريا أو التعصب؟ ربما. ولكن المؤكد أن وراء كل هذه الهستيريا والتعصب، وهرولة شركات الإعلان وحصول اللاعبين على هذه الأرقام المذهلة من الأرباح، شيئًا واحدًا، هو أننا نعيش «عصر الجماهير الغفيرة».

هذه المباريات لا يشاهدها عشرات أو مئات الأشخاص، بل ملايين. المشاهدون الحاضرون في الاستاد الكبير أكثر من ثمانين ألف شخص، والمتفرجون من خلال شاشة التلفزيون يزيدون عن ألف مليون شخص، (أي نحو سُبع سكان الكرة الأرضية). وهذا وحده يفسر لنا كل شيء (أو تقريبًا كل شيء). عندما تعبر عن فرحك أمام ملايين الناس فلا بد أن تبالغ في التعبير عن الفرح، وربما عليك أن تقفز إلى مسافة أعلى في الهواء. وإذا بكيت تأثرًا بالفوز أو الهزيمة، فلا بد أن تبكي بحرقة أكبر. وإذا كان عدد المشاهدين كبيرًا، فلا بد أن يصيب الهوس والهستيريا المذيعين الذين ينقلون أخبار المباريات أو يحاورون المتبارين. فإذا كان المذيع بطبعه هادئًا أو باردًا فلا بد أن يُستبدل به شخص أكثر حماسًا. وكذلك يصيب الهوس الصحف التي تتكلم عن المتسابقين، وإذا كان الأمر كذلك، فشركات الإعلان لا تجد بأسًا في إنفاق ما بين مليون وثلاثة ملايين جنيه إسترليني في السنة على إحدى الفائزات، ولا تجد الحكومة البريطانية غضاضة في إنفاق أكثر من تسعة آلاف مليون جنيه إسترليني على الاستعدادات اللازمة للدورة الأولمبية، إلخ.

* * *

كنت قد عشت في لندن بضع سنوات أثناء دراستي العليا في جامعتها. ولكن هذا كان منذ أكثر من خمسين عامًا؛ أي في أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات، وقبل أن تدخل بريطانيا أو غيرها «العصر الأمريكي» بالدرجة التي نراها الآن. لقد لفت نظرنا في تلك الأيام نشوء ظاهرة «البيتلز» (أو الخنافس)، ولكن هذه كانت بمثابة بروفة متواضعة جدًّا وبدائية للغاية لما نراه اليوم. كان بضع مئات من الفتيات والفتيان صغيري السن يتجمعون في إحدى صالات الغناء أثناء غناء فرقة

«البيتلز»، فيقف المتفرجون وهم يتصايحون أثناء الغناء، ويحركون أذرعتهم يمينًا ويسارًا، للتعبير عن السرور والإعجاب. أين هذا مما نراه الآن من حالة الهستيريا في المدرجات الرياضية، وعلى شاشات التلفزيون وصفحات الجرائد؟ ولكن السبب طبعًا واحد؛ وهو نمو ظاهرة الجماهير الغفيرة.

هل كان هذا مكسبًا أم خسارة للحضارة الغربية؟ في كل يوم تأتينا الحضارة الغربية بمثال جديد يؤكد الحقيقة الآتية: أن كثيرًا جدًّا مما تحققه هذه الحضارة في الكم يقابله تدهور في الكيف. السلع تصل إلى أعداد من الناس لم تكن تصل إليهم، ولكنها أصبحت أقل جودة وأتفه شأنًا وأقصر عمرًا. الخدمات تصبح أكثر فأكثر في متناول أيدي الناس، ولكن درجة الاتصال الإنساني فيها تضعف أكثر فأكثر. الصحف يصل توزيعها إلى عدة ملايين بدلًا من الآلاف، ولكنها تعتمد الآن على الإثارة بأخبار الجرائم والفضائح. برامج التلفزيون تستمر طوال ٢٤ ساعة في اليوم، ولكن البرامج الجادة تختفي لتحل محلها برامج يتطلب فهمها درجة أقل من الذكاء ومن رهافة الحس. الزعماء والسياسيون يصبحون أكثر شهرة، ولكنهم يستخدمون أساليب أكثر تضليلًا. كل شيء يصبح أكثر ديمقراطية من ذي قبل، ولكن الديمقراطية نفسها تتحول أكثر فأكثر إلى أكذوبة.

٧

مال بلا جهد

منذ نحو عشرين عامًا حدث أن أقيم في القاهرة، وبالقرب من حديقة الحيوان، مبنى فاخر لا أظن أني رأيت مثيلًا له في الفخامة في مصر، ويضم فندقًا تابعًا لشركة فنادق عالمية، وهو من أفخر الفنادق وأعلاها سعرًا. وإلى جوار الفندق، وفي نفس المبنى، عمارة سكنية يباع المسكن فيها بملايين الدولارات، وفيها من وسائل الترف ورفاهية العيش ما لا يوجد في غيرها. إلى جانب الفندق والشقق السكنية يوجد مجمع («مول») فاخر من المحلات التجارية التي تبيع مختلف الكماليات، من المجوهرات والسجاجيد الإيرانية، إلى أغلى أنواع الملابس والتحف. وفي وسط هذه المحلات التجارية الممتدة عبر دورين متسعَين تصلهما سلالم متحركة، مطعم عظيم يقدم أشهى المأكولات وأعلاها سعرًا، ويقوم في وسطه بيانو يعزف عليه بلا توقف عازف مصري، يرتدي بدلة السهرة الأوروبية، ألحانًا غربية مشهورة، قديمة وحديثة.

قادتني قدماي يومًا إلى هذا المجمع التجاري، وتمشيت أتفرج على السلع التي يعرضها محل بعد آخر، ولاحظت قلة الزبائن في المحلات والمطاعم على السواء، فرأيت الرجال والنساء الموكول لهم مهمة البيع واقفين لا يصنعون شيئًا، لا يخدمون زبائن ولا يتوقعونهم، كما رأيت الخدم في المطعم في أتم الأبهة بستراتهم السوداء النظيفة والمكوية بعناية، وقمصانهم البيضاء الناصعة، يقفون بلا حراك، لا يشغلهم شيء بسبب قلة الزبائن، باستثناء واحد أو اثنين منهم يحمل

كل منهما صينية عليها بعض الأطباق الشهية إلى مائدة أو مائدتين، وسط عشرات الموائد الخالية.

سمعت صوت البيانو فاختلست نظرة إلى وجه العازف لأتحقق مما إذا كانت الحقيقة تتفق مع توقعي، فرأيتهما متفقَين تمام الاتفاق: وجه رجل بائس يعزف بلا روح، ويكاد السأم أن يقتله قتلًا، ولا ينافسه في ذلك إلا وجوه خدم المطعم والبائعين في المحلات الذين ينتظرون المشترين بلا جدوى.

المكان رائع المنظر، والإضاءة خلابة، وبريق الذهب، أو النحاس اللامع كالذهب، يخلب الأبصار، وملابس الجميع، خدمًا وبائعين وزبائن، لا يشوبها شائبة، سواء في الجمال أو النظافة، وكل شيء يعمل بكفاءة عالية: السلالم المتحركة والمصعد وعمال النظافة، والمسؤولون عن الأمن الواقفون على جميع أبواب الدخول. ولكن جوًّا عامًّا من الكآبة يخيم على المكان. وكل شيء فيه خالٍ من الروح: الفاترينات الفاخرة، والزهور الطبيعية والصناعية، وصوت البيانو، بل وحتى أطباق المأكولات الشهية توحي لك أيضًا بانعدام الطعم.

فجأة تذكرت أني رأيت نفس هذا المنظر من قبل، وعاينت فيه هذه الكآبة لأول مرة. هكذا بالضبط كانت تبدو لي المجمعات التجارية والفنادق ومعظم المطاعم في دول الخليج البترولية: أبهة وثراء وفخامة لا نظير لها، وكفاءة تامة في أداء الأعمال اليومية، مع وجوم غريب يخيم على الجميع، شعرت وكأنني قفزت راجعًا في الزمن أكثر من ربع قرن، وكأن طائرة التقطتني ووضعتني فجأة في وسط أحد الفنادق أو المجمعات التجارية بدولة بترولية خليجية. فما الذي يمكن أن يكون السبب في تكرار نفس هذا الجو العام في المكانَين على بُعدهما ومع اختلاف ظروف البلدين؟

كان من أسباب هذا الوجوم وهذه الكآبة في تلك البلاد، بلا شك، قلة عدد النساء في الأماكن العامة، كما لا بد أن من أسبابه أيضًا الانخفاض الشديد في الكثافة السكانية، ولكن لا بد أن كانت هناك أسباب أخرى. ربما كان من الأسباب كثرة المال غير المرتبط بالجهد المبذول، الثراء بلا سبب، أو المال بلا تضحية أو تعب. عندما يوجد هذا الثراء المنقطع الصلة بالجهد، لا بد أن يكون الإنفاق

منقطع الصلة بالسرور؛ إذ لا بد أن يحدث الإنفاق بلا معنى ولا ضرورة. والذين يخدمونك أو يبيعون الأشياء لك لا بد أن يستشعروا خلوَّك من السرور، فيعتريهم شعور مماثل. ولكنهم هم أنفسهم يحصلون على دخل لا يتناسب أيضًا مع جهدهم، وملتزمون بارتداء ملابس لا تتفق بتاتًا مع دخلهم الحقيقي، أو بعزف ألحان لا ينصت إليها أحد. وعندما تشتري أشياء لا تحتاج إليها لمجرد قتل الوقت من فرط الملل، وتبدأ في تناول الطعام قبل أن تشعر بأي جوع، أي لذة يمكن أن تشعر بها مما اشتريته أو تناولته من طعام؟

٨

يومان وليلة واحدة

فيلم حديث وجميل جدًّا، لمخرجَين شقيقين بلجيكيَّين (الأخوان «داردين»)، واسمه «يومان وليلة واحدة»، وصفته إحدى المجلات البريطانية بأنه «يصل في وصف الآثار الساحقة لمآسي النظام الاقتصادي والمالي السائد في الغرب الآن، إلى أعماق لم يصل إليها أي فيلم روائي من قبل».

امرأة في الثلاثينيات من عمرها، متزوجة من رجل يحبها وتحبه، ولهما طفلان. تسكن الأسرة في بيت فيه كل وسائل الراحة، ولديهم سيارة يستقلها الزوج في ذهابه إلى عمله المتواضع في أحد المطاعم، ويوصل الطفلين في طريقه إلى مدرستهما.

الزوجة مع ذلك تعاني منذ بضعة شهور من اكتئاب شديد ليس له سبب واضح، واضطرت بسببه إلى طلب إجازة من عملها المتواضع أيضًا بإحدى الشركات. لا يبدو أن للأسرة مشكلة إلا انخفاض الدخل؛ فالزوج والزوجة على الرغم من أنهما يحصلان معًا على دخل يكفي لحاجات الأسرة الضرورية، لا يجدان الدخل كافيًا لأكثر من ذلك.

يبدأ الفيلم فتظهر المرأة وهي في حالة الاكتئاب، ثم تتلقى خبرًا فظيعًا بالتلفون من موظفة بالشركة، وهو أن مدير الشركة طلب من العاملين في نفس القسم الذي تعمل به أن يدلوا برأيهم، إذا أرادوا أن تستجيب الشركة لطلبهم بصرف مكافأة لكل منهم قدرها ألف يورو، فيما إذا كانوا يوافقون على إنهاء خدمة زميلتهم في الشركة

(وهي هذه الزوجة)، وأن نتيجة التصويت كانت بالموافقة، ومعنى ذلك فصلها، واضطرار الأسرة إلى الاكتفاء بمرتب الزوج، وهو ما يهددهم بتغيير نمط حياتهم تغييرًا شاملًا بما في ذلك ترك البيت الذي يسكنونه.

المرأة يزداد شعورها بالبؤس، فتراها وهي تتناول الحبوب المضادة للاكتئاب، على فترات متقاربة. الزوج يظهر لها درجة عالية من الحنان والمؤازرة، ويقول إنها لا يمكن أن تقبل هذا القرار دون مقاومة، وأن عليها أن تفعل كل شيء حتى يتم إلغاؤه.

يأخذها زوجها لمقابلة المدير الذي يبدي تأففًا واضحًا، ثم يوافق بتكبر وضيق شديدَين على أن يجري الاقتراع مرة أخرى بعد عطلة نهاية الأسبوع، وأنه لن يرجع عن القرار بفصلها إلا إذا حصلت على غالبية الأصوات من زملائها، بتنازلهم عن الألف يورو في مقابل أن تحتفظ هي بعملها.

يصيب الزوجة اليأس، ولكن زوجها يصر على استمرار المقاومة. عدد زملائها ١٦ رجلًا وامرأة، فعليها إذن أن تفعل كل ما تستطيع لإقناع تسعة من هؤلاء بتغيير موقفهم، وذلك بالذهاب إلى كل منهم في منزله خلال العطلة، وتشرح لهم حالتها، وحاجة أسرتها المستميتة إلى احتفاظها بالوظيفة. فتفعل الزوجة ذلك بمنتهى الصعوبة والمشقة، وبتدخل زوجها المستمر بحثِّها على الاستمرار، فيأخذها بسيارته إليهم، واحدًا بعد الآخر، خلال يومَي السبت والأحد، تمهيدًا لإعادة التصويت في يوم الاثنين (ومن ثَم اسم الفيلم: «يومان وليلة واحدة»).

يتبين خلال قيام الزوجة بهذه المهمة الصعبة أن السبب الذي دفع المدير إلى اتخاذ هذا الموقف القاسي أنه اكتشف، خلال تغيب الزوجة عن العمل خلال الأسابيع السابقة، أن زملاءها الستة عشر يستطيعون القيام بما كانت تقوم به من عمل، بإضافة ساعات قليلة لعملهم، يتلقون مقابلها مكافأة بسيطة، ومن ثَم فمن مصلحة الشركة الاستغناء عنها، مما يسمح للشركة بمواجهة منافسة من شركة صينية تبيع نفس السلعة بثمن أقل.

المسألة كلها إذن مسألة توفير للنفقات فيما يتعلق بالشركة، والحصول على ألف يورو إضافية فيما يتعلق بكل من زملائها في الشركة.

أحداث الفيلم لا تزيد عن مقابلة بعد أخرى بين الزوجة وزميل بعد آخر من زملائها الستة عشر، أو أحيانًا محاولة فاشلة لمقابلة بعضهم، إذ يرفض بعضهم مقابلتها عندما يعرفون ما تريد أن تطلبه منهم. ولكن أثناء هذه المقابلات تكتشف أشياء مذهلة. كل من هؤلاء الستة عشر في حالة يرثى لها. الجميع يبدو البؤس على وجوههم من حديثهم، ليس لحرمانهم من بعض ضروريات الحياة المألوفة (من مأكل وملبس ومسكن)، ولكن بسبب شعورهم بالعجز عن تلبية طلب أو آخر من المطالب التي أصبح المجتمع من حولهم يعتبرها من الضروريات، كدفع مصاريف دروس مسائية للبنت، أو دفع اشتراك الولد في نادٍ رياضي، أو توسيع شرفة المنزل الخلفية، إلخ. كل منهم يواجَه بإلحاح شديد على ضرورة تلبية هذه المطالب، من جانبه هو نفسه، أو من جانب أولاده، أو من جانب زوجته الواقفة خلفه في قلق شديد من أن يستجيب لطلب زميلته، بالتنازل عن الألف يورو. تتبين أيضًا أن كلًّا من هؤلاء الزملاء غير راضٍ عن نفسه، ويريد أن يستخدم هذا المبلغ الموعود لاسترداد بعض ما فقده من احترامه لنفسه. نلاحظ أيضًا من ملابسات القصة، أن كلًّا منهم له عمل إضافي يحاول به أن يزيد دخله، كالاشتغال في ورشة لإصلاح السيارات، أو تدريب بعض الأولاد على لعبة كرة القدم، إلخ، ولكن ليس هناك من وسيلة لتحقيق هذه المطالب الملحة غير الحصول على المكافأة الموعودة، والتي تتوقف على فصل هذه الزميلة من وظيفتها.

تفاجأ المرأة ببعض المفاجآت السارة. فقد رقت قلوب الكثيرين منهم لطلبها، فوعدها عدد لا بأس به منهم بأنهم سيعيدون التفكير في الأمر، بل ووعدها اثنان أو ثلاثة بأنهم سيصوتون لصالحها.

الناس إذن طيبون في قرارة أنفسهم، ولكن قسوة هذه الحياة الحديثة هي التي أدخلت القسوة في قلوبهم. لم تعد قسوة الحياة تأتي من الحرمان من المأكل أو الملبس أو المسكن الملائم، لهم ولأسرتهم، كما كان عليه الحال منذ مائة وخمسين عامًا، عندما شرح «كارل ماركس» ظاهرة الاستغلال، ولا هي تأتي من ميكانيكية الحياة ورتابتها، ومعاملة العامل كآلة من آلات المصنع، كما صوَّر «شارلي شابلن» الأمر منذ ثمانين عامًا في فيلمه المشهور «العصور الحديثة»، بل أصبحت القسوة

تتمثل في خلق حاجات ومطالب جديدة، يلهث المرء من أجل إشباعها، وأصبحت تلبيتها، رغم أنها ليست ضرورية كالغذاء والملبس، شرطًا من شروط الحصول على احترام الناس، واحترام المرء لنفسه.

* * *

لا تهم كثيرًا النتيجة التي انتهى إليها الاقتراع الجديد، بعد انتهاء عطلة نهاية الأسبوع. لقد حصلت المرأة على نصف الأصوات، وخسرت نصفها، مما يعني فشلها في الاحتفاظ بوظيفتها، إذ إن هذا كان يتطلب الحصول على صوت إضافي. بدأت المرأة إذن في جمع أشيائها استعدادًا للرحيل عن الشركة إلى الأبد، ولكن المدير استدعاها وقال لها إن من الممكن أن يسمح لها بالاحتفاظ بالوظيفة، إذ يمكنه أن يعالج الأمر بأن يمتنع عن تجديد عقد مؤقت لأحد زملائها. ولكن هذا الزميل، الأسود البشرة، كان قد أبدى عطفًا شديدًا على قضيتها وأعطاها صوته بلا تردد. رفضت المرأة العرض على أساس أنها غير مستعدة لخيانة شخص وقف إلى جانبها في محنتها. وخرجت مرفوعة الرأس، وتشعر من تعبير وجهها أنها استردت ثقتها بنفسها، بل وربما خرجت أيضًا من حالة الاكتئاب، إذ إن اتخاذها هذا القرار الجيد، بحرية واستقلال، قد أعاد إليها احترامها لنفسها. وينتهي الفيلم بمكالمة تلفونية سعيدة ومليئة بالحب بينها وبين زوجها.

٩

هل أصبحنا جميعًا «بروليتاريا»؟

من المشاهد التي صادفتها، ويصعب عليَّ نسيانها، ما رأيته أكثر من مرة لدى وصولي إلى مطار أبو ظبي، حيث يتجمع عشرات العمال من الفقراء، من الهند أو سيريلانكا أو بنجلاديش أو الفلبين، عند بوابات الخروج، في انتظار أقربائهم أو معارفهم لدى وصولهم، للانضمام إليهم للعمل، في ظروف صعبة، في هذه البلاد البعيدة عن وطنهم الأصلي، ولكنهم مع ذلك يعتبرون أنفسهم سعداء الحظ، إذ أتيحت لهم هذه الفرصة لتوفير ما يمكن إرساله إلى أسَرهم في بلادهم الأصلية. وها قد سمعنا مؤخرًا عما يلقاه آلاف العاملين الوافدين من الهند، إلى دولة قطر، لبناء المنشآت اللازمة لدورة كأس العالم القادمة في كرة القدم. إذ ترددت أخبار عن عدد كبير من الوفيات من هؤلاء العمال، بسبب الظروف السيئة التي يعملون فيها: ساعات عمل إضافية في درجة حرارة مرتفعة. ويزيد من وقع هذه الأنباء قسوة المفارقة بين معاناة هؤلاء العمال وبين الهدف الذي يبنون هذه المنشآت من أجله، وهو هدف ترفيهي بحت، وكمالي للغاية.

خطر لي حينئذ أن هؤلاء الذين أراهم أمامي عند باب الخروج، في حالة من البؤس الواضح، هم الذين سمَّاهم «ماركس» و«إنجلز»، منذ قرابة نصف قرن، «البروليتاريا»: رجال ونساء لا يملكون إلا قوة عملهم، التي يضطرون لبيعها للغير في سبيل الحصول على أجر يسدون به حاجاتهم الضرورية وحاجات أولادهم. ولكني رأيت بعد ذلك (وكنت رأيت أيضًا قبل ذلك) صورًا لا يرتسم على وجوه

أصحابها نفس البؤس الذي يرتسم على وجوه هؤلاء العمال، ولكن ينطبق عليهم نفس التعريف لـ«البروليتاريا»: أي أنهم أيضًا رجال ونساء يبيعون قوة عملهم للغير في مقابل أجر (أو راتب) لأنهم ليست لديهم وسيلة أخرى لكسب الرزق. إنهم تجاوزوا بكثير ما يعتبر من ضروريات الحياة: يرتدون، هم وعائلاتهم، ملابس نظيفة وأنيقة ومريحة، ويأكلون أطيب المأكولات، وقد يذهبون إلى مقار أعمالهم في سيارات مملوكة لهم، ولكنهم «بروليتاريا» رغم ذلك، ويلقون من المهانة في عملهم ما لا يختلف إلا في الشكل عن معاناة غيرهم من «البروليتاريا» المشتغلين بأعمال يدوية. هل أصبحنا جميعًا «بروليتاريا»؟

ما أكثر ما أصادف اليوم الحالة الآتية:

رجل في نحو الأربعين من عمره، يحمل شهادة جامعية، ويجيد الكلام بلغة أجنبية، ويعمل موظفًا في شركة أجنبية، ويذهب إليها كل يوم بسيارته الخاصة، ولكنه يقضي ساعة أو ساعتين كل يوم في الذهاب، ومثل ذلك في العودة، وقد تطول المدة عن ذلك في ظروف المرور المألوفة لدينا. زوجته تحمل مؤهلًا مثل مؤهله، وتعمل في شركة أجنبية أيضًا، قد يوصلها زوجها إلى عملها في طريقه إلى عمله، ولكنها قد تستخدم سيارة أخرى خاصة. الاثنان يتركان طفلًا صغيرًا في البيت مع خادمة فلبينية (وأحيانًا حبشية، ولكنها نادرًا ما تكون مصرية لأسباب لا داعي للخوض فيها). الأسرة الصغيرة تعيش في شقة مفروشة جيدًا، بها جهاز التلفزيون بالطبع، وثلاجة مملوءة دائمًا بالطعام، وأجهزة للتكييف، وما أكثر لعب الأطفال المنتشرة على الأرض، ولكن الشقة بعيدة جدًّا عن كل شيء، ليس فقط عن مكان العمل بل وأيضًا عن أهل الزوج والزوجة. ولا داعي الآن للتفكير في مدرسة الطفل الذي سيذهب إليها في المستقبل، ولا فيما إذا كانت الظروف تسمح بإنجاب طفل آخر. الحياة «مترفة»، من وجهة نظر معينة، ولكن التكاليف عالية جدًّا مما استلزم هذا النوع الجديد من «العبودية». «عبودية»؟ نعم، إذا كنت مضطرًّا لقبول القيام بعمل لا تحبه لأن حجم رغباتك أكبر بكثير من قدرتك على تحقيقها دون قبول القيام بهذا العمل. ولكن أليس هذا هو بالضبط حال «البروليتاريا» عند ظهور الماركسية؟ هل يهم كثيرًا، ما دام الأمر كذلك، ما إذا كان ما ترغب فيه هو شراء الطعام الضروري

لأولادك، أو دفع تكاليف الدروس الخصوصية لهم أيضًا، أو دفع قيمة اشتراكهم في نادٍ رياضي، أو دفع قيمة التأمين على السيارة، أو التأمين الصحي، إلخ، إذا كان «الضغط النفسي» واحدًا أو متقاربًا في الحالين؟

* * *

إني واثق من أن هذه الصورة الحديثة من صور «القهر»، لم تكن تخطر ببال الاشتراكيين الأوائل، في إنجلترا وفرنسا، في أوائل القرن التاسع عشر، ولا ببال «ماركس» الألماني، في منتصف ذلك القرن، ولا حتى ببال «لينين» الروسي، في أوائل القرن العشرين، أي منذ ما يقرب من مائة عام. لقد حدثت أشياء كثيرة في المائة عام الماضية، لم يكن من بينها للأسف وضع حد للظلم الاجتماعي، أو للقهر، كما كان يأمل هؤلاء المصلحون القدامى، ولكن تغيرت فقط صورته، إذ ربما يكون ثمة شيء في الطبيعة الإنسانية يضطرنا إلى أن يقهر بعضنا بعضًا. إن وجود نوع من «القهر» في الخضوع لإغراء السلع الترفيهية، حتى تحولت في نظرنا الكماليات إلى ضروريات لا يمكن الاستغناء عنها، قد أدركه بعض المفكرين منذ أقدم العصور، ولكن اتخاذ هذا الإغراء صورة قهر من جانب طبقة أو شريحة اجتماعية، لطبقة أو شريحة أخرى، أي تحوله إلى صورة من صور «الظلم الاجتماعي»، ظاهرة حديثة نسبيًّا، لا يكاد يزيد عمرها كثيرًا عن خمسين عامًا، هي تقريبًا عمر اصطلاح «المجتمع الاستهلاكي». إن أحد المعاني المقصودة بـ«المجتمع الاستهلاكي» هو هذا المعنى بالضبط، بل لقد كانت الثورة التي قامت في فرنسا في ١٩٦٨، وعُرفت بـ«ثورة الطلاب»، ثم انتشرت إلى سائر دول العالم الغربي، في بعض جوانبها، ثورة ضد هذا النوع من القهر، وكان من بين الكتب التي ألهمت هذه الثورة كتاب «هربرت ماركيوز»: «الإنسان ذو البعد الواحد». كما اشتد ساعد ناقدي المجتمع الاستهلاكي في السنوات القليلة التالية لظهور كتاب «ماركيوز». ولكن اللافت للنظر، والمدهش أيضًا، كيف انحسر هذا الاتجاه بسرعة. فما إن انتهى عقد السبعينيات حتى عاد الأفراد المتمردون، والذين حاولوا اتخاذ مسار مختلف، إلى السير مع بقية القطيع، وانتظمنا جميعًا، في نفس المسار الذي خطه لنا المجتمع التكنولوجي الحديث، الذي لا يستفيد منه إلا حفنة صغيرة من الناس.

من المدهش حقًّا كيف نجحت هذه الحفنة الصغيرة، بهذه السهولة، في استئصال هذا الشك من أذهاننا، وإعادتنا إلى فهم «الظلم الاجتماعي» بالمعنى القديم الذي كان سائدًا منذ قرنين من الزمان، أي أن نفهم «الظلم الاجتماعي» بمعنى استئثار حفنة صغيرة بالجزء الأكبر من الثروة والدخل، بينما تحصل الغالبية على جزء صغير منها، ولا نرى الصورة الحديثة للظلم أو القهر، وهي أن نقع فريسة للنهم الاستهلاكي، بحيث نستحق جميعًا وصف «البروليتاريا».

١٠

قصة حياة مدينة صغيرة

ها قد جئت لزيارة هذه المدينة الجميلة، من جديد؛ مدينة «كامبردج» بإنجلترا. كان من الصعب عليَّ أن أصدق أن أول مرة رأيت فيها «كامبردج» كانت منذ أكثر من خمسين عامًا، ولكن هذه هي الحقيقة. كنت قد وصلت إنجلترا لبدء بعثتي الدراسية في جامعة لندن، منذ شهور قليلة، عندما اقترح عليَّ بعض المصريين الذين سبقوني إلى إنجلترا، أن نذهب لقضاء يوم الأحد في تلك المدينة التي لا تبعد عن لندن بأكثر من ساعة بالقطار، وتشتهر بحدائقها وكلياتها العريقة، الممتدة على طول نهر بديع يجري وسط المدينة فيزيدها جمالًا. ذهبت ووقعت في حب «كامبردج» من أول نظرة، ولا زلت أعتبرها من أجمل ما رأيت من بلاد العالم، ومن ألطفها روحًا. لهذا ظللت أعود إلى زيارتها في كثير من أيام الأحد، طوال فترة بعثتي بلندن، ثم اخترتها لأقضي بها عدة شهور في سنة ١٩٧٢ عندما أعطتني مؤسسة «فورد» حرية اختيار المكان الذي أقيم به لكتابة بحثي الذي كنت أقوم به عن اقتصاديات البلاد العربية، فكتبت معظم فصول كتابي «تمدين الفقر» في مكتبة جامعتها. ثم اخترتها، عندما توفر لي بعض المدخرات من عملي بالكويت، لشراء شقة صغيرة فيها تطل على النهر، وهو ما مكنني في سنة ١٩٧٨، أي منذ ٣٧ عامًا، من الإقامة بها أنا وزوجتي وأولادي، بضعة أسابيع من الصيف، عامًا بعد عام.

لا عجب أني أصبحت كلما جئت إليها من مصر، أشعر كأني لم أغادرها قط، فقد عرفت شوارعها ومحلاتها ومكتباتها ومطاعمها، ومواقف التاكسيات بها،

والطرق التي تسير بها الأتوبيسات، إلخ. وقد رأيت في دار السينما الشهيرة بها، التي تجلب أفلامًا من كل بلاد العالم، بعضًا من أجمل الأفلام، كما قرأت في مكتبة جامعة «كامبردج» بعضًا من أكثر الكتب تأثيرًا في نفسي.

ولكن خمسين عامًا مدة طويلة جدًّا لا يمكن أن تترك بلدًا، وحتى لو كانت «كامبردج»، على حالها، على الرغم من الحرص الشديد من جانب الحكومة الإنجليزية والمجلس المحلي للمدينة على ألا يحدث ما يمكن أن يمس جمال المدينة بأي سوء، أو يغير من شخصيتها، أو يعرض لأي خطر أيًّا من كلياتها، التي يعود تاريخ بعضها إلى أكثر من خمسمائة عام، من جمال ورهبة. نعم، لا زالت المدينة تحتفظ بالجمال القديم وبالرهبة التي بعثتها في نفسي لأول مرة منذ خمسين عامًا، ولكن كيف أنكر كل ما طرأ عليها من تغيرات مهمة خلال فترة انقلبت فيها أحوال العالم وأحوال إنجلترا نفسها رأسًا على عقب، من أيام الحرب الباردة (التي كانت مشتعلة عند قدومي لإنجلترا لأول مرة) إلى ما بعد سقوط الاتحاد السوفيتي؟ من أيام كان فيها الصراع بين الاشتراكية والرأسمالية هو شاغلنا السياسي الأول، إلى أن صارت الولايات المتحدة هي القطب المسيطر على العالم، ثم بداية أفول النفوذ الأمريكي وصعود قوى آسيوية، كانت قليلة الأثر منذ خمسين عامًا، فأصبحت ذات كلمة مسموعة ومؤثرة في الاقتصاد والسياسة العالميَّين؟ بل كيف تبقى «كامبردج» دون أن تلحقها تغيرات مهمة مع ارتفاع معدل العولمة، وتدهور مكانة الدولة القومية، وصعود الشركات الدولية العملاقة لتحتل مكانها، ومع صعود المجتمع الاستهلاكي وتغير نمط الحياة في الملبس والمأكل ووسائل الترفيه، وظهور ثقافة جديدة تراعي أذواق صغار السن أكثر مما تراعي أذواق الكبار، وتقدر الأغاني والموسيقى السريعة والصاخبة على حساب الموسيقى الكلاسيكية التي كانت لا تزال ذات اليد العليا عندما جئت إلى إنجلترا لأول مرة؟ كيف لا تتأثر المدينة، حتى لو كانت مدينة «كامبردج»، بظهور المطاعم التي تقدم الوجبات السريعة والمقاهي التي لا تتحمل أن يستمر الجالسون فيها لأكثر من دقائق قليلة، وبحلول الآلة محل الأيدي العاملة في كل مكان، وازدياد الدور الذي تلعبه الشاشة في حياتنا، سواء كانت شاشة التلفزيون، أو شاشة التلفون المحمول، أو شاشات الإعلانات المنتشرة في الشوارع، إلخ؟

قررت إذن أن أجلس لكي أستعيد في ذهني بتأنٍّ تام ما حدث لمدينة «كامبردج» خلال الخمسين عامًا الماضية، متوقعًا أن أجد في هذا تلخيصًا وافيًا لما حدث في العالم (وربما أيضًا لما حدث لي شخصيًّا) من تطورات مهمة. بل قلت لنفسي إن ما أكتشفه من تغيرات في هذه المدينة الصغيرة قد يكون أبلغ تعبيرًا عن الآثار الاجتماعية والنفسية التي تركَتها هذه التغيرات فينا جميعًا، من التعبير عنها بتطور الأحداث السياسية الضخمة. وقد حدث ما توقعت، إذ وجدت فعلًا أن ما حدث لمدينة «كامبردج» يعبر تعبيرًا بليغًا للغاية عما حدث لنا جميعًا خلال الخمسين عامًا الماضية.

* * *

كان من أحب الأماكن إلى قلبي، في مدينة «كامبردج»، أو بالأحرى في القرية القريبة جدًّا منها «جرانشستر»، مكان لتقديم الشاي في الهواء الطلق ويحمل اسمًا جميلًا هو «البستان»[1]. لم يكن من الممكن أن أزور «كامبردج» قط دون أن أذهب إليه مع زوجتي وأولادي، أو بصحبة صديق لي أشرح له أن من المستحيل أن يأتي إلى «كامبردج» دون أن يتناول الشاي في هذا «البستان».

عندما رأيت هذا «البستان» لأول مرة، منذ أكثر من خمسين عامًا، كنت مع اثنين أو ثلاثة من زملائي المصريين المبعوثين مثلي إلى إنجلترا، ولا بد أن واحدًا منهم كان قد قدم إليه من قبل، وعرف جماله وشهرته فاصطحبنا إليه. كان الوصول إلى «البستان» يقتضي السير نحو ساعة في طريق ضيق للمشاة من أحد أطراف مدينة «كامبردج»، ووسط حقول واسعة لا ترى خلالها أي مبنى حديث أو قديم، ويحدها نهر «كام» المتعرج، تراه من علٍ، ويفصله عنك بعض الأبقار التي تركها أصحابها لترعى طوال اليوم ثم يجمعونها عند المغرب. كان كل شيء يبدو وكأن من الممكن أن يكون قد استمر على هذا النحو منذ العصور الوسطى؛ إذ لم يكن هناك شيء مما تراه أينما نظرت، ولا صوت يمكن أن تسمعه، ناتج عن شيء أضافته الحضارة الحديثة. ولا شك أن أصحاب «البستان» قد فعلوا كل ما في وسعهم لكي يكون «البستان» أيضًا كذلك؛ لا يكاد أن يكون فيه شيء لم يكن يمكن وجوده منذ خمسة أو ستة

---

(١) The Orchard

قرون: الموائد خشبية، والمقاعد خيزرانية، والخادمات اللاتي يقفن لاستقبال طابور الزائرين لطلب الشاي أو المأكولات كلهن إنجليزيات، يرتدين أثوابًا طويلة، ويعقدن شعورهن فوق رؤوسهن، ويقدمن الشاي في أوانٍ فخارية يقال إن طعم الشاي فيها أفضل مما لو صب في أي إناء آخر، والزبائن غالبيتهم العظمى من الإنجليز. لم نجد أي غرابة فيما قيل لنا من أن هذا «البستان» كان هو المكان المفضل، في أوائل القرن العشرين، أي منذ مائة عام، لمجموعة شهيرة من الكُتاب والمفكرين الإنجليز، منهم «برتراند راسل» و«مينارد كينز» و«فرجينيا وولف» و«ليو استراتشي» والفليسوف النمساوي «فتجنشتاين»، فيأتون لتناول الشاي ويواصلون مناقشاتهم الأدبية أو الفلسفية، ومن ثَم ترى، وأنت واقف في الطابور، صورًا قديمة لهؤلاء الكُتاب العظام وهم جالسون على نفس المقاعد التي ستجلس عليها بعد قليل، تحت نفس الأشجار المحملة بثمار التفاح الذي سقط بعضه على الأرض، بعد أن أكلت الطيور نصيبها منه.

* * *

خلال هذه الفترة الطويلة التي كنت أجيء فيها إلى «كامبردج» بانتظام، حدث مرة أن جئنا إلى «البستان» فلم نجد له أثرًا. الأرض خالية، والكوخ الخشبي الذي كنا نقف أمامه في طابور، مغلق ولا أثر لأي حياة فيه. كان هذا في الثمانينيات، أيام حكومة «مارجريت ثاتشر» التي رفعت شعارات تدور كلها حول تطبيق نظام حرية السوق وتشجيع الحافز للفردي، وإعطاء الأولوية للكفاءة الاقتصادية وتعظيم الأرباح. سمعنا وقتها أن «البستان» معروض للبيع. طبعًا، وما الذي يمكن أن نتوقعه غير ذلك في ظل نظام اقتصادي من هذا النوع؟ وكيف تكفي بضعة فناجين من الشاي وبعض الفطائر المنزلية لتحقيق إيراد يتناسب مع قيمة هذه الأرض الشاسعة التي يقوم عليها «البستان»؟ لحسن الحظ أن الأمر لم ينتهِ على هذا النحو، إذ سرعان ما سمعنا أيضًا أن شبابًا رائعًا من طلبة جامعة «كامبردج» أثارهم الخبر، فنظموا مظاهرة كبيرة سارت إلى «البستان» واحتلته، ورفعت اللافتات في «كامبردج» وقرية «جرانشستر» تعبر عن تصميمهم على تعطيل البيع وإعادة «البستان» إلى أصله. هؤلاء لا يسمحون بالعبث بالتاريخ على هذا النحو، ولا بالتضحية بكل الاعتبارات لصالح دافع الربح.

كانت النتيجة أنه في العام التالي عندما ذهبنا إلى «البستان»، وجدناه قد عاد إلى ما كان عليه بالضبط، واستغربت بشدة تلك القدرة على إعادة الشيء إلى أصله على هذا النحو من الدقة، وقلت لنفسي لا بد أن يكون وراء ذلك بعض الأشخاص المخلصين تمامًا للقيم التي أدت إلى إقامة هذا «البستان» في الأصل.

بعد عامين أو ثلاثة رأيت في «البستان» شيئًا جديدًا، ليس مزعجًا في حد ذاته، ولكنه ينبئ بتطورات مقبلة، لا بد أن تنتج عنها بالتدريج تغيرات مهمة؛ ذلك أني عندما وصلت هذه المرة إلى «البستان»، رأيت طابورًا طويلًا جدًّا، أطول بكثير من المعتاد، فلما أمعنت النظر في وجود الواقفين، تبينت أنهم كلهم جميعًا صينيون.

ها قد وصل الصينيون إذن إلى «كامبردج»، وإذ سمعوا عن «البستان» لم يستطع أحد بالطبع أن يمنعهم من القدوم لتناول الشاي فيه، ولا شك أن نسبة صغيرة جدًّا من الصينيين تكفي لاحتلال المكان كله، والْتهام كل الفطائر المعروضة على اختلاف أنواعها.

* * *

كان هذا مجرد مثل واحد لما بدأت أراه في «كامبردج» عامًا بعد عام من آثار العولمة. كانت إنجلترا عندما جئت إليها في ١٩٥٨، كما توقعت أن تكون: بلدًا إنجليزيًّا يسكنه إنجليز يتكلمون الإنجليزية ويأكلون طعامًا إنجليزيًّا، إلخ. هكذا وجدت الشوارع والمحلات والمطاعم والملابس ولغة الحديث في القطارات ومترو الأنفاق. كان الطعام الذي يقدَّم لنا في كلية لندن للاقتصاد، طعامًا مسلوقًا كله، لا أثر فيه لأي نوع من الصلصة أو البهارات، ولا يكاد يختلط به أي قدر يذكر من الزبد أو الزيت. كنا مجبرين على أكله لمجرد أنه لم يكن هناك شيء غيره. فإذا استبد بنا الشوق لطعام ألطف مذاقًا وأقرب إلى ما تعودناه في بلدنا، عبرنا الطريق إلى المبنى الضخم المقابل الذي كانت تحتل معظم أدواره الإذاعة البريطانية، وكان لها مطعم في أسفل المبنى يقدم بعض الأطباق المختلفة بأسعار معقولة، مراعاة لأذواق كثير من موظفيها المنتمين لجنسيات مختلفة، ويعملون بالأقسام الموجهة لمناطق مختلفة من العالم، ومنها القسم العربي الذي يعمل به مصريون

وعرب آخرون. كان أخي حسين، الذي جاء قبلي إلى إنجلترا وعمل لفترة ما بالقسم العربي بالإذاعة البريطانية، قد نصحني بأن أذهب إلى هذا المطعم كلما استبد بي الجوع، فإذا أوقفوني عند الباب وسألوني عن هويتي، أن أدعي بأني جئت لمقابلة ذلك المذيع السوداني أو الفلسطيني من زملاء حسين القدامى، فأحصل بذلك على وجبة شهية بسعر مدعم من هيئة الإذاعة البريطانية. لم يكن من الممكن أن أكرر ذلك كثيرًا حتى لا يفتضح أمري، ومن ثَم كان عليَّ أن أقنع في معظم الأيام بما يأكله الإنجليز، وكانت لذلك بعض النتائج الطيبة؛ إذ انخفض وزني واستقام عودي.

فيما عدا هذا المطعم الاستثنائي، والمطاعم التي تقدم أكلًا هنديًّا تعود عليه كثير من الإنجليز بسبب طول إقامتهم بالهند، كانت المطاعم كلها تقريبًا تقدم الأكل الإنجليزي المعروف؛ إذ لم يكن الإنجليز قد اختلطوا بدرجة كبيرة ببقية شعوب أوروبا، فلا أذكر أني صادفت مطعمًا إيطاليًّا أو فرنسيًّا أو يونانيًّا حتى قرب نهاية بعثتي في لندن في ١٩٦٤؛ أي بعد مرور ست سنوات على تكوين السوق الأوروبية المشتركة. بل حتى ذلك الوقت لم يكن الإنجليز قد اكتشفوا بعد أن الجو يمكن أن يكون أحيانًا صحوًا، والشمس مشرقة، ومن ثَم لا أذكر أني رأيت خلال فترة بعثتي، موائد مرصوصة على الرصيف في خارج مطعم أو مقهى بريطاني، على النحو الذي كان يمكن أن تراه في فرنسا أو إيطاليا. كانت فكرة الإنجليزي المستقرة أن الشمس لا تظهر، وأن المطر ينزل باستمرار، ومن ثَم فلا بد من تناول الطعام في مكان مغلق وذي سقف. وعلى أي حال، كان تناول الطعام خارج المنزل أو خارج مكان العمل شيئًا نادرًا جدًّا؛ إذ لم يكن مستوى الدخل يسمح بذلك. إن الترفيه عن النفس بالخروج لتناول الطعام والشراب مع الأهل أو الأصدقاء لم يكن قد أصبح عادة بعد كما أصبح الآن (فيما عدا خروج الرجل لتناول بعض الخمر في البار المجاور)، ومن ثَم ظلت المطاعم قليلة، فإذا وجدت فهي لا تكاد تقدم إلا طعامًا إنجليزيًّا.

هكذا كانت أيضًا المحلات، لا تكاد تبيع إلا ما أنتجته بريطانيا، ولا تكاد ترى فيها من الزبائن غير الإنجليز. لم تكن تتوقع أن ترى عبارة «صنع في الصين» أو «الهند» أو «تايوان» على ما تشتريه من ملابس أو أجهزة كهربائية، كما لم يكن

من المألوف أن تصادف مجموعة من السيدات المحجبات الآتيات من إحدى دول الخليج يسرن في شارع «أكسفورد»، وقد حملن أكياسًا ثقيلة من المشتريات، إذ لم يصبح هذا منظرًا مألوفًا إلا بعد الارتفاع الشديد في أسعار البترول في ١٩٧٣. كانت الغالبية الساحقة بين السائرين في شوارع لندن أو «كامبردج»، منذ أواخر الخمسينيات وطوال الستينيات، (ويا للعجب!) من الإنجليز، بينما يصعب عليَّ الآن، وأنا أسير في شوارع «كامبردج»، أن أحدد ما إذا كنت أسير في عاصمة بريطانيا أو الصين، وما إذا كانت أكثر اللغات انتشارًا في المدينة هي الإنجليزية أم الصينية أم الإسبانية أم الإيطالية.

هؤلاء جميعًا يأتون إلى «كامبردج» في كل صيف إما للسياحة أو للتقوية في اللغة الإنجليزية. وقد توارى في وسطهم الإنجليز، إما لذهابهم للسياحة في خارج إنجلترا، أو لانخفاض معدل المواليد بين الإنجليز فاختفوا في زحمة أصحاب الجنسيات الأخرى الأكثر حبًّا للأطفال.

راعني أيضًا في الأتوبيسات والتاكسيات أني نادرًا ما أرى سائقًا إنجليزيًّا، ولا شك أن السبب هو ارتفاع مستوى الدخل في بريطانيا إلى درجة سمح للإنجليز بترك الأعمال الأقل دخلًا ليقوم بها القادمون من دول العالم الثالث، كبنجلاديش أو باكستان، ومن ثَم التساهل في فتح باب الهجرة إلى بريطانيا، واقتصارهم هم على الأعمال الأعلى إنتاجية والأكثر مهارة. لا زال هؤلاء المهاجرون يشعرون بضرورة الالتزام بنظام الحياة في بريطانيا، وبالتقاليد الإنجليزية في الانضباط واحترام القانون، ولكن المرء يتساءل عما إذا كان هذا يمكن أن يستمر إلى الأبد، مع الازدياد المستمر في نسبة المهاجرين إلى مجموع السكان.

* * *

لا مفر من الوصول إلى النتيجة الآتية: إن دافع الربح يبدو أقوى من أي شيء آخر في تشكيل نمط الحياة في هذه البلاد، وأن غياب دافع الربح أو ضعفه هو الذي يجعل نمط الحياة في بلادنا الفقيرة لا يتغير كثيرًا مع مرور الزمن.

في كل مرة أجيء فيها إلى «كامبردج»، أجد محلات قد اختفت وحلت محلها محلات أخرى، ويكاد أن يكون السبب دائمًا أن المحل الجديد أكثر ربحًا من السابق.

المطعم الذي كنت أحبه في الشارع الشهير بجوار مكتبة «هيفرز» الشهيرة أيضًا، والذي كان يقدم أطباقًا شهية بأسعار معقولة، ومن ثَم كان يكتظ دائمًا بالزبائن في أي ساعة من ساعات اليوم، اختفى فجأة ليحل مكانه محل لبيع الملابس. ومحل آخر كان يبيع الكتب المستعملة كنت أجد فيه أحيانًا كتبًا قيمة قديمة لا تعاد طباعتها الآن، استولت عليه سلسلة مقاهٍ عالمية تنتشر في العالم كله، ويقبل عليها الناس، لا لأنها تقدم قهوة أفضل مما يقدمه غيرها، بل لمجرد أنها أصبحت مشهورة، وقد مكنتها مجرد الشهرة أن تتقاضى أثمانًا مرتفعة لما تقدمه، وكأنها لا تبيع القهوة بل تبيع مجرد اسمها.

عامًا بعد عام تزيد النسبة التي تحتلها محلات البيع التي تنتمي إلى شركات عالمية أو صاحبة السلسلة من المحلات المنتشرة في الدول كلها، على حساب المحلات الصغيرة التي يملكها ويديرها شخص واحد أو أسرة واحدة. محلات البقالة الصغيرة تختفي ليحل محلها سلسلة سوبرماركت شهيرة يقوم فيها الزبون بخدمة نفسه، إذ إن هذه الشركات الكبيرة هي القادرة على دفع ثمن الأرض التي تقوم عليها بسبب ما تحققه من أرباح عالية. كما تحل البنوك ومحلات السمسرة مكان المحلات التي تبيع سلعًا أو خدمات رخيصة. بل وحتى البنوك، لحقت بها تغيرات كبيرة خلال العقود الخمسة الماضية، إذ لم يعد هناك في الحقيقة مَن يمكن أن تبادله الكلام، لأن الماكينات التي تسحب منها نقودك حلت محل الآدميين، بل ومعظمها يوضع خارج البنوك فلا تحتاج حتى إلى دخوله. والموظفون القليلون الباقون داخل البنك يتغيرون بسرعة كبيرة، فلا تكاد تتعرف على أحد منهم حتى يحل محله غيره. ومن ثَم فهم لا يشعرون بأي انتساب للبنك الذي يعملون به، إذ يعرفون أنهم سرعان ما يتركونه إلى عمل آخر.

بل لقد بدأ دافع الربح يعمل على تخريب بعض من أجمل الأشياء في مدينة «كامبردج». فمنذ عرفت «كامبردج» كان بها دار معينة للسينما، صغيرة ولكنها مشهورة بالتخصص في عرض أفضل الأفلام المنتقاة من مختلف دول العالم. وكان الذاهب إليها يطمئن إلى أنه لن يخيب ظنه أبدًا، وسيظفر برؤية فيلم جيد، سواء من الولايات المتحدة أو الهند أو روسيا، إلخ. وكانت السينما توزع مجانًا

مطبوعة صغيرة تحتوي على تقييم المشرفين عليها للأفلام التي سوف تقوم بعرضها، فتعطي لكل فيلم حقه وتعرض موضوعه بصدق. مع مرور السنوات، اضطرت هذه السينما، بعد أن تركت مكانها لمطعم كبير أقدر على تحقيق الربح، وذهبت إلى مكان آخر أرخص، إلى أن تقدم خليطًا من الأفلام الجيدة والمتوسطة بل وبعض الأفلام الرديئة التي تعتمد على اسم ممثل شهير أو ممثلة جميلة لتسويق الفيلم. تحولت المطبوعة التي توزعها إلى نشرة دعائية رخيصة تمتدح جميع الأفلام ولا تميز أحدها عن الآخر، وأصبحت تعتمد هي الأخرى على سلسلة الأفلام التي حققت شهرة عالية، لا لجودتها ولكن لحجم ما أنفق للدعاية لها، كأفلام «هاري بوتر» التي يصطف الأطفال في ساعة متأخرة من الليل، أمام المكتبات، في انتظار وصول نسخ الجزء الجديد من المسلسل، ثم يذهبون لمشاهدة الفيلم (المبني عليه) لمجرد أن بقية أطفال العالم سوف يذهبون أيضًا لمشاهدته.

الربح يتعاظم بالطبع كلما زاد عدد المشترين، وعدد المشترين يزداد كلما كانت السلعة والخدمة تستجيب لرغبات الرجل المتوسط والمرأة المتوسطة، لا لرغبات الصفوة المتميزة بالدخل المرتفع جدًّا أو الذوق الراقي جدًّا، ولا لرغبات محدودي الدخل. وهذا هو بالضبط ما حدث لمدينة «كامبردج»، مع مرور الزمن، كما لا بد أنه حدث لغيرها أيضًا. اختفت كثير من المحلات التي تبيع أصنافًا متميزة في جودتها وذوقها، وكذلك المحلات التي كانت تستجيب لحاجات ذوي القدرة الشرائية المحدودة.

عندما قدمت إلى «كامبردج» لأول مرة، كان هناك مثلًا محل شهير يعرف الجميع أنه يبيع الأصناف الرخيصة من كل شيء. قد لا تكون جذابة المنظر ولكنها تؤدي الغرض المطلوب منها، كما تقدم بعض الأطعمة التي قد لا تكون بديعة المذاق ولكنها تقضي على الجوع. كان لهذا المحل («ولورث») فروع كثيرة منتشرة في أحياء لندن وفي كل مدينة من مدن إنجلترا، وكنا نحن، طلبة البعثة في إنجلترا، بسبب انخفاض مرتباتنا، كثيرًا ما نفضله على غيره. ولكن مع ارتفاع متوسط الدخل في إنجلترا، أخذت هذه المحلات تفقد جاذبيتها، بل وبدا مظهرها كمظهر الرجل المهلهل الثياب وسط رجال حسني الهندام، فقل زبائنها وانتشرت بدلًا منها محلات

تستجيب لأذواق أفضل، ودخول أعلى، وأغلق محل بعد آخر من هذه المحلات الرخيصة أبوابه، بما في ذلك ما كان قائمًا في «كامبردج».

حققت المحلات الجديدة، التي تستجيب لطلبات الطبقة المتوسطة الجديدة، نجاحًا باهرًا، ولا تزال، بسبب النمو السريع في حجم الطبقة المتوسطة في بريطانيا طوال الخمسين عامًا الماضية. كان هذا النمو على حساب الطبقة الأرستقراطية التي أخذت تتوارى من الوجود، والطبقات الكادحة التي صعد معظم أبنائها وبناتها وانضموا للطبقة الوسطى. منذ عشر سنوات، رأيت مع الأسف محل «ماكدونالد» يفتتح فرعًا له في وسط مدينة «كامبردج». بدت شارة المحل غريبة بالقرب من مباني الكليات الرائعة التي تعود إلى القرنين الخامس عشر والسادس عشر. ويبدو أن أصحاب المحل كانوا يشعرون بخطورة ما يفعلون (رغم إصرارهم على فعله) فحاولوا تصغير اليافطة التي تحمل اسم المكان بقدر الإمكان، وحاولوا أن يكون طراز المبنى وأعمدته مما يمكن أن يتمشى مع معمار المباني المجاورة. ولا زال المحل قائمًا، ولكني ألاحظ كلما مررت به، أن النسبة الكبرى من الزبائن هم من السياح أو من صغار السن من الإنجليز.

* * *

يخطر لي أحيانًا أن هذا النظام الذي يسمى بالرأسمالي تارة، أو بنظام السوق الحرة تارة أخرى، (وقد يحسن أن نبحث له عن اسم آخر)، كالنار التي لا يمكن أن تلمس شيئًا دون أن تلتهمه. إنه يعصف بأشد القلاع تحصينًا، ويشن الحروب، ويُسقط أعتى الإمبراطوريات، ويمزق الدول، ويفرق بين أبناء الأمة الواحدة، وبين أفراد العائلة الواحدة، وبين الرجل والمرأة. لقد رأيت بعيني بعضًا من هذا يحدث في مدينة جميلة وقعتُ في حبها منذ خمسين عامًا، ولكن ما حدث لها يلخص تلخيصًا وافيًا ما حدث ولا يزال يحدث في العالم كله.

الباب الخامس

مكتوب على الجبين

١

فريال يا فريال

سمعت بمولدها عندما كنت طفلًا في روضة الأطفال، فهي تصغرني إذن بخمس أو ست سنوات. نشر الخبر في الصفحات الأولى من الجرائد، وهللت له الإذاعة وسرعان ما علمونا في الدراسة أن نغني نشيدًا بمناسبة مولدها السعيد.

تكررت بعد ذلك رؤيتنا لصورتها في الصحف والمجلات. طفلة جميلة مستديرة الوجه كأبيها الملك فاروق، وشعرها يتدلى على كتفيها في ضفيرتين. فلما رأيت صورتها بعد أن تقدمت بها السن، والتي نُشرت مقترنة بخبر وفاتها عن ٧١ عامًا، أخذت أتأمل الصورة جيدًا عسى أن أجد فيها لمحة من صورتها القديمة التي التصقت بذهني وهي طفلة. استطعت أن أعثر في صورتها التي التقطت قبيل وفاتها، على مسحة من الجمال القديم، ولكني وجدت فيها أيضًا حزنًا عميقًا لا بد أنه كان نتيجة للأحداث الجسيمة التي مرت بها هي وأسرتها.

كان مطلع النشيد الذي كنا نغنيه ونحن أطفال:

فريال يا فريال يا معقد الآمال

دون أن يكون هناك أي سبب بالطبع لأن يعتبرها الشعب المصري معقدًا لآماله. كان أبوها الملك الشاب لا يزال محبوبًا من الناس في ذلك الوقت، ليس بسبب عمل جيد قام به، بل فقط لأنه كان شابًا وملكًا جديدًا ولم يرتكب بعد عملًا مشينًا. ثم توالت الأخبار السيئة عنه، وتناقل الناس إشاعات عن أعمال فظيعة من بينها الكثير من الفضائح، حتى فوجئنا يومًا بالصفحة الأولى في الجرائد تنشر خبر طلاق الملك

من الملكة فريدة، وكانت قد ولدت له بعد فريال بنتين أخريين. وإلى جانب الخبر، في نفس الصفحة، خبر طلاق آخر، هو طلاق أخت الملك الإمبراطورة فوزية من شاه إيران، على أمل أن يستقر في وعي الناس أن واقعة الطلاق شيء عادي، يمكن أن يحدث لأفضل الناس، ولا يختلف كثيرًا عن واقعة الزواج نفسها.

ساءت أحوال الملك بعد الطلاق، وزادت الإشاعات عن سوء سلوكه، فلم يشعر الناس بأي ابتهاج عندما أعلن عن زواجه للمرة الثانية، أو بخبر ميلاد أول صبي له قبل ثورة ١٩٥٢ بشهور قليلة.

كان بجوار بيتنا، في مصر الجديدة، سينما كان اسمها «سان استيفانو» قبل مولد الأميرة فريال، فلما ولدت سموها «سينما فريال»، ثم قامت ثورة ١٩٥٢ فسموها «سينما التحرير». وقد استقبلنا الثورة بفرح غامر، ولم نعبأ على الإطلاق بما يمكن أن تكون عليه مشاعر الأسرة المالكة عندما سمعنا برحيلهم عن البلاد. أذكر أن أمي كانت هي الوحيدة في عائلتنا التي عبَّرت عن حزنها من أجلهم. وأذكر تبريرها لهذا الحزن بقولها إنها تستطيع أن تتصور شعور «عزيز قوم ذلَّ».

* * *

مر أكثر من نصف قرن على سفر الأميرة فريال من مصر لآخر مرة، وكانت سنها في ذلك الوقت أحد عشر عامًا، ولا بد أنها مرت خلال هذه المدة بفترات كثيرة من الشعور بالمرارة لما حدث لأسرتها قبل أن يصيبها مرض السرطان الذي ماتت به. ولا بد أن أعترف أنني شعرت ببعض الاستغراب (اللاعقلاني بالمرة طبعًا) عندما عرفت بإصابتها بهذا المرض، وكأن من الغريب أن يصيب مرض كهذا أميرة صغيرة جميلة مثل فريال.

٢

مجدي وميمي

عرفتهما لأول مرة كصديقَين لأخي حافظ وزوجته مها، فهما يكبراني بأربع أو خمس سنوات، ولكن سرعان ما قويت علاقتي بهما، حتى أصبحت بقوة علاقتهما بحافظ وزوجته. كان أول انطباع يتركانه لدى مَن يقابلهما أنهما شخصان بالغا الرقة والعذوبة والتهذيب. كانا مغرمَين بمختلف الفنون، وعلى الأخص مجدي، الذي كان يهوى الرسم والنحت ويمارسهما بمهارة، كما كانا يحبان القراءة في مختلف الموضوعات ومناقشة ما يقرآنه.

كانا نحيفَين (مما يتفق مع شخصيتيهما) وحسنَي الهندام. ما يهمهما في الطعام هو جودة الطهي وجمال التقديم وحسن تنسيق المائدة، ويا حبذا لو كان الصنف جديدًا وغير مألوف. وكان مجدي يمارس الطهي مع زوجته ويجيده.

أحببتهما حبًّا جمًّا لكل هذه الصفات، ولما قدمه لي مجدي من خدمات عندما كنت أمر بمحنة، أو كلما اشتدت حاجتي إلى مساعدته لاختيار الطبيب المناسب لعلاجي. وكان يفعل ذلك عن طيب خاطر ودون أن يُشعر مَن يتلقى خدماته بأنه قام بعمل هام أو ينتظر أي تعبير بالامتنان. تخصص بعد تخرجه في الطب النفسي، ولكنه لم يمارس هذا التخصص إلا على نحو عابر، بل عمل معظم سنوات حياته مديرًا لبعض المستشفيات حتى بلغ الخامسة والستين فتفرغ لممارسة هواياته.

استمرت علاقتنا خالصة من أي شائبة، فلم يَبدُ لي أن هناك ما يمكن أن يهددها، ولهذا حزنت بشدة عندما تصدعت علاقتنا فجأة دون سبب واضح. أستطيع أن

أخمِّن سببًا أو سببين محتملين، ولكني لم أقتنع حتى الآن بأن أيًا منهما قادر على تفسير ما حدث. تساءلت عما إذا كان قد بدر مني قول أو فعل يمكن أن يغضبه إلى هذا الحد، فلم أجد أي إجابة. وقد بذلت محاولة لإنقاذ علاقتنا فلم يساعدني هو على ذلك، بل رفضها رفضًا حاسمًا دون أن يفصح عن السبب، وترك زوجته تعتذر لي فلم أكرر الاتصال بهما بعد ذلك.

كانت شخصية مجدي تبدو وكأنها تغلفها سحابة من الحزن تجعله غير قادر على الانطلاق بالضحك، فضحكته خافتة قصيرة وابتسامته صغيرة. كانت ميمي أكثر انطلاقًا منه في التعبير عما تشعر به، وأكثر قدرة على المرح، ولكنها هي أيضًا كانت تنطوي (فيما بدا لي) على شيء من الحزن. وقد خطر لي أن سبب حزنهما قد يكون واحدًا، وأنه قد يكون هو أيضًا سبب التصاق أحدهما بالآخر لهذه الدرجة غير المألوفة.

لم يكن لهما أطفال، وقد لاحظت في الحالات القليلة المماثلة التي صادفتها في حياتي، أن العلاقة بين الزوجين في هذه الحالة تكون أقوى منها في حالة وجود أطفال. لا أذكر أن صدر من مجدي أو ميمي أي عبارة تدل على أي معاناة لهذا السبب، وإن كنت قد لاحظت أنهما نادرًا ما يسألون عن أولادنا، أو أن يصدر من أحدهما ما يدل على أي اهتمام بأخبارهم. أحيانًا يطوف بذهني أن يكون لهذا الأمر علاقة بتدهور علاقتنا، ولكني أعود فأستبعد هذا التفسير.

* * *

مرت سنوات كثيرة كان يعاودني خلالها الشعور بالحزن كلما تذكرت هذين الصديقين وكيف انتهت علاقتي بهما فجأة. كنت أسمع بعض أخبارهما من حين لآخر، كشرائهما قطعة أرض صغيرة في منطقة ريفية بعيدة عن القاهرة، وأنهما قاما ببناء بيت صغير جميل يذهبان إليه في العطلات لمراقبة الطيور. كما سمعت أن مجدي أنشأ في بيته في القاهرة ما يشبه المدرسة، يعطي فيها دروسًا لعدد قليل من هواة الرسم دون مقابل، كما يستقبل بعض المهتمين بالطب النفسي، فيدير بينهم حلقات للمناقشة حول الصحة النفسية.

كان هذا هو كل ما سمعت من أخبارهما لمدة تزيد على عشرين عامًا، إلى أن

وصلني خبر وفاتهما غرقًا، وهما عائدان بالسيارة ليلًا من بيتهما الريفي، فاصطدما بسيارة نقل بالقرب من ترعة فسقطت سيارتهما فيها. لا بد أن مجدي كان قد تجاوز الثمانين، وميمي أقل من ذلك بقليل. بدا لي الخبر غير قابل للتصديق، ففضلًا عن مأساويته، زاد من حزني أني لم أنجح في استعادة علاقتنا، ولم يبقَ الآن أي أمل في استعادتها. كان الشيء الوحيد المعقول في الحادث هو أنهما ماتا معًا في نفس اللحظة، إذ لم يكونا طوال حياتهما يفترقان أبدًا. لا أكاد أذكر مرة واحدة قابلت فيها أحدهما دون الآخر. ولهذا كان اسماهما مرتبطين في أذهاننا ارتباطًا لا يمكن فصمه، وكأن «مجدي وميمي» اسم لشخص واحد. بدا لي إذن أن هناك شيئًا طبيعيًا في أن يصيبهما الموت أيضًا في نفس اللحظة، مما يضمن ألا يفتقد أحدهما الآخر.

٣

الزفاف الملكي

عندما سمعت أن حفلة الزفاف الملكي، بين «وليام» حفيد ملكة بريطانيا، وخطيبته «كيت»، سوف تبث على شاشات التلفزيون يوم ٢٩ أبريل سنة ٢٠١١، وأني أستطيع مشاهدة مراسمها وأنا في مصر، مثلما يمكن لعشرات من الملايين غيري في مختلف أنحاء المعمورة، لم أتردد قط في اتخاذ قرار بالجلوس لمتابعتها، رغم ندرة مشاهدتي للتلفزيون عمومًا، ورغم إدراكي أن هذا ليس بالحدث السياسي الهام، وقلة اهتمامي أصلًا بأخبار العائلة الملكية في بريطانيا.

كانت لديَّ دوافع أخرى مهمة لمتابعة هذه الحفلة بالذات، فجلست أمام التلفزيون لما يقرب من ثلاث ساعات، ابتداء من لحظة وصول بعض المشاهير إلى كنيسة «ويستمينستر» الشهيرة، والتي جرى فيها الاحتفال، إلى وصول العروس وهي ممسكة بذراع أبيها، إلى وصول العريس بصحبة أخيه الأصغر (الأمير «هاري»)، ثم مرور الموكب، بعد انتهاء مراسم الزفاف، من الكنيسة إلى قصر «باكينجهام»، وحتى ظهور العروسين وقد أحاط بهما أفراد العائلة المالكة في الشرفة الشهيرة لتحية الجماهير المحتشدة لإلقاء نظرة عليهم، والتلويح لهم بالتهنئة، ثم اختفاء الجميع في داخل القصر وإسدال الستار على النافذة.

كنت قد شاهدت على شاشة التلفزيون، قبل ثلاثين عامًا، حفل زفاف ملكي آخر، بريطاني أيضًا. كان العروسان فيه هما الأمير «تشارلز» ولي العهد، وهو والد العريس الحالي، والأميرة الجميلة «ديانا». وكان الشعب الانجليزي في قمة الفرح والسعادة

بهذا الزواج؛ فالعريس هو ابن الملكة، الذي سيخلفها على الأرجح على العرش، والأميرة «ديانا» كان لها تأثير غريب على الجمهور، لجمالها الأخاذ وجاذبيتها الشخصية. كنا حينئذ لا نزال في الأيام الأولى للعولمة، إذ لم يكن من المألوف في ذلك الوقت أن يجلس مئات الملايين من الناس في مختلف بقاع الأرض لمشاهدة نفس الاحتفال على شاشة التلفزيون. وهو ما حدث لهذا الاحتفال فأضاف سحرًا جديدًا إلى أسباب الجاذبية الأخرى.

كان إدراكي حينئذ أني واحد من مئات الملايين الذين يمرون بنفس التجربة في نفس اللحظة، تجربة جديدة لي كما كان لغيري، ولكني كنت أيضًا أصغر سنًّا من الآن بثلاثين عامًا، ومن ثَم كان احتمال انبهاري بما أراه من مراسم وأبهة ملكية أكبر منه الآن. لم يكن هذا أيضًا حالي وحدي، بل كان حال الجميع؛ إذ كان الجميع أصغر منهم الآن بثلاثين عامًا. كانت الملكة «إليزابيث» في نحو الخمسين وزوجها «دوق إدنبرة» في نحو الستين، وكانت والدة الملكة (أي الملكة الأم وجدة العريس) في نحو الثمانين، وكان من المعروف عنها تعلقها الشديد بالعريس الأمير «تشارلز». فلا عجب إن كانوا في حالة اغتباط وسرور شديدَيْن. وقد شاركهم الشعب البريطاني هذا الاغتباط والسرور.

ثم حدث ما نعرفه جميعًا من أحداث مأساوية، انتهت بمقتل الأميرة «ديانا»، بعد أن انفصلت عن الأمير «تشارلز» بالطلاق، واقتران اسمها بثري مصري قيل إنها تعتزم الزواج منه، بل وترددت إشاعات عن أنها حملت منه، وعن أن الأسرة المالكة البريطانية قد كرهت هذا الأمر لدرجة أدت بالبعض أن يدعي تورط جهاز المخابرات البريطانية في حادث التصادم الذي أودى بحياة الأميرة وصديقها. ثم ترددت بعض الأقوال، التي تأكدت فيما بعد، بأن سبب فشل الزواج كان حبًّا قديمًا بين الأمير «تشارلز» وسيدة متزوجة أدى إلى طلاقها ثم زواجها من الأمير في النهاية.

تردد كل هذا على سمعنا خلال الثلاثين عامًا الماضية، وُلد خلالها أميران جديدان («وليام» و«هاري»)، ووقعا بدورهما في الحب، وها هو أكبرهما يتزوج زواجًا ملكيًّا يشاهده مئات الملايين على شاشات التلفزيون. وها هما العروسان

الجديدان يقفان نفس الوقفة في الشرفة الشهيرة بقصر «باكينجهام»، ويهتف لهما الناس بالتحية والتهنئة، كما هتفوا للأب والأم من قبل. ولكن كل أوجه الشبه هذه ليست إلا ما يبدو على السطح؛ إذ لا بد أن الثلاثين عامًا التي مرت منذ الزفاف الملكي السابق قد تركت آثارًا لا يمكن أن يخفيها تمامًا كل ما نراه على الشاشة من ابتسامات وغيرها من مظاهر السرور.

أخذتُ أنظر إلى وجه بعد آخر لأقارنه بما رأيته منذ ثلاثين عامًا. أهم الوجوه هو بالطبع وجه العروس؛ شابة جميلة لها بعض ملامح الجمال الشرقي، وفيها حيوية طبيعية غير مصطنعة، وتجد من الصعب أن تكتم فرحها ودهشتها إذ ترى على وجوه هذه الأعداد الغفيرة من الناس مظهر حب حقيقي ومشاركتها في الفرح. ليست لها بكل تأكيد تلك الجاذبية الساحرة التي كانت للأميرة «ديانا»، ولكن لماذا ننتظر أن يكون لها ذلك؟ ولماذا المقارنة أصلًا؟ أما العريس، الأمير «وليام»، فقد أدهشني في مشيته وحركاته أنه يفتقد الطابع الملكي الذي نلاحظه بوضوح في حركات أبيه وجده. والعروسان السعيدان يبدوان على أي حال أبعد كثيرًا عن صفات الملوك والأمراء مما كان يبدو على العروسين السابقين، وكأن كل ما يحاطان به من مظاهر الأبهة ومراسم الزفاف الملكي لا يستطيع أن يخفي أنهما أقرب إلى أفراد الشعب العاديين منهما إلى الملوك.

تذكرت ما قرأته عن أسرة العروس فإذا بجدها الأعلى قد بدأ حياته عاملًا في منجم للفحم، ولكن تغير السياسات الاقتصادية وانتشار التعليم سمحا لعروس اليوم بأن تقابل الأمير «وليام» في جامعة «سانت أندروز» حيث جلسا كزميلين يسمعان نفس المحاضرات لعدة سنوات.

أعاد هذا مرة أخرى إلى ذهني فقرة أعود لتذكرها من حين لآخر، كتبها الكاتب الفرنسي الفذ «ألكسي دو توكفيل» في كتابه الشهير في وصف الولايات المتحدة كما رآها في العقد الثالث من القرن التاسع عشر، كتاب «الديمقراطية في أمريكا»[١]، إذ قال:

---

(١) A. de Tocqueville, *Democracy in America*

إذا تأملنا ما حدث في فرنسا ابتداء من القرن الحادي عشر، في مراحل متعاقبة تمتد كل منها نحو نصف قرن، لوجدنا أنه مع نهاية كل مرحلة يكون المجتمع الفرنسي قد خاض ثورتين. فبينما تتدهور منزلة النبلاء على السلم الاجتماعي، ترتفع منزلة العامة والبسطاء على درجات هذا السلم. يهبط أولئك بينما يصعد هؤلاء. فإذا بهما يقترب أحدهما من الآخر مع مرور كل نصف قرن، وقريبًا سوف يتقابلان في نفس النقطة. ليست هذه الظاهرة مقصورة على فرنسا. ذلك أن ما يطرأ من تحولات على الحالة الاجتماعية، قد عمل في كل مكان لصالح تقدم الديمقراطية. وقد ساهم الجميع في الوصول إلى هذه النتيجة، سواء هؤلاء الذين عملوا بوعي للوصول إليها، وأولئك الذين ساعدوا على تحقيقها بدون قصد منهم. لقد دفع الجميع بجهودهم بهذه الظاهرة إلى الوجود: مَن حارب من أجلها ومَن كان عدوًّا لها.

ولكن لماذا تقتصر ملاحظتنا لهذا التغير الذي طرأ على النظام الطبقي، على سلوك العروسين؟ إن من الممكن ملاحظته على بقية الحاضرين، تقريبًا بلا استثناء. الملابس فاخرة طبعًا، والمجوهرات غالية، والقبعات مبهرة، ولكنك تلاحظ أن هذه «الأرستقراطية» الجديدة ليست أرستقراطية على الإطلاق. الجذور شعبية، وإن كان الصعود إلى أعلى واضحًا أيضًا، وإلا فكيف تمت دعوتهم إلى الزفاف الملكي؟ لا بد بالطبع من استثناء عدد قليل من الحاضرين. الملكة «إليزابيث» طبعًا وزوجها «دوق إدنبرة»، جذورهما الأرستقراطية واضحة بلا شك. والأمير «تشارلز» أيضًا، والد العريس، لا زال يتحرك ويتصرف كابن ملكة وكملك محتمل. ولكن حتى زوجته «كاميلا» لا يمكن أن تتظاهر بأنها سليلة ملوك. وهي على أي حال تبدو غريبة عن بقية المدعوين لسبب معروف؛ وهو ما كان من الملكة وزوجها من موقف معادٍ لزواجها من «تشارلز».

بدا الوجوم على وجه الملكة أيضًا وعلى زوجها، إذ لم يظهر فرح حقيقي على وجه الملكة إلا عندما رأت الجماهير الغفيرة وهي تحييها في ابتهاج لا شك فيه. ارتسمت حينئذ ابتسامة صغيرة على وجه الملكة، وكأنها سعيدة بأن الأسرة المالكة استطاعت، في هذه المناسبة على الأقل، أن تجلب سرورًا حقيقيًّا للشعب الإنجليزي.

أما زوج الملكة (جد العريس) فقد بدت على وجهه بوضوح آثار السن المتقدمة، فهو على وشك بلوغ التسعين. ولكن الأهم من تقدمه هو والملكة في السن، في تفسير ما بدا على وجهيهما، هو ما لا بد أن مر بذهنيهما من ذكريات محزنة لا يمكن محوها. هل كان من الممكن أن يتوقعا أن ينتهي زواج ابنهما من تلك العروس الجميلة «ديانا»، الذي جرى منذ ثلاثين عامًا، هذه النهايات المحزنة؟ ثم زواج ابنهما من امرأة مطلقة، وهو ما لم تكن الأسرة المالكة البريطانية لتستسيغه أو تتصوره؟

من الواضح أن عصر التقاليد الملكية البريطانية قد قارب الانتهاء. لا بأس من إقامة هذا الحفل الفخم، أخذًا بخاطر الحفيد العزيز وزوجته الشابة، اللذين لم يعاصرا كل هذه الأحداث إلا كطفلين غريرين، إذ ما ذنبهما حتى يحرَما من زفاف ملكي؟ وما الضرر من أن تنفق بعض الأموال لإدخال بعض السرور على الشعب الإنجليزي؟ أليس الهدف من مؤسسة الملكية كلها خدمة الشعب؟

كلا لا يمكن محو هذه الذكريات، ولا حتى التخفيف من وقعها. يمكن فقط التظاهر بأنها ماضٍ وانتهى، ولا يجب أن يسمح لها بتعكير صفو الأمل في مستقبل سعيد أو على الأقل مستقبل أفضل. وأفضل ما يمكن عمله لضمان إشاعة البهجة، أن يمتلئ الحفل بالأطفال الصغار، بعضهم يشارك في حمل ذيل فستان الأميرة الطويل، وبعضهم يحمل الزهور ليتقدموا موكب العروسين، وبعضهم يظهر في الشرفة الملكية محيطين بالعروسين للاشتراك في تحية الجمهور. هؤلاء الأطفال هم بالطبع أجمل ما في الحفل، والأجمل أنه لا تبدو على وجوههم أي شائبة حزن، أو شبهة طواف أي ذكرى محزنة.

٤

حفلة «أبيجيل»

من أجمل المسرحيات التي شاهدتها، مسرحية تصور تصويرًا بارعًا بعض الجوانب المأساوية في علاقات الناس، بعضهم ببعض، وتحمل عنوان «حفلة أبيجيل»[١] وكتبها مؤلف ومخرج مسرحي وسينمائي موهوب هو «مايك لي»، وقد عرضت لأول مرة على المسرح الإنجليزي في السبعينيات من القرن الماضي، وحققت نجاحًا باهرًا. وهي تذكرني بمسرحيات «تشيكوف» البديعة، وإن كانت أشد قسوة من مسرحيات «تشيكوف» وأكثر صراحة.

المسرحية من فصل واحد، وتدور في حجرة واحدة، هي حجرة الجلوس في بيت زوجين في العقد الرابع من العمر، تزوجا منذ ثلاث سنوات ولم يرزقا بعد بأطفال. الرجل يعمل وكيلًا (أو بائعًا متجولًا) لشركة تأمين، مهمته كسب زبائن جدد بإقناعهم بمزايا التأمين في شركته، وشرح ما يجب عليهم عمله لإتمام التعاقد. ينتمي الرجل وزوجته إلى طبقة متوسطة صاعدة، أو تطمع في الصعود، وفيها كل أوجه ضعف هذه الطبقة، من محاولة التظاهر بأنهم أفضل حالًا مما هم في الحقيقة، والتطلع إلى التميز عن الآخرين عن طريق اكتساب السلع الاستهلاكية التي لا يكف المجتمع عن إنتاج المزيد منها. العقل صغير والتطلعات كثيرة، والتظاهر بغير الحقيقة والانشغال بتوافه الأمور على أشدهما.

يرتفع الستار عن الزوجة «بيفرلي» وهي تضع اللمسات الأخيرة على قطع الأثاث

---

(١) *Abigail's Party*

والمفارش والزهريات في حجرة الجلوس، استعدادًا لاستقبال ثلاثة زوار دُعوا للعشاء: زوجين شابين لم يمضِ على زواجهما أيضًا أكثر من ثلاث سنوات، وسيدة مطلقة أكبر سنًّا. والثلاثة من الجيران، بل إن بيت السيدة المطلقة يقع في مقابل بيت «بيفرلي» وزوجها بالضبط، بحيث تستطيع أن تسمع أصوات الموسيقى الآتية منه، إذ إن ابنتها «أبيجيل» تقيم فيه حفلة لأصدقائها (ومن ثَم اسم المسرحية، على الرغم من أننا لا نرى «أبيجيل» هذه قط ولا أصدقاءها، بل نسمع فقط الموسيقى المنبعثة من حفلتها). قامت «بيفرلي» وزوجها «لورانس» بدعوة هؤلاء الجيران الذين لم يقابلوهم من قبل قط، بسبب قدومهما حديثًا إلى هذا الحي ورغبتهما في إثبات حسن الجوار وروحهما الاجتماعية الطيبة.

«بيفرلي» شخصية منفِّرة، تبعث في النفس على الفور شعورًا بالاحتقار والرثاء. نراها لدقائق قليلة وهي تتحرك وحدها على خشبة المسرح، إذ إن زوجها لم يعد بعد من عمله، ولكن هذه الدقائق القليلة تكفي لرسم شخصيتها بوضوح، فنفهم بالضبط أي نوع من الناس هي. نفهم ذلك أولًا من شكل الفستان الذي ترتديه ولونه، والمساحة التي يكشف عنها من جسمها، ومن السيجارة التي تدخنها، ونوع الموسيقى التي تختارها لتسلي نفسها قبل وصول الضيوف، وكأس الويسكي التي تحملها وهي تدور متفحصة الحجرة. ولكنها تقطب وجهها فجأة بمجرد سماع ما يدل على وصول زوجها «لورانس». يعطيها قبلة لا روح فيها، ولا يبدو عليها هي أيضًا أي سرور بتلقيها، وتبدأ على الفور في تعكير صفوه. تقول له أولًا إنه تأخر أكثر من اللازم بينما الضيوف على وشك الوصول. فإذا وضع حقيبته في مكان تقول له: «لا تضع حقيبتك هنا». ثم تسأله: «هل أحضرت النبيذ؟»، فيظهر أنه نسيه ولكنه سيذهب لإحضاره. لا تمر دقائق قليلة حتى نعرف أن علاقتهما ليست على ما يرام.

يقول «لورانس» إنه يحتاج لإجراء بعض المكالمات التلفونية للاتصال بزبائن مهمين لعمله، فتصيح به إنه يجب أن يغير ملابسه استعدادًا لمجيء الضيوف، ولم يعد هناك وقت لهذه المكالمات. يقول إنها مكالمات ضرورية لعمله، فتقول له إنه سيقتل نفسه بهذه الوظيفة. يسألها: «أين الزيتون، وهو لازم للمشروبات؟»،

فتقول: «إذا أردت زيتونًا فلتذهب لإحضاره». من هذا الحوار القصير، وطريقة مخاطبة كل منهما للآخر، تفهم بالضبط شعور كل منهما إزاء الآخر.

ثم يبدأ الضيوف في الحضور، ابتداء من الشابين الزوجين اللذين لا يبدو أنهما أحسن حالًا. الزوجة «أنجيلا»، التي تعمل ممرضة، يبدو من كلامها أنها ضعيفة الإحساس وقليلة الذكاء. والزوج، «توم»، يبدو عليه البؤس والخجل الشديد. ولكن «بيفرلي» تبدي اهتمامًا زائدًا به، وكأن أي شيء أفضل من لا شيء، فسرعان ما تجد سببًا لأن تقول له إن لهما نفس الذوق، ثم تسأله عن وظيفته، فتجيب زوجته بالنيابة عنه إن وظيفته لها علاقة بالكمبيوتر.

ثم تصل الضيفة الثالثة، السيدة المطلقة، «سو»، وهي سيدة قليلة الحظ من الجمال، تجاوزت الخمسين من العمر، ومتجهمة الوجه على الدوام، وقد أحضرت معها زجاجة نبيذ كهدية. كلهم بؤساء ولكنهم يتظاهرون بالسرور، ويخفون مشاعرهم وأفكارهم الحقيقية بأن يقدم أحدهم للآخر طبقًا من البطاطس أو قطع الجبن، أو يسأل الآخر عما إذا كان يريد كأسًا أخرى من النبيذ. تجيب السيدة المطلقة على سؤال من «بيفرلي» بقولها إنها طلقت منذ ثلاث سنوات، فتجيبها «بيفرلي» بدهشة مصطنعة: «وأنا تزوجت من ثلاث سنوات كذلك، فيا لها من مصادفة!».

في وسط جو عام من البؤس، يعلق أحدهم على طلاق «سو» بأن عدد حالات الطلاق يزداد عامًا بعد عام، ثم يتبادلون أسئلة سخيفة من نوع: «هل تحب القراءة؟»، أو «هل تحبين «شكسبير»؟»، إلخ.

تصل إلى سمعهم أصوات الموسيقى الآتية من حفلة «أبيجيل»، التي أقامتها ابنة السيدة المطلقة، وعمرها ١٥ عامًا، لأصدقائها. وتتظاهر «بيفرلي» بأن الأصوات أعلى من اللازم، وبخوفها من أن يكون قد حدث شيء في الحفلة يستدعي التدخل من جانبهم، فيدور النقاش حول ما إذا كان من الضروري أن يذهب أحدهم إلى بيت «أبيجيل» لتقصي الأمر. وتتطوع «بيفرلي» بالذهاب، لمجرد أنها لا تجد ما تفعله أو للتظاهر بالشهامة، وتعود لتصف لهم ما رأته في الحفلة: «ليس هناك عنف، ولكن فقط غلظة وسوء أخلاق».

كان «لورانس» قد وضع أسطوانة من الموسيقى الكلاسيكية، فتبدي «بيفرلي»

تبرمها منها، وتوقفها وتضع مكانها موسيقى خفيفة حالمة. وتدعو «توم» (الشاب الخجول) للرقص. فينفجر «لورانس» غاضبًا ويقوم بإيقاف الموسيقى بعنف، فإذا بـ«بيفرلي» ببرود تعيد الموسيقى الحالمة من جديد، وينذر جو الحجرة بالشر.

تسأل «بيفرلي» زوجة «توم» («أنجيلا») ضاحكة، عما إذا كانت تمانع في أن تقترض منها زوجها، وتبدأ في مراقصة «توم» محاولة أن تلامس خده دون أي رغبة منه، كما تدعو «بيفرلي» «سو» إلى مراقصة زوجها هي، فترقص «سو» مع «لورانس» بخطوات لا تتفق بتاتًا مع الموسيقى. وأثناء هذا الرقص العبثي تصدر من «بيفرلي» العبارة الآتية: «الجنس مهم جدًّا، ولكنه ليس كل شيء».

سرعان ما يتبين أن الجميع قد شربوا من الخمر أكثر من اللازم، فتضطر «سو» للذهاب إلى الحمام لشعورها بالغثيان، ويتشاجر الجميع مع الجميع، فيتهم «لورانس» زوجته بالجهل والابتذال، فتقول له: «اخرس». وعندما تحاول الممرضة «أنجيلا» التدخل فتقول جملة سخيفة، يصيح فيها زوجها «توم» بعنف، يتعجب المرء من قدرته عليه: «فلتغلقي فمكِ الواسع»، مما يبين بوضوح شعوره نحوها. أثناء ذلك نسمع جزءًا من السيمفونية الخامسة لـ«بيتهوفن» التي أعادها «لورانس» لتحل محل موسيقى «بيفرلي» الراقصة، ولكن «لورانس» يشعر فجأة بأزمة قلبية، وتُظهر «بيفرلي» لأول مرة مظاهر الضعف والخوف، وتظل تردد أنها لم تكن تعني ما توجهه لزوجها من إهانات، ولكنها تعود فتقول: «إنه هو الذي جلب هذا لنفسه، فهو خنزير عنيد». يتجرأ «توم» فيقول لـ«بيفرلي»، وهو ضيف في بيتها: «اخرسي!»، وتردد «سو» نفس الكلمة بحدة غير متوقعة: «اخرسي!»، فترد «بيفرلي» بعنف قائلة إن هذا بيتها وليس من حقهم أن يخاطبوها على هذا النحو.

تحاول «أنجيلا» أن تستخدم معلوماتها كممرضة لإعادة «لورانس» إلى التنفس، بأن تمتد بجسمها فوقه وتنفخ في فمه، بينما يمسك زوجها بشعرها المصفوف في شكل ذيل الحصان، فيبدو المنظر العام كوميديًّا للغاية ومأساويًّا جدًّا في نفس الوقت.

أثناء ذلك تحاول «سو» الاتصال بابنتها تلفونيًّا، وتجد صعوبة بالغة في أن تُسمعها

صوتها في وسط الضوضاء السائدة في حفلة «أبيجيل». ثم سرعان ما يتضح أنه لا فائدة مما تحاول «أنجيلا» عمله، فـ«لورانس» قد فارق الحياة، وتغطي «أنجيلا» وجهه بأحد المفارش، وتحاول المشي فإذا بها تصاب بتصلب في عضلة الساق، ولكن يستمر صوت الموسيقى الصاخبة والمنبعثة من حفلة «أبيجيل»، بينما تستمر والدتها في الصياح: ««أبيجيل».. «أبيجيل».. أنا أمك». ثم ينزل الستار.

٥

«هل قضيت إجازة سعيدة؟»

بقدر ما كان يشغلني موضوع «السعادة» في مطلع شبابي، أصبح يثير لديَّ الشك في شيخوختي، بل وحتى بعض السخرية. لا أدري بالضبط لماذا كنا نحن الأصدقاء من الصبية المراهقين، كثيري التساؤل عن سر السعادة، وكيف الوصول إليها، ونعيد ونزيد بالكلام في الموضوع، دون بالطبع أن نصل إلى أي شيء ذي بال. لا بد أن الأمر له علاقة ببدء اكتشافنا لأنفسنا، واستغراق كل منا في التفكير في نفسه، فضلًا عما ترتبط به سن المراهقة من أسباب غامضة للبؤس والعذاب، دون أن نكون في حالة تسمح لنا بمعرفة الأصل البيولوجي لهذه المشاعر. أما في الشيخوخة، فإني أعرف صعوبة تحقيق هذا الشيء (السعادة)، فضلًا عن صعوبة تحديد طبيعته، حتى أصبحت أحاول أن أتجنب استخدام هذه الكلمة (السعادة)، مثلما أصبحت أحاول أن أتجنب كلمات من نوع «الاشتراكية»، أو حتى كلمة مثل «الذكاء»، حيث أصبحت أدرك أن كلًّا منها يثير معاني متفاوتة تفاوتًا شاسعًا، وأن لكل منها أنواعًا وأصنافًا عديدة يصعب الجمع بينها في كلمة واحدة.

إذ ما الذي يمكن أن تقصده بوصف شخص بأنه «سعيد»؟ هل مجرد الرضا عن النفس يكفي لاستحقاق هذا الوصف؟ أم لا بد أن يكون هناك شعور بالابتهاج أو النشوة أو المرح بالإضافة إلى الرضا عن النفس، أو حتى بدونه؟ هل الخوف من حدوث شيء في المستقبل يلغي الشعور بالسعادة؟ وهل يلغيه أيضًا القلق على شخص عزيز مريض أو حزين أو غائب أو يتعرض لخطر ما؟ هل من الضروري

لوصف شخص بأنه سعيد أن يكون واعيًا ومدركًا أنه سعيد، أم يمكن أن يكون المرء سعيدًا حتى ولو كان مستغرقًا تمامًا فيما يفعله ولا يفكر على الإطلاق فيما إذا كان يشعر أوْ لا يشعر بالسعادة؟ هل الشعور بالسعادة يختلف عما يشعر به المرء أثناء تلذذه بإشباع حاجته إلى الطعام، أو الجنس، أو إلى الراحة بعد مجهود عضلي عنيف، أو بالبرودة في يوم شديد الحرارة، أو بالدفء في يوم شديد البرودة، إلخ؟ وكم يجب أن يدوم هذا الشعور الطيب لكي يوصف صاحبه بأنه سعيد؟ ربما جاز استخدام كلمة السعادة لوصف حالة شخص التقى لتوِّه بشخص عزيز جدًّا عليه بعد غياب طويل، فتستخدم هذه الكلمة لوصف اللحظة أو اللحظات التي يتم فيها اللقاء، ولكن كم يجب أن يستمر هذا الشعور لكي يستحق هذا الشخص بأن يوصف بأنه «شخص سعيد»؟

إن الشعور بالحرمان بسبب الفقر يعكر بلا شك صفو السعادة، وكذلك المرض، وكذلك فراق الشخص لمن يحب، وكذلك الخوف من الفقر أو من المرض أو من الفراق. والكلمة النابية أو التي تتضمن إهانة أو تهديدًا لا بد أن تعكر صفو السعادة، ولو لفترة من الزمن. ولكن فكرة طارئة أو تذكر حادث قديم قد يؤدي إلى نفس النتيجة. والمرء قد يبتئس لشيء حدث له أو لواحد من أهله، ولكنه قد يبتئس أيضًا لحدث سياسي لا يمسه هو شخصيًّا ولا أحدًا من أهله، فهل الابتئاس في الحالين شيء واحد؟ وهل يفقد المرء شعوره بالسعادة لأي من السببين؟

في ضوء هذا كله، ما معنى إذن أن نصف شخصًا بأنه سعيد أو غير سعيد؟ وما الذي يمكن أن نجيب به إذا سألَنا أحد: «هل قضيتم إجازة سعيدة؟»، أو: «هل كان العام الماضي عامًا سعيدًا؟»، وما الذي يمكن أن نعنيه عندما نتمنى لشخص أن يكون العام الجديد «عامًا سعيدًا»، أو لشخص مسافر أن يحظى بـ«رحلة سعيدة»؟

إن شيئًا كهذا هو على الأرجح ما جعل الدكتور «صامويل جونسون»، الحكيم الإنجليزي الشهير، يرد على صديقه «بوزويل» ذلك الرد القاطع والمختصر عندما كانا يمران بمركبتهما في الريف، فشاهدا قصرًا عظيمًا ذا حدائق واسعة غناء، فقال «بوزويل»: «إن سكان هذا القصر العظيم لا بد أن يكونوا سعداء»، فرد عليه

«جونسون» بقوله: «إن الثراء ليس إلا وسيلة للتخلص من واحد من أسباب كثيرة جدًّا للشقاء». وهي إجابة لا بد أيضًا أن تدفعنا إلى التفكير في هذا العدد اللانهائي من الأشياء التي يمكن أن تفقد الشخص سعادته، وفي العدد اللانهائي من الحالات النفسية والمشاعر التي لا يمكن أن تكفي كلمة واحدة «كالسعادة» للتعبير عنها.

ولكن ما دامت الأسباب التي تسبب الابتئاس بهذه الكثرة، فلا مجال للعجب من قلة حالات السعادة التي يصادفها المرء في حياته، سواء فيما يتعلق به هو شخصيًّا، أو بالناس الذين يلتقي بهم وتتاح له فرصة التعرف على حقيقة مشاعرهم. لقد ذكرت الفقر (أو مجرد الشعور بالحرمان حتى في ظل الثراء)، والمرض والفراق والخوف من المستقبل، ولكن هناك أسبابًا أخرى لا نهاية لها تتعلق بعلاقة الناس بعضهم ببعض. فالناس فيما يظهر لديهم قدرة لا نهائية على إفساد فرصة السعادة على الآخرين، سواء بوعي منهم أو بالرغم عنهم. وهذا هو فيما يبدو جزء مهم مما يسمى بـ«الحالة الإنسانية»[1]، وهو تعبير أفهمه بمعنى تلك الصفات اللصيقة بالإنسان بوصفه إنسانًا، ولا يمكن الفرار أو التخلص منها، والقادرة دومًا على أن تكون مصدرًا لعذابه وبؤسه. هذه الحقيقة (أي شيوع أسباب العذاب، وندرة حالات السعادة وقصر أمدها) هي المسؤولة على الأرجح عما نلاحظه من ترحيب كثير من الناس، في كثير من الأحوال، بما يسمعونه من أخبار عن بؤس الآخرين.

* * *

كنت أسمع أمي أحيانًا تصف الشخص الشرِه في الأكل بأن «عينه أوسع من بطنه». ثم مرت الأيام، وعندما بدأت أدرس علم الاقتصاد، كان من أول ما تعلمته فيه، هو العلاقة بين الحاجات الإنسانية والموارد المتاحة لإشباعها، وأن المشكلة الاقتصادية هي بالضبط العلاقة بين الحاجات غير المحدودة والموارد المحدودة. ولكني تبينت مع مرور بعض الوقت أن هذا لا يصلح فقط لتعريف المشكلة الاقتصادية، بل قد يصلح لتعريف «المشكلة الإنسانية» كلها، أو جزء كبير منها، وهو بالضبط ما كانت تعنيه أمي بوصف شخص بأن عينه أكبر من بطنه. كل ما يحتاجه قولها من

---

(١) The human condition

تعديل هو فقط أن نعمِّمه فتقول إن عين الإنسان وطموحاته، هي بصفة عامة أكبر من بطنه ومن قدرته على استيعاب ما يحصل عليه.

هذه الصفة الفظيعة قاصرة فيما يبدو على الإنسان من بين أعضاء المملكة الحيوانية. فنحن لا نرى حيوانًا أو طائرًا يعاني من السمنة المفرطة مثلًا، التي تنتج من تناول طعام يزيد عن حاجته، اللهم إلا إذا كان للإنسان دخل في ذلك. والإنسان هو وحده بالطبع الذي إذا احتفل بزواجه مثلًا، مد الموائد التي يزيد ما عليها من طعام عن حاجة المدعوين، ومع ذلك يهجم المدعوون ليملأوا أطباقهم بأكثر بكثير مما يمكن أن يحتاجوا إليه، بل وأكثر حتى مما يستطيعون التهامه.

ولكن الأمر لا يقتصر بالطبع على الطعام ـ فهو ينطبق على كل ما عداه من حاجات مادية، كالملبس والمسكن، كما ينطبق على رغبات غير مادية كتلك التي تشبعها الكتب مثلًا، ناهيك عن المال بالطبع، الذي يتيح إشباع كل هذه الرغبات جميعًا. فخيال الإنسان يسمح له بتصور قدرة تفوق قدرته الحقيقية على الاستهلاك أو على الاستمتاع بما يستهلكه. فإذا اطمأن إلى إشباع حاجاته الحالية بالغ في تصور حاجاته المستقبلة، وإذا اطمأن إلى ذلك، انتقل إلى المبالغة في حاجات أولاده، وأولاد أولاده، في الحاضر والمستقبل، إلخ.

هذه المبالغة في تخيل ما يحتاجه الإنسان هي بالطبع أحد الأسباب المهمة لفقدان الإنسان للسعادة، ولعدم رضاه عن حاله، ومصدر مهم من مصادر الشعور بالحرمان والغيرة، ومن مصادر القلق والخوف من المستقبل. وهذا النوع من المشاعر كافٍ لإفساد حياة أي شخص، وما أكثر ما صادفته في حياتي وحياة مَن أعرفه من الناس، من أمثلة لكلا النوعين.

قرأت في رواية «فاوست» للشاعر الألماني «جوته»، ما معناه أن الإنسان كثيرًا ما يتصرف تصرفات شبيهة بتصرفات الحيوان، ولكن تملكه للعقل كثيرًا ما يجعل تصرفه أكثر حيوانية. وقد نضيف إلى ذلك أن تملك الإنسان للعقل كثيرًا ما يجعله أكثر ميلًا إلى البؤس من الحيوان.

ليس من السهل تفسير هذا الميل لدى الإنسان للمبالغة في تقييم حاجاته، أي لتقييمها بأكثر من حقيقتها، أو سبب أن عينه كثيرًا «أوسع من بطنه». قد يكون

من أسباب ذلك أن الإنسان كثيرًا ما يبدو وكأنه يرغب في شيء معين لذاته، وتكون الحقيقة أنه يرغب في شيء مختلف تمامًا. (وفي هذا يكمن اختلاف مهم آخر بينه وبين سائر أعضاء المملكة الحيوانية). فرغبة الإنسان في الطعام مثلًا، هي بلا شك رغبة في إشباع حاجته إلى الغذاء، ولكن فقط إلى حد معين، وفيما عدا ذلك فإن الإنسان كثيرًا ما يرغب في الطعام لإشباع حاجة أخرى مختلفة. فالقلق مثلًا، أو الشعور القوي بالوحدة أو الاكتئاب لأي سبب، قد تدفع الإنسان إلى استهلاك أكثر من حاجته إلى الطعام. والأمر أكثر وضوحًا في حالة الرغبة في اقتناء الملابس أو السيارات، فهذه الرغبات كثيرًا ما تكون مدفوعة لا بغرض إشباع حاجة تتصل مباشرة بالمطلوب اقتناؤه، بل بخلق انطباع معين لدى الناس أو كسب رضاهم أو إعجابهم أو إثارة غيرتهم، إلخ. وهذه الرغبات الأخيرة، بعكس الرغبات التي تلبيها هذه السلع مباشرة، كاتقاء البرد في حالة الملابس مثلًا، أو كالانتقال من مكان لآخر في حالة السيارة، لا يكاد أن يكون لها حدود أو نهاية، إذ لا حدود لما يمكن أن يكسبه الإنسان من رضا الناس أو إعجابهم، أو لما يمكن أن يثيره فيهم من غيرة، إلخ. النهم إذن كثيرًا ما لا يكون إلى شيء بعينه، بل قد يكون نهمًا إلى تحقيق هدف بعيد الصلة بهذا الشيء، وقد يكون الدافع إليه ليس حاجة مادية بل نفسية، مما قد لا يكون هناك من وسيلة لإشباعه إشباعًا كاملًا.

قد تنطبق هذه الملاحظة على النهم الذي نطلق عليه اسم «الحب». قرأت معنى كهذا في رواية لكاتب دانماركي («بيتر هوج»)[(١)] يقول فيها:

> إن الوقوع في الحب أمر مبالَغ فيه جدًّا. فالحقيقة أن ٤٥٪ من الوقوع في الحب هو شعور بالخوف من ألا نحظى بالقبول، و٤٥٪ أخرى تشبث جنوني بالأمل في أن يتبدد هذا الخوف في هذه المرة، وليس أكثر من ١٠٪ منه يتكون من وعي غامض باحتمال تحقيق الحب.

ولكن أوضح صورة للنهم الذي يصعب إشباعه هي بالطبع النهم إلى المال، فهو في أغلب الأحوال نهم إلى شيء غامض أو مجرد، ميزته العظمى ولعنته الكبرى

---

(١) Peter Høeg

في نفس الوقت أنه لا ينحصر في إشباع رغبة معينة بالذات. وقد قيل مرة إن النهم الشديد إلى المال إنما يصيب من الناس مَن لا تشتد به الرغبة في أي شيء بعينه. فإذا أحب الشخص بشدة شيئًا بعينه ضعف لديه النهم إلى المال. والظاهر أن قليلين من الناس هم مَن يتمتعون بهذه الصفة، أي الحب الشديد لشيء أو عمل بعينه، فلا عجب أن النهم إلى المال صفة شائعة إلى هذه الدرجة بين الناس.

٦

أجمل الكائنات

كانت أمي قليلة الحظ من التعليم والثقافة، لا صبر لها على كتاب ولا على أي مناقشة في أي موضوع عام، بينما كان أبي كاتبًا كبيرًا، يعشق الكتابة، ولا يكف عن التفكير في الموضوعات العامة. ومع هذا كان يصدر من أمي بين الحين والآخر، ما يدل على رغبتها في أن تسمع منا قولًا يوحي بأنها، على الرغم من كل ثقافة أبي وشهرته، أشد منه ذكاء وأرجح عقلًا. كانت تقول هذا على سبيل المزاح أحيانًا، ولكنها كانت تقوله في أحيان أخرى على سبيل الجد وتتمنى لو صدقناه. كانت تتظاهر أحيانًا بالسخرية (وإن لم تكن تجرؤ على تكرار ذلك كثيرًا) مما حازه أبي من شهرة، فتقول له مثلًا، تعليقًا على مقال له حاز إعجاب القراء أكثر من غيره: «والنبي، أنت لو لم تقل في مقالك إلا ريان يا فجل، لصفق الناس لك». فيضحك أبي ويسكت.

سمعت أبي يقول أكثر من مرة إنه كان من الأفضل لو تزوج من امرأة أضعف شخصية من أمي، وتزوجت هي من رجل أضعف منه، وأن المشكلة أن كلًّا منهما قوي الشخصية، وأن هذا هو السبب في كثرة المنازعات. ولكني رأيت عن قرب زيجات عديدة بين رجال على درجات مختلفة من قوة الشخصية، ونساء قويات وضعيفات، وكثر فيها الشقاق والنزاع فانتهيت إلى أنه لا بد أن يكون هناك أسباب ثابتة لهذا الشقاق والنزاع، وأعمق من مجرد قوة أو ضعف الشخصية.

نحن جميعًا نعرف أن علاقة المرأة بالرجل بالغة التعقيد، وكثير من تعبيراتنا

الدارجة، والتي تتضمن إشارة إلى هذه العلاقة، تؤكد هذه الحقيقة. فما أكثر ما يتندر الرجال مما تجلبه لهم المرأة، أي امرأة، من متاعب، وما أكثر ما يصدر من النساء، في المقابل، من أقوال مماثلة عن الرجال. بل كثيرًا ما يكتفي الرجل بالتعليق على عمل أو تصرف قامت به امرأة بالقول ساخرًا: «يا للنساء!»، بمعنى: «ما الذي يمكن أن ننتظره غير ذلك من امرأة؟!». وما أكثر ما تكتفي النساء بمثل هذا القول تعليقًا على عمل قام به رجل: «ما الذي تنتظرينه غير هذا من الرجال؟!». يقال هذا عادة بنبرة المزاح، ولكنه مزاح لا يقصد به إلا الجد.

* * *

كنت أقرأ منذ شهور قليلة في كتاب عن حياة فيلسوف بريطاني كان من كُتابي المفضلين لسنوات كثيرة في شبابي، هو «أ. ج. أيير»[١]، وقد كتب على الغلاف في وصف موضوع الكتاب إن «أيير» لم يكن فقط فيلسوفًا كبيرًا، ومشتركًا لامعًا في حوارات تلفزيونية، بل كان أيضًا عاشقًا للرقص وبارعًا فيه، ومشهورًا أيضًا بتعدد علاقاته ونزواته النسائية. كتب مؤلف الكتاب أن «أيير» كان بلا أدنى شك «يعرف كيف يحادث النساء»، وتكرر هذا الوصف على لسان زوجة أو عشيقة له بعد أخرى. قلت لنفسي: وهل يتطلب النساء حقًّا نوعًا مختلفًا من الكلام إلى هذه الدرجة؟ أي إلى درجة تتطلب توفر صفات نادرة فيمن يحادثن من الرجال؟ لا بد أن يكون الأمر كذلك، وإلا فلماذا يجتاز عدد قليل من الرجال هذا الامتحان، وتكثر شكوى النساء من رجال لا تتوفر فيهم هذه القدرة؟

تَصادف أن قرأت بعد هذا الكتاب مباشرة كتابًا آخر عن حياة الفيلسوف النمساوي الشهير «لودفيج فتجنشتاين» وعلمت منه أن من بين الكتب التي حازت إعجابه الشديد في مطلع شبابه (وقد كان رجلًا من الصعب جدًّا أن يحصل أي شخص أو أي كتاب على إعجابه) كتابًا يندر أن يذكره أحد الآن ولكنه حاز شهرة واسعة وشعبية كبيرة عند ظهوره باللغة الألمانية في أوائل القرن العشرين، لمؤلف نمساوي («أوتو فاينينجر»)، واسم الكتاب «الجنس والشخصية»[٢].

---

(١) A.J. Ayer

(٢) Otto Weininger, *Sex and Character*

استطعت أن أعثر على ترجمة إنجليزية للكتاب وقرأته، فإذا بي أجد فيه أشياء لا يمكن أن نتصور أن يكتبها أحد الآن، أي في هذه الأيام التي يكاد يحرَّم فيها أي حديث قد يتعارض مع الدعوة إلى معاملة المرأة والرجل نفس المعاملة، ويمتنع فيها أي تلميح بأن المرأة تختلف عن الرجل في أي شيء جوهري، نفسيًّا أو عقليًّا. مثل هذا الكلام يعتبر الآن «غير جائز سياسيًّا»[١]، وهو وصف لا يعني بالضرورة أنه غير صحيح.

يلفت هذا الكتاب النظر إلى أشياء كنت قد لاحظتها من تجاربي الشخصية دون أن أعلق عليها أهمية كبيرة؛ ربما لعدم ثقتي بصحتها، ولتعارضها مع هذا الرأي الشائع الآن بإنكار الفوارق النفسية أو العقلية بين الرجل والمرأة. كنت قد لاحظت مثلًا سرعة شعور المرأة بالملل إذا تطرق الكلام إلى موضوعات مجردة، مع شغفها بالأخبار المحددة عن أشخاص معروفين لها. وكان أبي قد كتب صراحة في كتاب «حياتي» أنه وصل إلى اقتناع بأن «المنطق هو أسخف طريقة للتعامل مع أكثر مَن عرف من النساء»، فإذا بي أجد أن هذا الكاتب النمساوي يذهب إلى حد القول بأن ما يدور في ذهن المرأة ليس من نوع ما نسميه أفكارًا بل هو ما يسميه «هنيد»[٢] أي مزيج يصعب التمييز فيه بين الأفكار والمشاعر. يشير المؤلف أيضًا إلى الاستعداد القوي لدى المرأة للقيام بمهمة الوسيط في تزويج مَن لم يتزوج بعد، كما يتساءل عن السبب في أن المرأة قد تبدع كعازفة، ولكنها من النادر جدًّا أن تبدع كمؤلفة للموسيقى. كما لا بد أن نضيف هذا الميل الثابت لدى المرأة، ربما بدون استثناء، متى تجاوزت سنًّا معينة، إلى إنكار سنها الحقيقية، وإن اختلفت الصور التي يتخذها هذا الإنكار، والاستعداد لبذل جهد فائق لكي تظهر أصغر سنًّا مما هي في الحقيقة، إلخ. وينتهي المؤلف إلى القول بأن علماء النفس يخطئون إذ يحاولون اكتشاف قواعد عامة تحكم مشاعر وسلوك الرجال والنساء معًا، بل الواجب أن يكون هناك علم نفس خاص بالرجال وآخر خاص بالنساء.

* * *

---

(١) Politically incorrect

(٢) Henide

ما أكثر ما رأيت هذا المنظر: امرأة حامل تسير في صحبة زوجها بخطوات بطيئة وقصيرة بسبب ما تحمله من أثقال، وهي تمسك بذراعه كوسيلة لإلقاء بعض ثقلها عليه من ناحية، ولكي تضمن من ناحية أخرى ألا تزيد سرعة سيره عن سرعتها. والرجل يستجيب لهذا التقييد لحركته، راضيًا أحيانًا أو كاتمًا تبرُّمه في أحيان أخرى. ولكن هذا التقييد لحرية الرجل لا يقتصر على هذه الحالة؛ فالمرأة بوجه عام لا تترك رجُلها يذهب بعيدًا دون أن تعرف إلى أين يذهب، ولا تستريح إذا شرد ذهنه حتى تعرف فيمَ يفكر. وهي كثيرًا ما تصر على أن تصاحبه إلى أماكن قد لا يكون لديها أي ميل للذهاب إليها لو كانت بمفردها. هناك فيما يبدو خطر دائم ماثل في ذهنها أو في لاشعورها من أنه «قد يذهب ولا يعود». والمثل الشعبي الذي كانت تقوله أمي لتبرير إنجابها لهذا العدد الكبير من الأطفال، والذي ينصح الزوجة بأن «تقص أجنحة الرجل لكيلا يطير»، هذا المثل تطبقه المرأة، فيما يبدو، باستمرار. فالخوف من أن «يطير الرجل» خوف حقيقي ليس من الصعب الحصول على تفسير بيولوجي له، بصرف النظر عن اختلاف الثقافات والظروف.

هل هذا هو السبب أيضًا في هذا الميل الغريب لدى المرأة إلى التخفيف من غلواء الرجل كلما رأت منه مبالغة في الإعجاب بنفسه؟ هل تشعر المرأة، في هذه الحالات أيضًا، بما قد يهدد «بطيران» الرجل إلى مكان لا تعرفه أو لا تستطيع الوصول إليه، أو إلى امرأة أخرى؟ ما أكثر ما سمعت امرأة تتدخل بجملة أو عبارة ساخرة أو معترضة إذا صدر من رجُلها ما يتضمن الفخر بإنجازاته في أمر من الأمور، أو ما يدل على رضاه الشديد عن نفسه، فإذا هو يضطر إلى التراجع أو التخفيف من غلوائه. والملاحظ أيضًا أن المرأة قد تبدي استعدادًا لقبول هذا الفخر بالنفس والمبالغة فيه، من شخص آخر غريب ولا تبدي هذا الاستعداد إزاء الرجل الذي ترتبط به. وهي قد تبدي هذا القبول إزاء الشخص الذي لم ترتبط به بعد، فتثني على طموحه وتشجعه على المزيد من الاعتداد بنفسه، حتى إذا ارتبطت به بالزواج فتر حماسها، وقد تفعل العكس بالضبط.

* * *

سمعت من سيدة إنجليزية ما لفت نظري إلى حقيقة لم أكن قد التفتُّ إليها من

قبل؛ وهي أن النساء «يعشقن المعلومات». منذ أن سمعت هذه الملاحظة صادفت الكثير من المواقف التي تدل على صحتها. وقد يكون صحيحًا أيضًا أن ميل المرأة إلى الربط بين المعلومات لاستخلاص قاعدة عامة أقل منه عند الرجال، وأن الرجل، بصفة عامة، أسرع إلى الشعور بالسأم من جمع المعلومات التي لا تؤدي إلى تعميم ما، بالمقارنة بالنساء. ولكن المرأة، فيما يبدو، ناقدة ممتازة لأي تعميم يمكن أن يصل إلى سمعها. هناك بالطبع من الرجال (ولا شك من النساء أيضًا) مَن هم على استعداد لاستخلاص نظرية عامة من حالة أو حالتين (وأنا بطبعي أميل إلى الوقوع في هذا الخطأ)، ولكني صادفت من النساء أكثر مما صادفت من الرجال مَن يسرعن بإثارة الشك في أي محاولة للتعميم، مهما كانت مشروعة ومبرَّرة، مما قد يؤدي إلى سقوط مدوٍّ لنظرية واعدة وإن كانت لم تكتمل بعد. إن هذا الميل لدى كثير من النساء أجده مثيرًا للغيظ، وكثيرًا ما يبدو لي وكأنه بدوره محاولة لوضع حجر عثرة في الطريق، لتعطيل الحركة أو تبطئة السير. وقد يكون من أمثلة هذه المحاولات «لتعطيل الحركة» أو «تبطئة السير» ما قد يصدر من الزوجة، إذا رأت من الزوج استغراقًا في حديث عن موضوع يثير حماسه، إذ تلفت نظره إلى بقعة صغيرة رأتها على قميصه أو بدلته، مما يترتب عليه توقفه عن الحديث، وربما نسيانه تمامًا للموضوع الذي كان يتكلم فيه.

* * *

إذا كان كل هذا صحيحًا، فلماذا أجد نفسي في كثير من الأحيان، خلال دعوة إلى العشاء، إذا كان أمامي الاختيار بين الجلوس مع الرجال أو مع النساء، أختار الجلوس مع النساء إذا لم يكن في هذا الاختيار حرج؟ هناك بالطبع التفضيل الطبيعي للجنس الآخر، ولكني أعرف أن هناك أسبابًا إضافية. فما أكثر ما بعثت جلسات الرجال الملل في نفسي لسبب لا يتعلق بأي شيء مما ذكرت. ما أثقل دم الرجل إذا استرسل في الكلام عن نفسه (وهو ما يندر أن يحدث من النساء، على الأقل في حضور الرجال) أو المباهاة كالطاووس بما فعل. وما أشد التنافس بين الرجال وحبهم للظهور والسيطرة، وما أقل حساسيتهم، إذا قورنوا بالنساء، بشعور الجالسين من حولهم، وبما إذا كانوا قد سئموا كلامهم أو لم يسأموا. ثم

ما أكثر ما وجدت الرجال في جلسة اجتماعية، لم يُقصد منها أصلًا إلا الترويح عن النفس أو لقاء أصحاب لم يلتقوا منذ مدة طويلة، يفتحون موضوعات بالغة الجدية من النوع الذي لا يمكن أن تثمر المناقشة فيه، في مثل هذا المجلس، أي نتيجة (كالمفاضلة مثلًا بين عبد الناصر والسادات، أو ما إذا كانت فترة حكم عبد الناصر جيدة أم سيئة)، مع الاختلاف المعروف بين آراء الجالسين ومشاربهم، فإذا بهم يقلبون مناسبة اجتماعية لطيفة إلى جلسة ثقيلة الدم مفرطة في سخافتها. وهم فضلًا عن ذلك يبدون درجة مدهشة من قلة الحساسية بوجود النساء بينهم، ويفترضون أن الجميع، رجالًا ونساءً، لم يأتوا إلا للاستماع إلى محاضرتهم عن مزايا هذا النظام الاجتماعي أو ذاك. وفضلًا عن ندرة الظرفاء فيما بينهم، ما أندر أيضًا ما يصدر منهم من كلمة رقيقة لامرأة، أو أي دليل على وعيهم بوجود بعض النساء بينهم، قد تزينَّ وتجملن فلا يحصلن على كلمة اعتراف واحدة بنجاحهن في هذا التزين والتجمل، ولو لمجرد المجاملة. بل إني أسأل نفسي أحيانًا عما إذا كان قول أبي عن معظم مَن قابلهن من النساء ينطبق أيضًا على معظم الرجال، بحيث يجوز القول بأن المنطق هو أسخف طريقة للتعامل معهم أيضًا!

أعترف إذن بأننا إذا دخلنا دائرة ثقل الدم وضعف الحساسية بمشاعر الآخرين، فإننا نجد فيها من الرجال أكثر بكثير مما نجد من النساء، بل نجد النساء إزاء هذه الظاهرة يبدين درجة كبيرة من الصبر وضبط النفس (إذ ما الذي بأيديهن غير ذلك؟). وأظن أنهن يدركن بالفطرة كيف أن الرجل في نهاية الأمر طفل صغير، ويظل كذلك مهما كبرت سنه وعلا مركزه، يهرع إلى امرأته خائفًا أو بائسًا أو مهزومًا، فتهدئ من روعه، كما تهدئ الأم من روع طفلها الذي واجه من المصاعب ما لم يستطع التصدي له. وترحب المرأة بعودة طفلها المرتاع أو المهزوم إليها، وكأنها إذ تهدئ من روعه، تقوم بتأدية إحدى وظائفها الأساسية في الحياة.

لقد رأيت في حياتي كيف تأخذ هذه الوظيفة عند المرأة أشكالًا متعددة في الظروف المختلفة، وفي الأعمار المختلفة، ولكنها فيما أظن هي هي: وظيفة الأم التي تهيئ العش المناسب لفرخها الصغير، ثم ترعاه حتى يطير إلى الخارج، ثم تستعد لاستقباله كلما عاد. فإذا كبر الولد أو رحل، أو لم يكن هناك ولد أصلًا،

انتقلت نفس المشاعر إلى الزوج، فإذا غاب الزوج أو رحل، انتقلت المشاعر إلى غيره. وأظن أن التعبير المصري الشائع الذي يصف بعض الناس في بعض الظروف بأنهم مثل «أم العروسة، فاضية ومشغولة»، له تطبيقات أكثر بكثير مما نظن. فما أكثر ما رأيت من نساء يتصرفن بالضبط مثل «أم العروسة»، دون أن يكون هناك أي حفل للزواج أو غيره. فهذا الانشغال المستمر والمبالغ فيه بتجهيز الطعام، أو ترتيب المنزل، أو ملء الحقائب استعدادًا للسفر، إلخ، ليس فيما يبدو لي أكثر من مظهر من مظاهر هذا النزوع المتأصل لدى المرأة لتهيئة العش المناسب لصغارها، وهو طبعًا استعداد مفيد للغاية، ولكنه كثيرًا ما يزيد عن الحد، ويخلق من المتاعب والمنغصات ما لا لزوم له للرجل والمرأة على السواء.

* * *

لم تكن لدى أمي حصيلة كبيرة من القصص والحواديت التي ترويها ثم تعيد روايتها لنا مثلما أسمع عن كثير من الأمهات والجدات من جيلها، ولكني أتذكر القصة البسيطة التالية التي سمعتها منها أكثر من مرة. القصة (طبقًا لما تحفظه ذاكرتي) أن زوجين اكتشفا وجود فأر صغير مختبئ في بيتهما، وقررا ضرورة التخلص منه. نجح الزوج في اقتناصه وأخذ يضربه بعصا حديدية حتى مات. وشعر الزوج بالفخر إذ نجح في قتل الفأر، ولكن زوجته لم تجد فيما قام به شيئًا يستحق الافتخار، وقالت بسخرية: «فأر قتل فأرًا»! تسببت هذه العبارة في أن الرجل قام بتطليقها على الفور. وذهبت الزوجة إلى بيت أبيها وحكت القصة فوبختها أمها على فعلتها، وأفهمتها طريقة التعامل الصحيحة مع الزوج. ثم ذهبت الأم إلى الزوج للاعتذار له بالنيابة عن ابنتها فقبل الزوج استعادتها. ثم تكرر الحادث إذ قام الزوج مرة أخرى بقتل فأر آخر صغير، فإذا بالزوجة تشيد هذه المرة بشجاعته ومهارته ووصفت ما حدث بأن «سبعًا قتل سبعًا»، فانتفخت أوداج الزوج فخرًا، وأغدق عليها بالثناء والهدايا.

لا أدري من أين سمعت أمي هذه القصة، ولكن من المؤكد، كما يظهر من تكرار روايتها لها، حتى حفظتها أنا، ومن طريقة إلقائها لها، أنها كانت تجدها قصة طريفة للغاية، ومقتنعة بصحة المغزى الذي يستنتج منها. الرجل طفل صغير وشديد

الغرور، كما أن من السهل خداعه عن طريق إرضاء غروره، والمرأة الذكية هي التي تعامله على هذا الأساس.

* * *

قرأت في ترجمة مشهورة لحياة الأديب الألماني «جوته» وصفًا لواحدة من النساء اللاتي وقع «جوته» في حبهن، فقال إنها كانت تعطي لنفسها الحق في أن تتصرف كطفل، ولكنها كانت ترفض رفضًا باتًّا أن تعامَل كما لو كانت طفلة. وما أكثر ما سببه هذا لـ«جوته» من إرهاق!

هل من بين أسباب هذا الإرهاق أو التصرف كطفل، ما لاحظته على كثير من النساء من كراهيتهن لاتخاذ قرارات تترتب عليها مسؤوليات، مع استعدادهن مع ذلك، بكل سهولة، لتوجيه اللوم إلى الرجل إذا ظهر أنه اتخذ قرارًا خاطئًا؟ الزوجة لا تحب أن يقيد زوجها حريتها في الإنفاق، ولكنها تكره أن تشترك في وضع ميزانية تبين بنود الإيرادات وبنود الإنفاق المتوقعة. بل يبدو وكأن المرأة تشعر دائمًا بأن الرجل يفرض عليها قيودًا تود لو تتحرر منها. نعم المرأة كثيرًا ما تبدو وكأنها تستعذب الخضوع لإرادة الرجل، وكأن كل ما تتمناه أن تحوز رضاه وحبه، يظهر هذا في العلاقات الغرامية كما يظهر في علاقة السكرتيرة برئيسها في مكان العمل. ولكن المرأة تبدو أيضًا في كثير من الأحيان وكأنها تضمر تمردًا دفينًا وعميقًا جدًّا ضد هذه السيطرة.

كل هذه الملاحظات وأمثالها كانت دائمًا تقوي اعتقادي بأن الأساس البيولوجي للفروق النفسية والعقلية بين الرجل والمرأة أقوى بكثير من أي عامل يتعلق باختلاف الظروف الاجتماعية أو الاقتصادية، أو بنوع التربية. ولهذا السبب لم أشعر قط بتعاطف قوي مع الحركات النسوية، خاصة عندما يزعم بعض ممثلي هذه الحركات بأن الأمر كله يمكن «تصحيحه» بتغيير هذه الظروف. العدل مطلوب دائمًا بالطبع، والقهر مرفوض دائمًا، ولكن المساواة ليست شيئًا محمودًا بالضرورة.

* * *

من بين ما لجأت إليه الحركات النسوية في نشاطها من أجل تحرير المرأة من قهر الرجال، محاولة التقليل من أهمية العلاقة الجنسية وأثرها في العلاقات الاجتماعية،

وكأن فرصة المرأة في التحرر من قهر الرجل لها تزيد بزيادة تحررها من علاقتها بالرجل أصلًا. إن هذه الحركات تميل إلى تفضيل ارتداء المرأة لبعض أنواع الملابس على غيرها، وتجنب كل ما يبرز أنوثتها، وإلى إثبات قدرة المرأة على القيام بنفس الكفاءة بنفس الأعمال التي يقوم بها الرجل. ولكن بعضها يحاول أيضًا إثبات قدرة المرأة على الاستغناء عن العلاقة الزوجية، وعلى العيش بمفردها، وعلى تربية ما قد تلده من أطفال، بمفردها أيضًا، إلخ. إني أعتقد أن من الأسباب المهمة لانتشار هذا الاتجاه، ملاءمته لتطور النظام الرأسمالي ونظام السوق، لما يخلقه هذا الاتجاه من فرص جديدة للربح. ولكننا لا نحتاج إلى العديد من الأمثلة للاعتراف بأن التطور التكنولوجي والاقتصادي قد يتخذ مسارًا مضادًّا للطبيعة الإنسانية، وأظن أن هذا الاتجاه الذي تتبناه كثير من الحركات النسوية هو من بين هذه الأمثلة. مما يؤيد هذا ما نراه من أن كل ما أحرزته المرأة من تحرر، مع تطور الحضارة الغربية الحديثة، لم يُضعف قيد أنملة من الانشغال بالجنس وسطوته على مختلف جوانب الحياة. فبينما كان يُظن أن الاعتراف بحرية ممارسة الجنس خارج نطاق الزواج، وابتداء من سن مبكرة، سوف يؤدي إلى زيادة الاهتمام بأشياء أخرى على حساب الاهتمام بالجنس، حدث ما يبدو أنه العكس تمامًا، فزادت سطوة الجنس في الإعلان عن السلع، واستمرت سطوته على مختلف أنواع الإنتاج الأدبي والفني.

إن من المدهش حقًّا تلك المساحة المذهلة التي احتلتها دائمًا العلاقة بين الجنسين في القصة والرواية والشعر والمسرح والأفلام السينمائية والرقص والغناء والفنون التشكيلية، كما يتضح من أي نظرة سريعة إلى موضوعات مختلف الأعمال الفنية والأدبية في العصور والمجتمعات المختلفة. إننا الآن نميز في الأعمال الفنية والأدبية، بين ما نسميه أعمال «الإثارة الجنسية» والأعمال «الفنية» التي لا تتعمد هذه الإثارة. ولكننا لا نحب الاعتراف بأنه، كما أن الأعمال التي تتعمد الإثارة الجنسية لذاتها قد تحتوي على بعض سمات فنية، تحتوي الأعمال «الفنية» هي أيضًا على بعض الإثارة الجنسية.

إن معظم أفلام «هوليوود» التي حازت أكبر قدر من الشهرة في الأربعينيات والخمسينيات من القرن العشرين، كانت أفلامًا ميلودرامية لا بد أن تحتوي، أيًّا كان

موضوعها، على علاقة غرام بين البطل والبطلة، ولا بد أن يحتوي الفيلم على قبلة أو قبلتين، على أن ينتهي الفيلم في معظم الأحوال بالزواج، أو بالإيحاء بأن حب البطل والبطلة قد كُلل بالنجاح. قد تكون فكرة الفيلم عميقة وجديدة (وإن كان هذا نادرًا)، وقد تكون القصة مؤثرة ومحبوكة، وتسلسل الأحداث منطقيًّا والحوار مقنعًا، ولكن كان من الضروري في جميع الأحوال أن تكون البطلة جميلة وجذابة، والبطل وسيمًا وجذابًا أيضًا، وكان هذا وذاك يعتبران شرطين أهم بكثير من مدى براعة كل منهما في التمثيل. قد تكون جودة التمثيل عنصرًا مساعدًا ولكنها لم تكن عنصرًا أساسيًّا، مثل الجمال والجاذبية. فهل اختفى هذا العنصر تمامًا من الأفلام التي تنتج الآن، مهما كان الفيلم السينمائي هادفًا إلى شيء آخر؟ أم أنه يجب الاعتراف بوجود هذا العنصر في الغالبية العظمى مما تنتجه الآن كافة الثقافات، من مختلف الفنون؟

٧
مسألة حياة أو موت

مع تقدمي في السن، كان لا بد أن تتتابع على سمعي أخبار الموت، على فترات تزداد قصرًا، حتى أصبح من الممكن أن يصلني منها خبران في نفس الأسبوع، أو في يومين متتاليين. إني أقصد بالطبع أخبار موت أشخاص أعرفهم معرفة جيدة، من الأقارب أو الأصدقاء، أو من أصحاب الأسماء المشهورة الذين أثروا فيَّ، بشكل أو آخر، عبر فترة طويلة من حياتي.

كنت أظن أن تزايد أخبار الموت على هذا النحو سوف يجعل تأثري بالخبر أقل مما كان في الماضي، عندما كانت هذه الأخبار نادرة، فإذا بي أجد العكس. أعتقد أن خوفي من الموت يضعف مع تقدمي في السن، ولكن الحزن لسماع أخباره يزيد ولا يضعف، ولديَّ أمثلة كثيرة تدل على ذلك.

ربما كان أول خبر بلغني عن الموت كان عن موت خالي وأنا في السابعة أو الثامنة من عمري، تلاه موت خالتي بعد ذلك بأربع أو خمس سنوات. أذكر أن الخبرين لم يتركا في نفسي أثرًا كبيرًا، ولا بقي هذا الأثر طويلًا. كنت حينئذ، كما لا بد أن يكون حال الأطفال جميعًا، أكوِّن رأيي في خبر الموت وفقًا لما أراه من وقع الخبر على مَن حولي. ولكن الأهم من ذلك، فيما أظن، أن حادثة الموت، في السن الصغيرة، تبدو أمرًا غير طبيعي بالمرة، يتعارض بشدة مع ما للسن الصغيرة من حيوية، وقوة الرغبات والطموحات، وانشغال طبيعي بعلاقات الطفل أو الصبي مع أقرانه.

لا بد إذن أن أعترف بأن خبر وفاة أبي، وأنا في التاسعة عشرة من عمري، كان

له وقع أخف بكثير مما يُتوقع لوفاة الأب، بل ويكاد أن يكون أخف من وقعه عليَّ الآن كلما استعدته في ذهني. إني أحزن لغياب أبي كلما تذكرته في السنوات الأخيرة أكثر مما حزنت له من قبل، وأظن أن هذا صحيح أيضًا فيما يتعلق بخبر وفاة أمي الذي جاءني وأنا في قمة حيويتي وطموحي في أوائل عهدي بالبعثة في إنجلترا.

* * *

لا زلت أحتفظ بخطاب أخي حسين الذي أرسله إليَّ من كندا في ٣ فبراير ١٩٦٠، أي بعد وفاة والدتي بثمانية أشهر، وكنت قد كتبت إليه من إنجلترا أطلب منه أن يصف لي ما حدث بالضبط، وفيما يلي جزء من خطابه البديع:

> تسألني عن الأيام الأخيرة لوالدتي. أحب أولًا أن أذكر لك أنها حتى يوم ٤ مايو (١٩٥٩)، أي قبل وفاتها بثمانية عشر يومًا، كانت بالضبط كما عهدتها أنت دائمًا: لا محتفظة بوعيها فحسب، بل ومرحة كثيرة الضحك.. ثم أصابها عشية شم النسيم نفس المرض الذي كان يصيبها في صيف كل عام، بل وعلى درجة أقل بحيث لم يكن هناك ما يثير القلق إطلاقًا، خاصة وأنها كانت تجلس في الصالة كالمعتاد. ثم نصحها حمادة (أخي الأكبر محمد) يوم ٩ مايو أن تقضي أسبوعًا أو أسبوعين في مستشفى العجوزة حيث الجو أكثر تهيؤًا لإعطائها الأدوية في المواعيد المحددة، فعارضت والدتي في بادئ الأمر، شأنها دائمًا، ثم قبلت.
>
> كان الأسبوع الأول من الأسبوعين اللذين قضتهما في المستشفى عاديًّا: فاطمة (أختي) تزورها في الصباح الباكر لتأتيها بزجاجة من عصير البرتقال، وتأخذ منها ما خلعته من ملابس لتغسلها في البيت، ثم تأتي نعيمة (أختي الأخرى) فتقضي معها بقية الصباح، حتى إذا ما حانت الساعة الثانية جاءها حمادة وأمين وحافظ (إخوتي) وأنا، قادمين من العمل. كانت تبدو وقتئذٍ أشد اهتمامًا بأحوال حافظ (الذي كان مطلقًا حديثًا) وأحوالي في البيت منها بمرضها: تسألنا أين نأكل، ومَن يغسل ملابسنا، وهل البيت «بقى وحش» من غيرها؟ وطلبت منا أن نرسل لها أم سيد التي أوصتها بأن تطبخ لنا واعدة إياها بجُنيهَين حين خروجها، «ولا تلوصوا أبدًا»، هكذا كانت تردد. كانت تضحك كلما أغظتها برفع السرير عند الرأس وخفضه بإدارة اليد الملحقة به، وتدعو لزينب ومنى (بنتَي أختي فاطمة)، حين كانتا تجلسان إلى حافتَي

سريرها لإطعامها بأيديهما، وقد نشرتا روح الشباب والمرح في الغرفة صائحتين: «لازم تاكلي دي يا ستي. دي بس».
ثم فجأة تغير الحال، دون أي سبب ظاهر. فجأة لم تعد معدتها تقبل لقمة واحدة. كلما أكلت ملء ملعقة من طعام استفرغتها. وإذ استمرت هذه الحالة ثلاثة أيام بدأوا يعطونها حقنة الجلوكوز. وكان حمادة يحضر لها كل يوم صحنين من «الجيلي» يطعمها إياهما بنفسه. والواقع يا جلال أن حمادة وفاطمة قد خدما والدتي أثناء تلك الفترة خدمة لا ينبغي أن ننساها لهما ما حيينا: حمادة عن حب عميق، وفاطمة عن اعتقاد جازم بأن كل ما ستؤديه لوالدتي ستؤديه لها كل من زينب ومنى في مستقبل أيامها (ولا أدري أي العاطفتين أحكم).
الغريب في الأيام الأخيرة هذه، لا ما أدى إليه انعدام شهيتها من ضعف جسماني متزايد، ولا ثقل لسانها الذي قلل من حديثها، وإنما الغريب ما نتج عن إحساسها حينئذ باقتراب الموت (أو على الأقل باحتمال حدوثه) من تغيُّر لا يكاد يصدق في نظرتها إلى الناس والأمور. كانت هناك، راقدة في سريرها، وجهها وعيناها إلى السقف في نظرة جامدة، لا تعبأ بما يدور حولها من حديث. أحاول إضحاكها بشتى الطرق فلا تضحك، ويسألها كل قادم عن صحتها فتجيب في برود أنها «كويِّسة». لا تشكو، لا تطلب شيئًا ولا كوبة ماء، ولا تبدي اهتمامًا بشيء، حتى ولا بعلي (ابن أخي عبد الحميد) الذي جاء به أبوه إليها لأول مرة في الليلة السابقة لوفاتها. كنا نتساءل عما إذا كانت تعي شيئًا، وكان البعض في شك من ذلك، غير أني لا أعتقد أنها فقدت الوعي إلا في منتصف ليلة ٢٢ مايو (يوم وفاتها). كنت معها بمفردها يوم ٢٠ مايو، في المساء، أحاول التسرية عنها تارة بالحديث عن زواج أحمد (أخي الذي كان في ألمانيا)، وتارة بأن أقرأ لها بطاقة التهنئة بعيد ميلادي التي أرسلتها أنت من لندن. وأحاول أن أضاحكها بصدد تهنئتك لها بولادتي. قالت مقاطعة:
ـ سلِّم لي على جلال يا حسين.
ـ تحبي تملِّيني جواب نبعته له؟
لم تجب، ثم تمتمت بعد لحظة:
ـ أنا قلقانة يا حسين.. أنا قلقانة قوي.
وعندما سألتها عن سبب قلقها لم تجب، وإن اختلج وجهها بقوة. وبعد لحظات هدأت والتفتت قائلة:

ـ روَّح أنت يا خويا.
كان هذا الحديث القصير أحد مرتين اثنتين في خلال الأيام الأخيرة من حياتها تبدي فيهما إدراكًا لشؤوننا. المرة الأخرى هي في المساء السابق لوفاتها حين يئست العائلة الملتفة حولها من إشراكها في الحديث. فبدأنا نتحدث فيما بيننا حتى أدى بنا الكلام إلى أمر يتعلق بحافظ. حينئذ بدرت من والدتي بادرة تشير إلى أنها تود أن تقول شيئًا، فسارعنا جميعًا إلى الصمت نصغي بشغف. قالت:
ـ حافظ غلبان.. اتعذِّب كتير.
وكانت هذه هي آخر ما سمعت أنا من كلمات والدتي.
في تلك الليلة زارها الدكتور جعفر. وبعد أن كشف عليها طلب لها أوكسجين، ثم سأل حافظ أن يبيت معها الليلة لأن حالتها «مش كويسة».
في الساعة الخامسة صباحًا توجهت إلى المستشفى لأحل مكان حافظ إلى جوارها. كانت وقتئذ في غيبوبة تامة. شهيقها وزفيرها مرتفعان ارتفاعًا مذهلًا، تحس وأنت تستمع إليهما أنهما «اصطناعيان»، وكأنهما صادران عن جهاز وُضع داخل إنسان آلي، وتحس أنهما لا يمكن أن يستمرا طويلًا. كانت الممرضات يتجنبن المرور بالغرفة، وقد أغلقن الأبواب طول الصباح على المرضى في الغرف المجاورة. لم يكن هناك ثمة أمل. حتى الطبيب لم ير داعيًا للحضور. وأسرعت نعيمة إلى خارج الحجرة متخبطة، تكتم البكاء بمنديل إلى فمها، حتى إذا ما صارت خارجها تركت لنحيبها العنان. ووصل حمادة، فأمين. أما حافظ فلم يعلم بوفاتها إلا بعد أن عدنا جميعًا إلى البيت.
لا أدري ما إذا كان قد حدثك أحد عن الجنازة أو المكان الذي دُفنت فيه. فأما الجنازة فكانت من أكبر ما عرفته القاهرة من جنازات وأفخمها. معظم الحاضرين فيها قد جاءوا لتعزية حمادة وعبد العزيز (زوج أختي فاطمة). وقد حضرها من أصدقائك أمين يسري، وحسن القلعاوي، ومختار، وشكري فؤاد، وبهجت علام. أما مكان الدفن فمدفن عائلة بركات في أجمل بقعة يمكنك أن تختارها لوالدتي: تُظل قبرها شجرة مشمش وشجرة مانجو، ولا يفسد علينا حلاوة التأمل والتذكر سوى سماجة الشحاذين.

* * *

كان هذا منذ أكثر من خمسين عامًا، مررت أنا خلالها بأحداث كثيرة، رفع بعضها

من مستوى آمالي وخيب غيرها بعض هذه الآمال، وأدى بي هذا كله إلى فهم أعمق لحقيقة الموت. استطعت مثلًا أن أتعاطف بشدة مع جملة قرأتها في رواية الطيب صالح الأثيرة لديَّ «موسم الهجرة إلى الشمال» وتقول إن كلًّا منا يرحل وحيدًا في نهاية الأمر. وكنت أعود من حين لآخر لتذكر كلمة قالها نجيب محفوظ مؤداها أنه لا يستطيع أن يقرر ما إذا كانت الحياة هي الأصل أم الموت.

* * *

ثم جاء مرض أخي حسين منذ سبع سنوات. كان حسين طوال حياته قليل الثقة بالأطباء. وأذكر أنه عندما رأى واحدًا بعد الآخر من إخوته يصاب بضعف البصر، ويبدأ في استخدام نظارة، قال إنه سيتبع رأي الكاتب الإنجليزي «ألدوس هكسلي» في رفض استخدام نظارة، لاعتقاده أن باستطاعته تقوية نظره بالمران، وأن استخدام نظارة عند ضعف البصر يزيد البصر ضعفًا. لا أذكر أني رأيت حسين بنظارة قط، ولكني أعرف أيضًا أنه كان ينتمي إلى ذلك الفريق من الإخوة الذي ورث قوة النظر من الأم، بينما ورث الفريق الآخر ضعف النظر من أبي.

كان يعجبني تشبيه حسين لجسم الإنسان، وهو بصدد التعبير عن عدائه للأطباء، بقوله إن تعريض الجسم لأيدي الأطباء، يعبثون به كما يشاءون، مثل تعريض موتور السيارة للعبث بأيدي الميكانيكيين بورش السيارات. كان يقول إن الجسم الذي لم يتعرض لعبث الأطباء قط مثل السيارة التي لم تذهب قط لورشة إصلاح. ألا ترى أن بائعي السيارات عندما يريدون الثناء على سيارة مستعملة، يصفونها بأنها تباع «بحالتها»، أي كما تسلمها مشتريها دون أن تتعرض لأي إصلاح؟

أذكر أنه عندما زرته في مرض ألَمَّ بساقه بعد أن تجاوز السبعين من عمره، وأحاطت به زوجته وإحدى بناته وخادمة مخلصة، وألحوا جميعًا عليه بالذهاب إلى المستشفى لإجراء بعض الفحوصات، رفض رفضًا باتًّا إلى درجة الغضب. نجح حسين في النجاة بنفسه في تلك المرة، ولكني فوجئت بعد شهور قليلة بأنه ذهب بالفعل إلى المستشفى مستسلمًا، وأنه قبِل أن تجرى عملية جراحية في ساقه. فهمت من زوجته أن آلام ساقه زادت عن الحد مما لم يترك له وسيلة للمقاومة، ولكني لا بد أن أقول أيضًا إني كنت قد لاحظت في زياراتي له طوال العام أو العامين

السابقين، وحتى قبل إصابته بهذا المرض، أنه كان قليل الكلام، وضعف حماسه المعهود في إثارة موضوع جديد يستهويه. ولا أدري حتى الآن ما إذا كان الضعف الذي أصاب إقباله على الحديث له علاقة بما حدث له بعد العملية.

ذلك أن حسين خرج من العملية شخصًا مختلفًا تمامًا. وكان الأمر محزنًا للغاية. ظننا في البداية أن تأثير المخدر الذي استخدم في العملية الجراحية لا زال مستمرًّا ولكنه سيزول مع الوقت. هذا ما قاله الطبيب الذي أجرى العملية، ولكن لم يحدث تحسن، بل تدهور الأمر ثم ثبت عند الحالة التي ظل عليها حسين طوال الست سنوات الأخيرة من حياته.

كيف يمكن أن أصف هذه الحالة؟ سكوت شبه مطلق، لا يقطعه إلا طلبه ممن بجواره طلبًا يتعلق بحاجة جسدية: كالأكل أو الشرب أو الذهاب إلى الحمام. تذهب لزيارته فيقابلك مقابلة مشجِّعة: وجه بشوش وصوت قوي، ويرد على تحيتك الرد الملائم بما في ذلك مخاطبتك باسمك. إنه إذن يعرف من أنت، ولا يخطئ فيخاطب أحدًا من أفراد الأسرة بغير اسمه، ولكن هذا هو تقريبًا كل شيء. لا يعرف شيئًا من أخبارك (مهما كانت مهمة ومعروفة للجميع)، ولا يهمه أن يعرف. لا يدرك أن ثورة قامت في مصر، ولا يبدو عليه أي اهتمام بما إذا كانت قد قامت أو لم تقم، فإذا داعبته بالتعبير عن استغرابك لذلك، ابتسم وظهر على وجهه بعض الدهشة، ولكنك لا تعرف ما موضوع دهشته بالضبط: هل هو عدم درايته بحادث مهم، أم استغرابك من عدم درايته، أم شيء آخر تمامًا؟

اكتشفت بعد قليل أن ذاكرته فيما يتعلق بالأحداث القديمة أفضل بكثير من تذكره للأحداث القريبة، وأن من الممكن أن أطلب منه أن يكمل بيتًا أو جزءًا من قصيدة للمتنبي، فيكمله مع بعض التردد والبطء، أو أن يكمل حكاية من حكايات العائلة القديمة، فيفعل ذلك أيضًا، ولكن دون أن يبدو عليه أي انفعال من أي نوع بتذكره أو تذكيره بهذه الحكاية. تسأله سؤالًا بسيطًا جدًّا عن إحدى بناته، أو عما فعله في الصباح، أو عما تناوله في الغداء، فينظر إلى زوجته طالبًا منها المعونة، بل طالبًا منها أن تقوم هي بالإجابة.

كان خلال السنوات السابقة على هذا المرض، كثيرًا ما يطلبني في التلفون فنتحدث

حديثًا طويلًا لكثرة ما بيننا من اهتمامات مشتركة. يعرف أخبارًا جديدة تهمني معرفتها، وأعرف أنا أيضًا ما يهمه معرفته، فنتبادل الأخبار والتعليقات، فإذا بهذا الأمر ينتهي تمامًا. لا يطلبني في التلفون قط، وإنما أطلبه من حين لآخر فلا أظفر منه بشيء، مهما حاولت إثارة موضوع قديم أو حديث. ومن ثَم تنتهي المكالمة دون حماس من جانبه لبدئها أو إنهائها، ومقترنة دائمًا بشعور شديد بالحزن من جانبي.

كان الأمر يبدو لي مأساويًّا للغاية. إذ ما الذي بقي من حسين لي أو لغيري؟ وكيف تمضي الأيام منذ أن بدأ هذا المرض، وكيف نستمر في التعامل معه، وكأنه لم يحدث شيء خطير، ما دام لا يزال يأكل ويشرب وينام ويتحرك؟ هل الوفاة فقط هي الحادث المأساوي؟ فما هو بالضبط الذي يميز الشخص الحي عن الميت؟

كان يدهشني تعليق بعض أفراد أسرتي عن حالته. أحدهم يقول: «إنه يبدو أحسن اليوم»، وأخرى تقول: «المهم أنه لا يشعر بالألم». ويقول صديق مشترك: «إنه على الأقل لا يتدهور». ويقول آخر: «أهم شيء أنه لا زال يعرف الأشخاص المحيطين به ولا يخطئ فينادي أحدهم باسم شخص آخر». قد يكون كل هذا صحيحًا، ولكن أين هو حسين بالضبط؟ وما هو الشيء الذي لم يكن قد حدث بعد، ولكنه إذا حدث يصبح من الممكن أن أقول إني فقدت أخًا آخر من إخوتي؟

قبل أن يتم حسين عامه الثاني والثمانين، اجتمعتْ عليه بعض العلل الجسمانية أودت به بعد أن قضى نحو شهر ونصف شهر في غرفة العناية المركزة بأحد مستشفيات القاهرة. كنت أزوره كل يوم تقريبًا، فإذا رآني ابتسم ابتسامة شاحبة، فأعرف أنه سُر بمجيئي، فإذا جلست إلى جانبه، أطبق بيده بقوة على يدي طوال الجلسة، وكأنه يخاف أن أذهب، وقبض بيده الأخرى على يد زوجته التي تجلس في الناحية الأخرى من السرير، وكان يقرِّب يدها من فمه، بين حين وآخر، ليُقبلها.

بوفاته فقدت آخر أشقائي السبعة، وكنت في السنوات الأخيرة، حتى وهو في تلك الحالة الذهنية المحزنة، أتمسك به كما يتمسك الغريق بآخر طوق للنجاة يمكن أن يتعلق به. فلما انتُزع هذا الطوق مني كان حزني عليه أشد من حزني على أي من أشقائي الآخرين.

* * *

كنت في زياراتي الكثيرة لإنجلترا، كلما وجدت مسرحية لـ«تشيكوف» تمثل على المسرح، ذهبت لرؤيتها، مهما كان عدد مرات مشاهدتي لها من قبل، وكنت أحب على الأخص مسرحية «بستان الكرز». كانت تنتهي بنهاية محزنة، ولكن الحزن عند «تشيكوف» يختلط دائمًا بما يثير السخرية أو حتى الضحك.

قصة «بستان الكرز»، كما يعرف كثيرون، هي قصة امرأة ثرية ورثت بيتًا جميلًا يحيط به بستان رائع هو بستان الكرز. والبيت والبستان يحملان لها ولابنتها وشقيقها ذكريات عزيزة، لطول عهدهم بالعيش في هذا البيت، فلم يكن أي منهم يتصور فَقْد البيت أو البستان بأي صورة من الصور. كانت الأم والبنت قد عادتا لتوِّهما إلى موسكو بعد غياب طويل في فرنسا، فراحت كل منهما تتأمل البيت وأثاثه قطعة بقطعة، وتتذكر كل ما ارتبطت به كل قطعة منه من ذكريات عزيزة. وكذلك كان لقاؤهما بالخادم العجوز الذي خدمهما طوال العمر، وها هو الآن يستقبلهما متوكئًا على عصاه، وقد شاخ وهرم، فتقول له الأم بعطف إنها سعيدة بأن تجده لا زال على قيد الحياة!

يُظهر الخادم العجوز عواطفه القوية نحو أفراد الأسرة، ويظهر من سلوكه إزاءهم أنه اعتاد، كما اعتادوا هم منه، أن يحنو عليهم مثلما كان وهم أطفال، فيُصر على أن يرتدي شقيق صاحب البيت المعطف توقيًا للبرد، رغم أن هذا الشقيق قد جاوز الستين من العمر.

عندما تجد الأم أنه لا مفر من بيع البيت والبستان، بسبب ما هم فيه من ضائقة مالية لا مخرج منها، وتقرر أن تعود هي وابنتها إلى فرنسا، نراها وهي تودع كل جزء من البيت قبل أن تتركه، بنفس العواطف القوية التي أبدتها عند قدومها بعد غياب طويل. يرى المشاهدون كل أفراد الأسرة وهم يخرجون من البيت، واحدًا بعد الآخر، ونسمع صوت إغلاق الباب، ويصبح البيت خاليًا تمامًا. وتخفت الأضواء فنظن أن المسرحية ستنتهي على هذا النحو. ولكننا نسمع صوت أقدام في داخل البيت، ونتبين أنهم نسوا الخادم العجوز نائمًا في الداخل، ولم يسألوا عنه لتوديعه قبل ذهابهم، بل وأغلقوا الباب من الخارج بافتراض أن البيت خالٍ تمامًا. يظهر الخادم متوكئًا على عصاه، ويكتشف ذهابهم جميعًا، ويقول ما معناه أنهم نسوه، ثم يرقد على الأرض ليستريح، ونفهم أن هذه هي نهايته أيضًا.

كان قد وُزع علينا قبل بدء المسرحية كتيب صغير يحتوي على نبذات عن المسرحية، وظروف كتابتها، وعن كاتبها نفسه. ولفت نظري ما ذكره هذا الكتيب من أن «تشيكوف» كان يتبادل النِّكات والضحكات مع زوجته، وهو على فراش الموت (ولم يكن عمره قد تجاوز ٤٤ عامًا عند وفاته). لم يذكر الكتيب ما الذي كان يضحكهما بالضبط، وهو في هذه الحالة، ولكن على ضوء ما أعرفه عن شخصية «تشيكوف» وحياته، لم أستغرب أن يكون هذا حاله قبيل وفاته مباشرة، أو أن تكون هذه هي طريقة استقباله للموت.

عندما سألت نفسي عن التفسير المحتمل لهذا الموقف من جانب رجل كـ«تشيكوف»، خطر لي أنه ربما كان هو الموقف إزاء الموت الذي نتوقعه من شخص حكيم مثله. وقد تذكرت أيضًا بهذه المناسبة ما كان يكتبه نجيب محفوظ عن الموت؛ لقد كان محفوظ أيضًا، فيما أعرف، رجلًا حكيمًا. ولا أشك في أن هذا كان أيضًا موقف الشاعر الهندي «طاغور»، ولنفس السبب.

قلت لنفسي: هل يمكن إذن أن نقول إن الشخص الذي عرف كيف يعيش بحكمة، يكون هذا هو موقفه عند اقتراب الموت؟ أو بعبارة أخرى، إن تعامل المرء مع الموت يكون على نفس الدرجة من الحكمة التي أبداها في تعامله مع الحياة؟ فإذا كان التعاطف (الحقيقي لا المصطنع) مع الناس، والزهد في تحصيل المال أو الشهرة، وكراهية التسلط، والبعد عن الحسد والغيرة، إلخ، هي الصفات التي نعتبرها من مكوِّنات الحياة السعيدة، أو من شروط الرضا بالحياة، فهل هذه هي الصفات نفسها التي تؤهل المرء لتقبُّل الموت بصدر رحب وبلا خوف؟

كتب أخرى للمؤلف

باللغة العربية

- مقدمة إلى الاشتراكية مع دراسة لتطبيقها في الجمهورية العربية المتحدة. القاهرة: مكتبة القاهرة الحديثة، ١٩٦٦.
- مبادئ التحليل الاقتصادي. القاهرة: مكتبة سيد وهبة، ١٩٦٧.
- الاقتصاد القومي: مقدمة لدراسة النظرية النقدية. القاهرة: مكتبة سيد وهبة، ١٩٦٨، ١٩٧٢.
- الماركسية: عرض وتحليل ونقد لمبادئ الماركسية الأساسية في الفلسفة والتاريخ والاقتصاد. القاهرة: مكتبة سيد وهبة، ١٩٧٠.
- المشرق العربي والغرب: بحث في دور المؤثرات الخارجية في تطور النظام الاقتصادي العربي والعلاقات الاقتصادية العربية. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٧٩، ١٩٨٣.
- محنة الاقتصاد والثقافة في مصر. القاهرة: المركز العربي للبحث والنشر، ١٩٨٢.
- تنمية أم تبعية اقتصادية وثقافية؟ خرافات شائعة عن التخلف والتنمية وعن الرخاء والرفاهية. القاهرة: مطبوعات القاهرة، ١٩٨٣؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥.
- الاقتصاد والسياسة والمجتمع في عصر الانفتاح. القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٨٤.
- هجرة العمالة المصرية (بالاشتراك مع إليزابيث تايلور عوني). أوتاوا: مركز البحوث للتنمية الدولية، ١٩٨٦.
- قصة ديون مصر الخارجية من عصر محمد علي إلى اليوم. القاهرة: دار علي مختار للدراسات والنشر، ١٩٨٧.

- نحو تفسير جديد لأزمة الاقتصاد والمجتمع في مصر. القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٨٩.
- مصر في مفترق الطرق. القاهرة: دار المستقبل العربي، ١٩٩٠.
- العرب ونكبة الكويت. القاهرة: مكتبة مدبولي، ١٩٩١.
- السكان والتنمية: بحث في الآثار الإيجابية والسلبية لنمو السكان مع تطبيقها على مصر. القاهرة: المؤسسة الثقافية العمالية، معهد الثقافة السكانية، ١٩٩١.
- الدولة الرخوة في مصر. القاهرة: دار سيناء للنشر، ١٩٩٣.
- معضلة الاقتصاد المصري. القاهرة: دار مصر العربية للنشر، ١٩٩٤.
- شخصيات لها تاريخ. بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ١٩٩٧، ٢٠٠٠. القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، ٢٠٠٨.
- ماذا حدث للمصريين؟القاهرة: دار الهلال، سلسلة كتاب الهلال، ١٩٩٨؛ الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٠، دار الهلال، ٢٠٠١، دار الشروق، ٢٠٠٦، الطبعة التاسعة ٢٠١٢.
- المثقفون العرب وإسرائيل. القاهرة: دار الشروق، ١٩٩٨، ٢٠٠٥.
- العولمة. القاهرة: دار المعارف، سلسلة اقرأ، ١٩٩٩، ٢٠٠٠، ٢٠٠١، دار الشروق، ٢٠٠٩.
- التنوير الزائف. القاهرة: دار المعارف، سلسلة اقرأ، ١٩٩٩، دار عين للنشر، ٢٠٠٥.
- العولمة والتنمية العربية. بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٩، ٢٠٠١.
- وصف مصر في نهاية القرن العشرين. القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠، ٢٠٠٩.
- كشف الأقنعة عن نظريات التنمية الاقتصادية. القاهرة: دار الهلال، سلسلة كتاب الهلال، ٢٠٠٢، دار الشروق، ٢٠٠٧.
- عولمة القهر. القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٢، ٢٠٠٥.
- كتب لها تاريخ. القاهرة: دار الهلال، سلسلة كتاب الهلال، ٢٠٠٣.
- شخصيات مصرية فذة. القاهرة: دار المعارف، سلسلة اقرأ، ٢٠٠٣، دار الشروق، ٢٠٠٩.

- عصر الجماهير الغفيرة. القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٣، ٢٠٠٩.
- عصر التشهير بالعرب والمسلمين. القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٤، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٤، دار الشروق، ٢٠٠٧.
- مستقبليات: تأملات في أحوال مصر والعرب والعالم في منتصف القرن الواحد والعشرين. القاهرة: دار الهلال، سلسلة كتاب الهلال، ٢٠٠٤.
- خرافة التقدم والتخلف. القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٥، ٢٠٠٩.
- ماذا علمتني الحياة؟ (سيرة ذاتية). القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٧، الطبعة السادسة ٢٠٠٩.
- فلسفة علم الاقتصاد. القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٨، ٢٠٠٩.
- رحيق العمر. القاهرة: دار الشروق، يناير ٢٠١٠، فبراير ٢٠١٠.
- مصر والمصريون في عهد مبارك. القاهرة: دار الشروق، ٢٠١١.
- ماذا حدث للثورة المصرية؟ القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٢.
- قصة الاقتصاد المصري. القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٢.
- محنة الدنيا والدين في مصر. القاهرة: دار الشروق، ٢٠١٣.

باللغة الإنجليزية

- *Food supply and Economic Development with Special Reference to Egypt*. London: F. Cass, 1966.
- *Urbanization and Economic Development in the Arab World*. Beirut: Arab University in Beirut, 1972.
- *The Modernization of Poverty: A Study in The Political Economy of Growth in Nine Arab Countries, 1945-1970*. Leiden: Brill, 1974, 1980.

تُرجم إلى اليابانية في ١٩٧٦، وحاز جائزة الدولة التشجيعية في ١٩٧٦.

- *Project Appraisal and Income Distribution in Developing Countries* (Coedited with J. Macarthur). A Special Issue of World Development, vol. 6, issue 2, Oxford: 1978.
- *International Migration of Egyptian Labor* (with Elizabeth Taylor Awny). Ottawa: International Development Research Centre, 1985.

- *Egypt's Economic Predicament*. Leiden: Brill, 1995.
- *Whatever Happened to the Egyptians?*. Cairo: AUC Press, 12th printing 2012.
- *Whatever Else Happened to the Egyptians?*. Cairo: AUC Press, 5th printing 2007.
- *The Illusion of Progress in the Arab World*. Cairo: AUC Press, 2nd printing 2007.
- *Egypt in the Era of Hosni Mubarak, 1981-2010*. Cairo: AUC Press, 2011.
- *Whatever Happened to the Egyptian Revolution?*. Cairo: AUC Press, 2013.

كتب مُترجَمة

- تنبرجن، جان. التخطيط المركزي. القاهرة: الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي، ١٩٦٦.
- نيركسه، راجنار. أنماط من التجارة الدولية والتنمية الاقتصادية. القاهرة: الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي، ١٩٦٩.
- مجموعة مؤلفين. مقالات مختارة في التنمية الاقتصادية. القاهرة: الجمعية المصرية للاقتصاد السياسي، ١٩٧٨. (بالاشتراك).
- مجموعة مؤلفين. الشمال-الجنوب: برنامج من أجل البقاء. تقرير اللجنة المستقلة المُشكّلة لبحث قضايا التنمية الدولية برئاسة ويلي برانت. الكويت: الصندوق الكويتي للتنمية، ١٩٨١. (بالاشتراك).

إننا نقضي حياتنا ونكتب الكتب دون أن نقول إلا جزءًا صغيرًا من الحقيقة، وهذا أحد الدوافع التي تدفعني إلى كتابة هذه الحكايات.

من عاش مثلي ثمانين عامًا، لا بد أن يكون قد تعرَّف في حياته على عدد كبير من الناس، رجال ونساء، أغنياء وفقراء، من المتعلمين وغير المتعلمين، مصريين وأجانب، إلخ. وعندما أستعيد في ذهني ما رسخ لديَّ من انطباعات عن هذا الشخص أو ذاك، فيمن تعرفت عليهم على مرِّ السنين، يعتريني العجب... وجدت معظم هؤلاء (بل أكاد أقول كلهم) من الألغاز المستعصية على الفهم. لقد أحببت كثيرين منهم حبًا جمًا، واعتراني نفور شديد من كثيرين غيرهم، ولكنني وجدتهم جميعًا، سواء مَن أحببت منهم أو كرهت، «ألغازًا بشرية». لا أستطيع أن أفهم كيف اجتمعت في الواحد منهم هذه الصفات المتعارضة، أو كيف يستقيم تصرفه على نحو معين مع شخص ما، مع تصرف مضاد له تمامًا مع شخص آخر، أو حتى مع نفس الشخص في وقت آخر. بل إني لاحظت أنني حتى مع الأشخاص الذين ظللت مدة طويلة أعتبرهم واضحين تمامًا لي، ومُتَّسقين تمامًا مع أنفسهم، أفاجأ بعد هذا بتصرفات منهم غير مفهومة، فيتحولون في نظري فجأة إلى ألغاز، وكأني لم أعرفهم قط على حقيقتهم.

حاولت أن أجمع في هذا الكتاب أمثلة قليلة من كثير مما صادفته في حياتي من ألغاز بشرية.

كتابة هذه الحكايات ليست بدءًا في عمل جديد، بل هي بمثابة لملمة وتنظيم لأشيائي القديمة. يهمني الآن ألا أترك ورائي شيئًا مهمًا، ولكن حتى إذا فعلت، فإني أظن أن في هذا الذي جمعته ما يكفي وزيادة.

جلال أمين

